الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 67 - August 2004

مجلة شهرية . العدد السابع والستون . السنة السادسة . أغسطس ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات



الإمارة سيف ومنسف .. دولة القبيلة العربية
مازن النجار

بينوكيو .. الولد الطيب الشرير
تانيا ل. جرين

الطباخ .. الفنان .. الضحية .. سيرة حياة غير عادية
مصطفى الرزاز

حين تصبح الحرية أداة للقهر
جلال أمين

السـنـة السادسـة
العـدد السابع والستون
أغسطس ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

• جلال أمين ٤
«الحرية.. أداة للقهر»
التنمية حرية، تأليف: أمارتيا سين، ترجمة: شوقى جلال
• مازن النجار ١٠
«دولة القبيلة العربية»
Tribes and Power، تأليف: فالح عبد الجبار وهشام داود
• نبيل على ١٦
«نزيف العقول العربية: رؤية معلوماتية»
• ياسر علوى ٢٢
«من الأمير إلى الخبير؟.. القرار»
«*Experts, Economic Policy, and the Damage to Democracy*
تأليف: تيقو تيفانين
Rule of Experts، تأليف: تيموثى ميشيل
• أندرو هاكر ٢٦
«من هو الأمريكى؟»
Who Are We?، تأليف: صامويل ب. هانتنجتون.
How Liberals Will Win، تأليف: روبرت ب رايش.
How We live Now?، تأليف: دافيد بروكس.
The Two Americas، تأليف: ستانلى ب. جرينبرج
Invisible In America، تأليف: دافيد ك. شيبلر
• تانيا ل. جرين ٣٢
«المشروع الزنجى.. خطة القضاء على الأمريكان السود»
• مصطفى الرزاز ٣٨
«عبد البديع عبد الحى.. سيرة حياة غير عادية»
• اليسون لورى ٤٤
«الولد الطيب الشقى»
• جينى أجلو ٥٠
«جويا.. رسام الملوك ولاعنهم أيضا»
Goya تأليف: روبرت هيوز
• عبد الرشيد الصادق محمودى ٥٢
«الفلسفة فرعونيا»
حول نشأة الفلسفة فى مصر القديمة، تأليف: حسن طلب
• ستيفن واينبرج ٥٧
«أبحاث الفضاء أم مرضى الأرض؟»
• ويليام ماكنيل ٦٢
«الأنفلونزا الكبرى أخطر سلاح دمار شامل»
The Great Influenza، تأليف: جون م بارى
• حلمى محمد القاعود ٦٦
«أشجان العاشق»
أشجان العاشق تأليف: على أبو المكارم
• إصدارات جديدة ٧٠
عبد العظيم أنيس «فى البدء كان ديوفانتيس السكندرى»
Fermat's Last Theorem، تأليف: سيمون سينج
• رسائل ٧٨
نادر فرجانى يناقش دور الإبراهيمى والأمم المتحدة
• أيمن الصياد ٨٢
قراءة: «القانون.. والقوة.. والعدل»

كتاب العدد:

- اليسون لورى.. أستاذة اللغة الإنجليزية بجامعة كورنيل.
- أندرو هاكر.. مدرس العلوم السياسية بكلية كوينز بالولايات المتحدة.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تانيا ل. جرين.. باحثة بمنظمة «نساء من أجل أمريكا».
- جلال أمين... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- جينى أجلو.. كاتبة إنجليزية.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- ستيفن واينبرج .. أستاذ العلوم بجامعة تكساس وحاصل على جائزة نوبل فى الفيزياء ١٩٧٩.
- عبد الرشيد الصادق محمودى.. أستاذ الأدب العربى فى جامعات فرنسا.
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- مصطفى الرزاز.. فنان تشكيلى وكاتب.
- نادر فرجانى.. مدير مركز المشكاة للدراسات.
- نبيل على .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.
- ويليام ماكنيل.. أستاذ التاريخ بجامعة شيكاغو.
- ياسر علوى.. باحث فى الاقتصاد السياسى والعلاقات الدولية.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد

لوحة الغلاف للفنان حلمى التونى/ ٢٠٠٤ / زيت على قماش/ ٧٠× ٦٠سم

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص ـ ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.

Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

** تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر»، إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة **

الحرية...

جلال أمين



هذا كتاب اجتمع له كثير من شروط النجاح، ولكنه نجاح من نوع معين، ليس فى رأيى أفضل الأنواع. فمؤلفه أستاذ مرموق عمل منذ أواخر الخمسينيات مدرساً ثم أستاذ بجامعة إنجليزية عريقة هى جامعة كامبردج، ونشر خلالها وبعدها الكثير من الكتب التى تجمع جمعاً موفقاً للغاية بين الاقتصاد والسياسة والفلسفة والأخلاق، ومن ثم حظى بتقدير واسع بين طلبة علم الاقتصاد وأساتذته، وعلى الأخص بين المشتغلين بقضايا الرفاهية الاقتصادية وقضايا التنمية والعلاقة بينهما، بعد سنوات من التدريس فى جامعة كامبردج انتقل للتدريس فى جامعات مرموقة أخرى، كجامعة لندن ثم أكسفورد وأستاذاً زائراً فى جامعات هارفارد وكاليفورنيا (بيركلى) وستانفورد ومعهد ماساشوستس للتكنولوجيا الشهير. واتصل اتصالاً وثيقاً بالأستاذ الباكستانى الشهير أيضاً «محبوب الحق»، وتعاون الاثنان فى صياغة وتطوير مفهوم التنمية الإنسانية (Human Development) الذى تبنته الأمم المتحدة وأنشأت مكتباً بهذا الاسم تابعاً لبرنامج الأمم المتحدة للإنماء وتوج هذا كله بحصوله على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى سنة ١٩٩٨.

هذا هو الأستاذ الهندى الأصل «أمارتيا سن» (Amartya Sen)، والكتاب هو (التنمية كحرية) Development as Freedom، Oxford University Press، ١٩٩٩ وترجم مؤخراً إلى العربية تحت عنوان: التنمية حرية (ترجمة شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مايو ٢٠٠٤).

الأستاذ مرموق، والموضوع مهم، والعنوان جذاب، وجائزة نوبل تغرى أى شخص بقراءة ما يكتبه الحاصل عليها. وعلى الرغم من هذا كله، كان يعترينى أثناء قراءة الكتاب شعور قوى بعدم الارتياح، كان يزداد قوة كلما زاد ما قرأته

التنمية كحرية
أمارتيا سين
ترجمة: شوقى جلال
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٤

أداة للقهـــر!!

ما المكسب الذى نحققه من النظر إلى الفقر وسوء الحالة الصحية، وانفراد حزب واحد بالحكم، وموقف بعض التقاليد، فى بعض الثقافات، موقفاً سلبياً من خروج المرأة إلى العمل، وكأنها مجرد صور مختلفة لشىء واحد هو فقد الحرية؟

منه. فلما طلبت منى مجلة «وجهات نظر» أن أكتب عرضاً للكتاب قبلت بل ورحبت بالطلب، إذ كانت فرصة لاكتشاف ما الذى يعجبنى فى الكتاب بالضبط، رغم كل ما ذكرته من شروط النجاح المتوفرة له. فلما أعدت القراءة فيه عثرت على ما أبحث عنه، بل هالنى ما وجدت من أسباب تدعو لعدم الارتياح بل والغضب. وهاأنذا أعرض على القارئ ما وجدت:

لا يشك أحد فى أن الإنسان كثير الحاجات والرغبات. قد يكون الاقتصادى مبالغًا عندما يصف هذه الحاجات والرغبات بأنها «غير محدودة»، ولكنها بلا شك كثيرة جداً حتى ليصعب حصرها. الإنسان يحتاج إلى أشياء مادية وغير مادية، من مأكل وملبس ومأوى، إلى وسائل الانتقال من مكان لآخر إلى وسائل للدفاع عن نفسه وللاتصال بالآخرين ولتكوين علاقات اجتماعية.. إلخ.

قد يكون كل هذا من قبيل «الحاجات» الضرورية التى لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها، ولكن هناك أيضاً الكثير مما يرغب فيه الإنسان ويطمح إليه دون أن يكون ضرورياً بهذا المعنى. فهو يرغب فى الحصول على مختلف وسائل الترفيه عن النفس والتخفيف من عناء العمل، وعلى ما يمكنه من المباهاة أمام الآخرين أو التفوق عليهم، أو حتى ما يمكنه من السيطرة عليهم وإثارة الغيرة فى نفوسهم. وهو يرغب فى التعبير عن مكنون نفسه بممارسة نوع أو آخر من الفنون، ويريد الشعور بالطمأنينة والتخلص من كل ما يخيفه من المستقبل، كالموت أو فقد شخص عزيز عليه، أو الفقر أو البطالة أو الوحدة.. إلخ.

قد تكون حاجات الإنسان الضرورية ثابتة لا تتغير كثيراً، ولكن رغباته دائمة التجدد والتغير، مع تغير الظروف والأحوال، فهى فى مجتمع صغير غيرها فى دولة كبيرة، وفى القرية غيرها فى المدينة، وهى فى مجتمع بدوى غيرها فى مجتمع زراعى مستقر أو مجتمع صناعى.. إلخ.

والحاجات والرغبات الإنسانية، وإن كان منها الثابت والمشترك بين الناس جميعاً، كثيراً ما تختلف بين فرد وآخر بحسب مزاجه وميوله، وبحسب قدراته العقلية والجسمانية، وبحسب ما إذا كان رجلاً أو امرأة، صغيراً أو كبير السن، مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً.. إلخ.

ولكن مادامت الحاجات والرغبات الإنسانية كثيرة ومختلفة على هذا النحو، فالقيود التى يمكن أن تفرض عليها وتمنع الإنسان من إشباعها، لابد أن تكون كثيرة بدورها ومتنوعة. فهناك الفقر مثلاً، كقيد أو مانع من موانع إشباع الحاجات، وهناك ضعف الصحة الذى قد يمنعك من ممارسة كثير من رغباتك، وهناك الجهل وقلة المعلومات مما قد يمنعك من الوصول إلى غرضك الذى يتطلب الوصول إليه حداً أدنى من المعرفة. وهناك الاستبداد الذى قد يمارسه شخص آخر ضدك فيمنعك من إشباع حاجاتك أو تحقيق رغباتك. ولكن الاستبداد قد يأتى فى صور كثيرة، ومن مصادر مختلفة: فهو قد يصدر من الدولة ضد شعبها، أو من الرجل ضد المرأة، أو الأب ضد أولاده، أو رب العمل ضد العاملين فى مؤسسة، وقد يأتى من المؤسسة الدينية بل ومن العرف والتقاليد الاجتماعية السائدة التى قد تشعرك بالعار إذا قمت بإشباع بعض رغباتك، ناهيك بالطبع عن «الإرهاب» الذى شاع حديثاً الكلام عنه وإضافته إلى ما يمكن أن يحرم الإنسان من فرص إشباع حاجاته وتلبية رغباته.. إلخ.

ومع ذلك فلابد أن نلاحظ أيضاً أن نفس هذه الأشياء التى يمكن أن تكون سبباً فى حرمانك من إشباع بعض حاجاتك قد تكون أيضاً، بل وفى نفس الوقت، مصدراً من مصادر إشباع حاجات أخرى. فالدولة قد تحرمك من أشياء، كالسفر إلى خارج البلاد مثلاً، ولكنها قد تتيح لك أشياء أخرى مرغوباً فيها، كالوظيفة الثابتة مثلاً أو الحماية من الإرهاب. والتقاليد السائدة قد تشعرك بالعار من تلبية رغبات معينة، ولكنها قد تفرض على الآخرين مساعدتك عندما تبلغ سن الشيخوخة مثلاً، وقد يحدث العكس بالضبط فى ظل تقاليد أخرى تحررك من الشعور بالعار إذا قمت بأعمال معينة، ولكنها تحرمك من هذه المساعدة فى الشيخوخة.. إلخ.

كل هذا يبدو أوضح من أن يحتاج إلى ذكر، وليس فيه أى جديد مما لا يعرفه القارئ، بل قد تحتاج فقط إلى تذكيره به.

الجديد فقط هو فى طريقة الأستاذ «أمارتيا سن» فى التعبير عنه، وهذا هو بالضبط ما دعانى إلى البدء بالتعبير عنه بطريقة مختلفة.

ففى هذا الكتاب الذى نتكلم عنه (التنمية حرية) اختار المؤلف أن يعبر عن هذا كله باستخدام فكرة الحرية. فالحاجات والرغبات الإنسانية عبر عنها، كلها تقريباً، تعبيراً يجعلها مرادفة للرغبة فى الحرية. إشباع حاجتك إلى الطعام أصبح لديه «حريتك فى أن تأكل أو لا تأكل إذا جعت»، وكذلك حاجتك إلى الملبس والمأوى والمعرفة والتنقل من مكان لآخر.. إلخ، كلها تحولت إلى حريتك فى أن تحصل على هذا أو ذاك أو لا تحصل عليه، أو حريتك فى أن تفعله أو لا تفعله. إذا كان الأمر كذلك، فإن كل الموانع والعقبات التى قد تحرمك من الحصول على هذه الأشياء التى تحتاجها أو ترغب فيها، يمكن أن تعبر عنها بدورها بالقول بأنها «قيود على الحرية». الفقر قيد على حريتك فى الحصول على الكثير من ضروريات الحياة وكمالياتها، وضعف الصحة يصبح قيداً على حريتك فى الحصول على كل ما يتطلب توفر صحة جيدة، والجهل أو عدم وجود فرصة أمامك للذهاب إلى المدرسة أو الجامعة، يصبح قيداً على حريتك فى أن تحصل على المعرفة، وكذلك استبداد الدولة وفرض المؤسسة الدينية رأيها وتفسيرها الخاص للدين، وسيادة تقاليد أو أعراف معينة تصعب مخالفتها، وكذلك قهر الرجل للمرأة أو الأب لأولاده.. إلخ.

هذا المسلك الذى اختاره الأستاذ سن قد يبدو للوهلة الأولى مقبولاً ولا غبار عليه، بل قد يبدو للوهلة الأولى أيضاً جذاباً ومفيداً. فهناك بالطبع جاذبية رد أشياء كثيرة ومختلفة إلى أصل واحد، كما فى رد إشباع كل الحاجات والرغبات الإنسانية إلى شىء واحد هو «التمتع بالحرية». وهناك أيضاً الجاذبية المستمدة من فكرة الحرية نفسها. فالنظر إلى مختلف أنواع الإشباع لمختلف أنواع الحاجات والرغبات على أنها كلها تتضمن تحقيق هذا الهدف السامى والرفيع «الحرية»، فيه إعلاء وتفخيم لهذه الحاجات والرغبات، ويزيد من مقتنا لأى صورة من صور الحرمان من إشباع أى حاجة أو رغبة من حاجاتنا ورغباتنا.

ولكن هذا المسلك له أيضاً مثالبه وعيوبه الخطيرة، هى السبب على الأرجح فيما شعرت به من عدم الارتياح لدى قراءة الكتاب لأول مرة، دون أن أدرك على الفور سببه، ثم تبين لى مع التفكير فى الأمر، وهذا هو ما سأحاول الآن أن أبينه للقارئ.

ما المكسب الذى نحققه من النظر إلى الفقر وسوء الحالة الصحية، وانفراد حزب واحد بالحكم، وموقف بعض التقاليد، فى بعض الثقافات، موقفاً سلبياً من خروج المرأة إلى العمل، وتدخل الدولة فى نظام السوق بفرض أسعار جبرية لبعض السلع، أو توجيه الخريجين إلى نوع من الوظائف دون غيرها.. إلخ، ما المكسب الذى نحققه من النظر إلى كل هذه الأشياء، المختلفة أشد الاختلاف، وكأنها مجرد صور مختلفة لشىء واحد هو فقد الحرية؟ أليس هذا المسلك فى الحقيقة مجرد تلاعب بالألفاظ يحجب من الحقيقة أكثر مما يكشف عنها؟

نعم، فى الفقر حرمان من الحرية، بصورة أو بأخرى، كما أن تدخل الدولة بفرض بعض الأسعار الجبرية، فيه أيضاً حرمان من الحرية، بصورة أو بأخرى، ولكن ألا ترى الفوارق الشاسعة بين هاتين الصورتين من صور «فقدان الحرية»؟ هناك أولاً الفارق فى درجة الخطورة. ففى الحالة الأولى (الفقر) يتمثل فقدان الحرية فى فقد حرية الاختيار بين الحياة أو الموت، إذ قد يصبح المرء «مضطراً» إلى الموت جوعاً، أو فقد الحرية بين



الزعم بأن نظام السوق هو النظام الأكثر كفاءة هو نفسه محل جدل، خاصة إذا فهمنا الكفاءة بمعنى واسع يشمل اعتبارات أخلاقية وجمالية، بالإضافة إلى الاعتبارات الكمية والمادية البحتة

نـــوى

يعاود سلامة أحمد سلامة كتابة مقاله بعد عودته إن شاء الله

العيش كآدمي والعيش كحيوان، أو بين الشعور بالكرامة وبين الذل أمام الغير. أما فى الحالة الثانية (تدخل الدولة بفرض أسعار جبرية) فالحرمان من الحرية يتعلق بحرمان منتج السلعة من اقتضاء أعلى ثمن ممكن، ومن الاتجاه إلى إنتاج السلع الأكثر ربحاً، وحرمان بعض المستهلكين الأكثر ثراء من الحصول على السلع التى خُفضت أسعارها.. إلخ. بل إن الحرمان من الحرية الذى يصيب بعض الأشخاص فى حالة فرض أسعار جبرية لبعض السلع قد تقابله زيادة فى درجة الحرية المتاحة لأشخاص آخرين، هم الفقراء من المستهلكين الذين لم يكونوا قادرين على استهلاك هذه السلع قبل تخفيض أسعارها.

بالإضافة إلى ذلك هناك اختلافات كبيرة بين درجة الشعور بالقهر الذى يتضمنه الحرمان من الحرية فى الأحوال المختلفة. فالشعور بفقدان الحرية الذى يلازم الفقر مثلاً، هو شعور شديد الوطأة بالمقارنة مثلاً بشعور المرء الذى يحرم من تحويل أكثر من كمية معينة من عملته الوطنية إلى عملة أجنبية. إذن فالحديث على هذه الأنواع المختلفة من الحرمان أو من عدم إشباع الحاجات أو الرغبات وكأنها كلها مجرد صور مختلفة لشىء واحد هو «الحرمان من الحرية» قد يتضمن تمييعاً للأمور وخلطاً فيما بينها قد يكون ضرره أكبر من نفعه.

هناك أيضاً الضرر الناتج عن التسرع فى حسم قضايا لازال يحتدم عليها الخلاف بشدة، وذلك بتصوير المشكلة فى كل هذه القضايا على أنها فى نهاية الأمر مجرد اختلاف بين أنصار الحرية وأعدائها. وحيث أننا جميعاً، فيما يبدو، مستعدون للتسليم بأن الحرية شىء مرغوب فيه دائماً، وهدف نبيل فى جميع الظروف والأحوال، فما أسهل أن نقع فى الفخ بأن نتصور أننا لابد أن ننحاز إلى صف ذلك الطرف الذى ينتصر للحرية ضد أعداء الحرية، فى حين أن المشكلة قد تكون أعوص من هذا بكثير، وحلها ليس بهذه السهولة.

خذ مثلاً مناقشة مؤلف الكتاب للخلاف بين أنصار نظام السوق وأنصار تدخل الدولة فى فصل بعنوان «الأسواق والدولة والحرية الاجتماعية». إنه يعترف على عجل بأن الدولة قد يكون تدخلها ضرورياً لتحقيق درجة أكبر من العدالة، كلما أخل نظام السوق بها، ولكن تقوم بإنتاج ما يسميه الاقتصاديون بالسلع العامة (Public Goods) ويقصد بها السلع والخدمات التى لا يعود النفع من استهلاكها على شخص معين أو مجموعة محددة من الأشخاص، بل على المجتمع بأسره، كخدمة التعليم مثلاً أو الدفاع أو الخدمات الصحية أو الحدائق العامة.. إلخ، حيث قد لا يكفى حافز الربح وحده لضمان إنتاج هذه السلع العامة، يعترف الأستاذ سن بهذا على عجل، ولكنه يجعل التأكيد الأكبر فى هذا الفصل، والرسالة الأساسية التى يخرج بها القارئ منه بأن نظام السوق، أى عدم تدخل الدولة فيما يتخذه الأفراد من قرارات الإنتاج والاستهلاك، هو النظام الأفضل. ويبرر ذلك ليس فقط بالدفاع التقليدى عن نظام السوق بأنه يحقق درجة أعلى من الكفاءة (أى معدلاً أكبر لنمو الإنتاج) ولكن أيضاً بأن نظام السوق، بمقتضى تعريفه نفسه، يترك الناس أحراراً فى عقد الصفقات واتخاذ القرارات، فنظام السوق له إذن، فى رأى الأستاذ سن، تلك الميزة الإضافية، بصرف النظر عن ميزة الكفاءة، وهى تحقيق هذا الهدف الأسمى وهو «الحرية».

الأمر، معروضاً على هذا النحو، يبدو إذن محسوماً لصالح نظام السوق. ولكن الحقيقة هى أنه أبعد ما يكون عن الحسم. ففضلاً عن أن الزعم بأن نظام السوق هو النظام الأكثر كفاءة هو نفسه محل جدل، خاصة إذا فهمنا الكفاءة بمعنى واسع يشمل اعتبارات أخلاقية وجمالية، بالإضافة إلى الاعتبارات الكمية والمادية البحتة، وبمعنى يشمل مصلحة الأجيال القادمة كما يشمل مصلحة الجيل الحالى، وكل هذا قد يبرر تدخلاً كبيراً من جانب الدولة. فضلاً عن ذلك، فإن مساهمة نظام السوق فى توسيع دائرة الحرية أمام الناس هى نفسها أمر مشكوك فيه ويحتاج إلى مزيد من التأمل. فترك الأفراد أحراراً فى اتخاذ قراراتهم دون تدخل من الدولة قد يبدو للوهلة الأولى، وبالضرورة، أكثر تحقيقاً للحرية من نظام يخضعهم لمختلف أنواع الأمر والنهى، ولكن تفاعل قرارات الأفراد «الحرة» قد ينتج عنه نظام أسوأ بكثير، حتى من حيث الحرية نفسها، من التدخل ابتداء بالأمر والنهى، تماماً كما أن قانون الغابة، القائم على ترك الحرية المطلقة لسائر الحيوانات قد ينتهى إلى نتيجة أسوأ مما يمكن أن يحدث لو أسبغت من البداية حماية للحيوانات الأضعف. قد يقال إن هذا تدخل فيما يقصده «سن» بتدخل الدولة لتحقيق العدالة (equity)، ولكن اعتبار العدالة، إذا أخذ بمعنى حماية الضعيف من اعتداء القوى، هو اعتبار أوسع بكثير مما يصوره سن فى هذا الكتاب، ومما قد يتصوره القارئ. ففى كل خطوة نخطوها نجد حالة من الحالات التى قد تستدعى بعض التدخل لحماية الطرف الأضعف، ونجد أن ترك الحرية للأفراد دون ضابط من شأنه أن يقلل من درجة الحرية المتاحة للبعض دون البعض الآخر. المسألة لا تقتصر على حماية المستهلكين والعمال من سطوة المشروعات الاحتكارية، ولا على ضرورة تدخل الدولة لتوفير التعليم الأساسى لأفراد لن يحصلوا عليه لو ترك ميدان الاستثمار فى التعليم خاضعاً لحافز الربح، بل قد يشمل أيضاً التدخل فى نوع المقررات التى يطلب من التلاميذ أن يتعلموها فى كافة مراحل التعليم، والتدخل فيما يتعرض له مشاهدو التليفزيون من إعلانات تجارية، بل والتدخل لوضع حد لانتشار نمط من الحياة يعلى من قيمة الاستهلاك على كل ما عداها. فسطوة الإعلانات ومروجى السلع على وسائل الإعلام، وما تؤدى إليه من تشجيع سيادة النمط الاستهلاكى للحياة، وهو ما يؤدى إليه بالضرورة نظام السوق، قد يتضمنان افتئاتاً على الحرية قد لا يقل خطورة عن التدخل الشديد من جانب الدولة. إنى لست الآن بصدد الدفاع عن تدخل الدولة فى هذا الأمر أو ذاك، ولكنى فقط أريد أن ألفت النظر إلى أن نظام السوق، إذا كان يعطيك بعض الحريات باليد اليمنى، فهو قد يسلبك حريات أخرى باليد اليسرى. والأرجح أن هذا القول ينطبق على أى نظام، وليس على نظام السوق وحده، فالزعم بأن نظاماً كنظام السوق يتيح للناس بالضرورة قدراً أكبر من الحرية مما يتيحه نظام تدخل الدولة، هو زعم خاطئ ومتسرع.

أو فلنأخذ طريقة مناقشة الأستاذ سن لموضوع تلاقى الحضارات أو الثقافات، وعلى الأخص تعرض ثقافات بلاد العالم الثالث لغزو الثقافة أو الحضارة الغربية، فى فصل بعنوان «الثقافة وحقوق الإنسان».

هنا أيضاً يعترف الأستاذ سن على

عجل بأن الموضوع له بعض الخطورة، ويتظاهر بأنه يقدر وجاهة رأى المتخوفين من «غزو» ثقافة الغرب للثقافات الوطنية لمختلف أمم العالم الثالث، بل ويرى بعض الشبه بين نتيجة هذا الغزو وما يتعرض له بعض أنواع الحيوانات من خطر الانقراض. ولكن ما الرسالة التى يخرج بها القارئ من هذا الفصل؟ الرسالة هى أنه لا خطر هناك فى الحقيقة ولا داعى البتة للخوف. ولماذا يا ترى؟ أولاً لأن الحضارات والثقافات تتفاعل دائماً فيما بينها، ويندر أن تجد سمة من سمات حضارة أو ثقافة بعينها «نقية» مائة بالمائة، ولم تدخل فى تكوينها عناصر من ثقافة أخرى. حتى المأكولات الهندية غزت المطاعم البريطانية والمطبخ الإنجليزى. وكل القيم التى نعتز بها، كالتسامح والديمقراطية، والتى هى نفسها عادة للغرب، موجودة بدرجة أو بأخرى فى كثير من الثقافات الأخرى كالهندية أو الإسلامية. فما الذى يستخلص من هذا؟ يستخلص أن الهند تغزو الغرب بثقافتها مثلما يغزو الغرب الهند (وإن كان المثل الذى يضربه لغزو الهند للغرب هو غزو طبق دجاج المارسالا للمطاعم البريطانية). والأشياء التى يغزو بها الغرب الهند كثيراً ما تكون بضاعة الهند ردت إليها. فما وجه الشكوى إذن؟

هناك رسالة أخرى يريد المؤلف أن ينقلها من خلال هذا الفصل، وهى أن الحل فى هذه الأمور، مثله فى سائر فصول الكتاب ليس إلا أن نترك للناس حرية الاختيار. فها هى الثقافات المختلفة معروضة على أمم العالم الثالث، ثقافة الغرب وثقافاتهم الخاصة، وما على هذه الأمم إلا أن تختار من بينها ما يجدونه الأفضل، أو ما تجد مزاياه أكبر من مساوئه، أى أن يجروا فى ميدان الثقافة أيضاً حساباً للمنافع والنفقات، مثلما يجريه الاقتصاديون عند حساب الربح والخسارة، ويختاروا ما كانت منافعه الصافية موجبة.

هل هذا كلام مقبول من مفكر اقتصادى كبير، اعتاد الجمع بين علم الاقتصاد والسياسة والفلسفة والأخلاق؟ هل يجوز لمثل هذا المفكر أن يتجاهل تلك الحقيقة الصارخة، التى تصدمنا يوماً، وهى حقيقة عدم التكافؤ الذى يجرى فى ظله هذا الصراع (أو هذا الغزو) بين ثقافة الغرب ومختلف ثقافات العالم الثالث، وهو عدم تكافؤ فى القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والدعائية التى تصاحب هذا الغزو من ثقافة لأخرى؟ هل يجوز فى مثل هذه الظروف أن نكتفى بدعوة الناس إلى ممارسة حرية الاختيار بين الثقافات متظاهرين بأنهم يتمتعون بالفعل بهذه الحرية؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يذكر هذا الأمر الأستاذ سن بما يجرى فى ميدان الاقتصاد من عدم تكافؤ وقلة عدالة، مما جعله يعترف بوجاهة التدخل لتصحيحه وإن كان قد ذكر هذا الاعتراف بسرعة ودون تأكيد عليه؟ فلماذا لا نعتبر عدم التكافؤ فى حالة غزو ثقافة لأخرى، على هذا النحو، مبرراً للتدخل أيضاً، ليس فقط أو بالضرورة تدخلاً من جانب الدولة، بل ربما تدخل المثقفين والمصلحين العاملين فى النشاط المدنى، ممن يقلقهم بشدة ما يهدد ثقافات العالم الثالث من تصدع وانهيار فى مواجهة حملات الغزو العاتية من ثقافة ليست بالضرورة أرقى أو أكثر سمواً من الناحية الأخلاقية أو الجمالية، ولكنها فقط مدعومة بقوة أكبر اقتصادية وسياسية وعسكرية.

فلننظر أيضاً إلى طريقة الأستاذ سن فى مناقشة قضية المرأة، أو ما شاع تسميته «بتمكين المرأة» (Women empowerment) هنا أيضاً كم يبدو الأمر بسيطاً والحل سهلاً. فالمرأة فى العالم الثالث مقهورة وتخضع لمختلف صور التمييز ضدها. والمطلوب رفع القهر عنها والقضاء على مختلف صور التمييز ضدها؛ لأن النجاح فى ذلك، كما يقول سن، يحقق مزايا كثيرة. فضلاً عن أنه يلغى صوراً مهمة من صور الاعتداء على «الحرية»، فإن تمكين المرأة على هذا النحو من شأنه تحقيق مزايا إضافية، كتخفيض معدل الخصوبة، ورفع مستوى صحة وتعليم الأطفال، خاصة الإناث منهم، بل وقد يساهم فى دعم التقدم الاقتصادى والسياسى والاجتماعى بصفة عامة، بما فى ذلك حماية البيئة، إذ أن هناك بعض الدلائل على أن المرأة إذا أوكلت إليها هذه المهام لا تقل كفاءتها فى القيام بها عن كفاءة الرجل إن لم تزد عليه. من ذلك مثلاً ما عثر عليه الأستاذ سن من إحصاءات عن بعض الولايات الهندية، تدل على وجود علاقة بين ارتفاع نسبة النساء إلى الرجال، وانخفاض نسبة ارتكاب الجرائم العنيفة.

لا نريد أن نناقش مدى قوة هذه الأدلة من الناحية الإحصائية، فهناك بعض الأسباب المنطقية التى تدفعنا إلى تأييد اعتقاده، وإن لم تكن أسباباً حاسمة. المهم أن نلاحظ أن كل الأمثلة التى يقدمها الأستاذ سن على قهر المرأة أو التمييز ضدها هى أمثلة من العالم الثالث، مما يخرج منه القارئ بانطباع قوى بأن قضية المرأة قد تم حلها، أو كاد يتم حلها، فى البلاد الصناعية أو الغربية، والفضل فى ذلك بالطبع يرجع إلى قوة حركات تحرير المرأة فى هذه البلاد وما أحرزته من نجاح.

ولكنى واحد من الناس الذين يختلفون مع الأستاذ سن فى أنهم لا يميلون مثله، فيما يبدو فى مواضع كثيرة من كتابه، إلى الاعتقاد بأن الأشياء الطيبة تأتى دائماً معاً، والأشياء السيئة تأتى دائماً معاً أيضاً، كالاعتقاد بأن التقدم الاقتصادى والتكنولوجى يصحبه فى العادة تقدم فى سائر جوانب الحياة الأخرى، بما فى ذلك درجة الحرية التى يتمتع بها الناس، أو الاعتقاد بأن الديكتاتورية تضر دائماً بمعدلات النمو الاقتصادى، والعكس بالعكس. إنى مثلاً واحد من هؤلاء الذين يعتقدون، بعكس الأستاذ سن فيما يبدو، بأن الحصول على مزيد من الحرية فى ميدان معين قد يكون على حساب ما يتمتع به المرء من حرية فى ميدان آخر. وقد رأينا بالفعل مثلين على هذا فيما سبق: نظام السوق يزيد الحرية فى جانب وينتقص منها فى جانب آخر، وانفتاح ثقافة من ثقافات العالم الثالث على ثقافة الغرب، على النحو الذى يحدث به الآن، يوسع من حرية الاختيار أمام شعوب العالم الثالث فى جانب، ولكنه يضيقها فى جانب آخر. هذه الخسارة التى تصاحب إتاحة المزيد من الحرية فى بعض الميادين، قد تكون خسارة فادحة، ومن ثم لابد أن تؤخذ فى الاعتبار وأن تناقش عند تناول موضوع نظام السوق وتدخل الدولة، وعند تناول قضية الغزو الثقافى الغربى لثقافات العالم الثالث. وهو ما لم يفعله الأستاذ سن إلا على نحو عارض جداً وبالغ التسرع، وكذلك لم يفعله عند الكلام عن قضية المرأة.

ذلك أن تحرير المرأة اقتصادياً، ورفع صور القهر المألوفة عنها، وإلغاء الصور الشائعة للتمييز ضدها، على النحو الذى فعله الغرب خلال المائة عام الماضية، ولم تقطع فيه مجتمعات العالم الثالث شوطاً كبيراً، قد يصاحبه، بل وكثيراً ما ترتب عليه، صور أخرى من صور قهر المرأة وتقييد حريتها لا يذكرها الأستاذ سن البتة. وأقصد على الأخص أمرين: القهر الذى زاد تعرض المرأة الغربية له من جانب المؤسسات التجارية ومروجى السلع ونمط المجتمع الاستهلاكى بوجه عام، مما سمح باستخدام المرأة كرمز للجنس وشجع عليه، بأكثر مما كان مألوفاً فى الماضى، والقهر الذى زاد بتعرض المرأة له نتيجة ما أصاب الأسرة الغربية من تفكك وتصدع خلال الخمسين عاماً الماضية مع زيادة ما حصلت عليه المرأة من استقلال اقتصادى، بل وعلى الأرجح، كنتيجة لزيادة هذا الاستقلال الاقتصادى. إنى لا أقول أى الأحوال أفضل، ولا أدعو إلى حرمان المرأة مما حصلت عليه من حريات اقتصادية، ولكنى فقط ألفت النظر إلى أن المسألة ليست بالبساطة التى يصورها الأستاذ سن، أى تصوره أن مزيداً من التحرر الاقتصادى للمرأة، أمر محمود على طول الخط، ومفيد مائة بالمائة. وأن ما فعله الغرب فى هذا الشأن جدير بالاقتداء من جانب مجتمعات العالم الثالث دون أدنى تحفظ.

والمدهش فى تجنب الأستاذ سن السير إلى أبعد من هذا فى مناقشة قضية المرأة، أن الأمر لا ينطوى على مجرد تحقيق مكسب فى ميدان الحرية وتحقيق بعض الخسارة فى ميدان أو ميادين أخرى، بل إنه ينطوى على كسب وخسارة فى ميدان الحرية نفسه. فالمرأة التى أصبحت مضطرة لسبب أو آخر إلى أن ترعى أولادها وحدها، بسبب ما أصاب الأسرة من تصدع، هى امرأة أكثر حرية من غيرها فى جوانب، ولكنها أقل حرية فى جوانب أخرى. إذن فنحن إذا أثرنا موضوع ما يترتب على تفكيك الأسرة وضعف روابطها من آثار سيئة لا نغادر قط ميدان الحرية المحبب لدى الأستاذ سن، ومن ثم كان الأجدر به أن يلتفت هو أكثر من غيره إلى مناقشة هذه الآثار الأخرى التى تقيد من حرية المرأة.

من المحزن أن يفكر المرء فيما يمكن أن يكون الواقع

كتاب الزاوية

سندباد إلى الغرب

حسين فوزى

ولد الدكتور حسين فوزى «السندباد» بحى الحسين فى ١١ يوليو عام ١٩٠٠ لأب يهوى المعرفة وأم لا تعرف القراءة والكتابة، وتلقى أول دروسه فى كتاب الشيخ سليمان جاويش. حصل على بكالوريوس الطب عام ١٩٢٣ وتخصص فى طب العيون وتم تعيينه طبيباً فى مصلحة الصحة فى وزارة الشعب الأولى، وزارة سعد باشا. وقد سافر حسين فوزى أول مرة عام ١٩٢٥، حين أرسلته الحكومة المصرية فى بعثة لدراسة الأحياء المائية ومصائد الأسماك. وكان يراسل المجلات المصرية من فرنسا، فنشر مقالاته بمجلة «السفور» ومجلة «الجريدة».

كان الدكتور حسين فوزى أول عميد لكلية العلوم بجامعة الإسكندرية حين تولى هذا المنصب عام ١٩٤٢. وفى عهد الثورة، شغل منصب وكيل وزارة الثقافة حين كان الدكتور ثروت عكاشة وزيرها، فساهم فى تأسيس العديد من المشروعات الثقافية المهمة مثل أوركسترا القاهرة السيمفونى وأكاديمية الفنون، كما كان صاحب الجهد الأساسى فى تأسيس إذاعة «البرنامج الثانى» التى أنشئت عام ١٩٥٨ بهدف الارتفاع بذوق الجماهير فى الأدب والفن والموسيقى الرفيعة.

تولى الدكتور حسين فوزى الصفحة الأدبية بجريدة «الأهرام» عام ١٩٦١ بعد أن ترك الوزارة، وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٦. له مؤلفات عديدة منها: سندباد عصرى، سندباد مصرى، سندباد فى رحلة الحياة، الموسيقى السيمفونية، وقد أوصى بمكتبته الأدبية لجامعة القاهرة ومكتبته الفنية إلى أكاديمية الفنون قبل وفاته فى شهر أغسطس من عام ١٩٨٨.

الحقيقى الذى أدى بالأستاذ سن إلى أن ينحو هذا المنحى فى كتابه، وأن يسلك هذا المسلك الذى يختلف بدرجة واضحة عن المسلك الذى كان يتخذه فى الستينيات والسبعينيات، عندما كان يعبر عن تعاطف أكبر بكثير مع تدخل الدولة، وعندما كان يولى اهتماماً أكبر بكثير بقضية عدالة التوزيع وللاعتبارات الأخلاقية التى قد تبرر التضحية ببعض الحريات الفردية فى سبيل تحقيق مصلحة أهم للمجتمع ككل. نحن الآن، وقد ودعنا القرن العشرين، ودخلنا قرناً جديداً، نعيش فى عالم مختلف تماماً، أفضل فى جوانب كثيرة مما كان عليه منذ مائة عام، ولكنه أيضاً أسوأ كثيراً فى جوانب أخرى. والمتوقع من مثقف كبير بحجم الأستاذ أمارتيا سن، يجمع فى اهتماماته بين عدة فروع مهمة من فروع المعرفة والعلوم الاجتماعية، أن يوجه أكبر قدر من جهده إلى التنبيه إلى أهم ما يواجه العالم الثالث من أخطار، وينشغل بتحليلها وبيان آثارها. ولكن الذى فعله الأستاذ سن فى كتابه الأخير هذا «التنمية حرية»، أو «التنمية كحرية»، كان عكس هذا بالضبط.

نظر الأستاذ سن فوجد العالم كله يتكلم عن الحرية والديمقراطية، وعن انتصار نظام السوق الحر على كل ما عداه، وعن العولمة وتحول العالم الكبير إلى قرية كبيرة واحدة، وعن تمكين المرأة وتحريرها من سلطة الرجل. فما الذى يمكن أن يكون أنسب للاقتصادى من أن يكتب كتاباً أو يلقى مجموعة من المحاضرات تتحول فيها قضايا العالم الثالث كلها إلى قضية واحدة هى قضية «الحرية»؟ إذا فعل ذلك فإنه يكون قد ضرب عصافير كثيرة بحجر واحد: يكون قد دافع عن الديمقراطية السياسية، وعن نظام السوق، وعن العولمة وعن المرأة، وفى نفس الوقت، بين للعالم الثالث أنه لا تعارض بالمرة بين هدف التنمية النبيل، وهذه الأهداف النبيلة الأخرى، فكلها تصب فى إناء واحد هو إناء الحرية. وهكذا يبدو للعالم جميلاً حقاً، أو على الأقل يبدو وكأن العالم رغم بعض الأشياء القليلة غير الجميلة الموجودة حالياً، يسير فى الاتجاه الصحيح، فى هذه الميادين كلها: فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، بل وحتى فى العلاقات الدولية بين الجزء المتقدم من العالم والجزء المتخلف، إذ ليس أمام هذا الجزء المتخلف ما يخشاه من الجزء المتقدم، لا اقتصادياً ولا سياسياً ولا ثقافياً. فالعولمة ليست فقط حتمية بل هى فى التحليل الأخير فى صالح الجميع، بشرط أن تحدث بعض التدخلات البسيطة لتحسين حال المهمشين، وبشرط أن تمارس شعوب الجزء المتخلف من العالم حقها بحرية فى الاختيار بين مختلف الثقافات المعروضة عليهم، والتى ليست على أى



إنى مثلاً واحد من هؤلاء الذين يعتقدون، أن الحصول على مزيد من الحرية فى ميدان معين قد يكون على حساب ما يتمتع به المرء من حرية فى ميدان آخر

حال، إلا محصلة تفاعل قديم بين هذه الثقافات جميعاً.

العالم الذى يرسم الأستاذ سن صورته فى هذا الكتاب، هو عالم جميل حقاً، لا يستحق منا كل هذا الغضب، ولا من أعداء العولمة محاربتها، ولا من كارهى نظام السوق التنديد به، ولا ممن تعذبهم رؤية ثقافاتهم الوطنية تنهار أمام غزو الثقافة الغربية أن يبتئسوا كل هذا البؤس. نعم هناك حاجة إلى رتوش بسيطة لمزيد من التجميل هنا وهناك، ولكن الصورة فى الأساس بديعة، وليس فى الإمكان، على أى حال، أبدع كثيراً مما كان.

إذا كانت هذه هى فعلاً الرسالة الأساسية التى يبعثها كتاب «التنمية حرية»، إلى القارئ، أو على الأقل إحدى الرسائل الأساسية التى يحاول توصيلها، فكيف لا يشعر بعدم الارتياح قارئ مثلى يعتقد عكس هذا بالضبط؟ إذ يرى أن العالم يمر الآن بمرحلة خطيرة يتعرض فيها للتهديد الكثير من القيم الإنسانية الأساسية: الحرية تعيش بها الشركات الدولية العملاقة فى داخل الدول المتقدمة صناعياً والدول الفقيرة على السواء، وهذه الشركات تستخدم سياسيى وجيوش دولها لخدمة هذا العبث بالحريات فى الداخل والخارج، والديمقراطية لا تعيش أزهى عصورها، على الرغم من كل ما يقال بعكس ذلك، بل تتحول أكثر فأكثر إلى نقيضها بفعل وسائل اللعب بالأدمغة وفقدان الأفراد، شيئاً فشيئاً، لقدرتهم على مقاومة ما بيد الدولة والمؤسسات الكبيرة من وسائل القهر. ونظام السوق الذى ينتشر تطبيقه، أكثر فأكثر، مع شيوع الاتجاه نحو الخصخصة وفتح الأبواب على مصارعها أمام تنقل السلع والخدمات ورؤوس الأموال، يصبح أكثر فأكثر توحشاً وقسوة فى داخل الدول الصناعية وخارجها على السواء، والثقافات الوطنية تتعرض لمزيد من القهر خاصة بعد أن انتهت الحرب الباردة وانفراد ثقافة بعينها بكل الوسائل التى تمكنها من السيطرة على وسائل الإعلام وتغيير نظم التعليم والتدخل حتى فى أشد جوانب الحياة خصوصية، بما فى ذلك عقيدة المرء الدينية.

لقد فضل الأستاذ أمارتيا سن أن يتجاهل كل هذا عندما دعا فى سنة ١٩٩٦ إلى إلقاء مجموعة من المحاضرات على كبار الموظفين بالبنك الدولى، فاختار أن يرسم هذه الصورة الزاهية للعالم، ثم قام بجمع هذه المحاضرات فى كتاب «التنمية كحرية»، الذى نُشر لأول مرة بالإنجليزية فى سنة ١٩٩٩. ولابد أن المحاضرات قد أدخلت السرور على قلوب المسئولين فى البنك، بل وعلى قلب كل من له صلة «بالمؤسسة»، بأوسع معانى «المؤسسة»، أى بمعنى الأفراد والهيئات والمنظمات والشركات المتحكمة فى مصير هذا العالم، سياسياً واقتصادياً وثقافياً وإعلامياً، بل ولابد أنها أدخلت السرور أيضاً على كل من يهمهم أمر الإمبراطورية الأمريكية التى يجرى الآن، ومنذ سقوط الكتلة السوفيتية، تثبيت دعائمها وترسيخها.

وقد حصل الأستاذ أمارتيا سن على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى سنة ١٩٩٨، أى فيما بين إلقائه لهذه المحاضرات وبين ظهور الطبعة الأولى من الكتاب. ومن الخطأ فى رأيى القول بأن اتخاذ هذا الموقف من جانب أمارتيا سن فى هذه المحاضرات وغيرها من محاضرات وكتابات فى العشرين سنة الأخيرة، هو سبب حصوله على جائزة نوبل. ولكن من الخطأ أيضاً فى رأيى أن تنفى وجود أى علاقة بين الأمرين. فالمرء لا يحصل على جائزة نوبل لمجرد أن «المؤسسة» راضية عنه، إذ لابد أن يكون قد أثبت جدارته العلمية أو الفنية بالمقارنة بأقرانه فى فرع تخصصه، ولكنه على الأرجح لا يحصل على هذه الجائزة إذا كانت «المؤسسة» غير راضية عنه.

إذا كان الأمر كذلك، فلابد أن يبدو الاسم الذى اختاره الأستاذ أمارتيا سن لمحاضراته وكتابه (التنمية كحرية)، داعياً إلى شىء من السخرية. إذ هاهى الحرية تستخدم كوسيلة للقهر، أو بعبارة أدق، هاهو شعار الحرية يستخدم للدفاع عن نمط للحياة تزدهر فيه مختلف صور القمع والقهر. ولكن هذه ليست المرة الأولى على أى حال التى يستخدم فيها شعار الحرية كقناع لممارسة القهر: حدث هذا من قبل فى روسيا السوفيتية، وفى ألمانيا النازية، وفى إيطاليا الفاشية، وتستخدمه الآن بنشاط كبير أمريكا الديمقراطية. ■

كتـــاب الــزاويـــة

ســـندباد إلى الغـــرب

جولة فى لوندره ما بعد الحرب

أخيراً هذه هى لوندره، بحدائقها السندسية البهيجة، وأبنيتها السوداء القبيحة، وازدحامها المرهق، وأوتوبوساتها الفرحة بلونها الأحمر، الشامخة بطابقيها، وحركة المرور المعكوسة المقلقة باتجاهها إلى يسار الطريق بدل يمينه، وبوليسها ذى القبعات الناقوسية الكحلية.

كلا لم أنس لوندره منذ سنة ١٩٣٨. فلم يمض علىّ فيها يومان حتى وجدتنى أعرف من أحيائها وطرقها ودورها وآثارها ما عرفت من قبل. ولم أقض ساعة بين أهلها حتى اعتدت ذلك الهدوء البارد، وشعور «عدم المبالاة بالآخرين»، والحدود الموضوعة للسلوك فى البيع والشراء والاتصال بالناس.

ها هم الإنجليز بوجوههم التى لا تنم عن شعور، إلا أن يكون شعور من يشكو الإمساك المستعصى. ولكن النساء أكثر أناقة وعناية بجمالهن، وربما كن أشد صلفاً واعتداداً، بينما يبدو رجالهم أشد تعباً وإنهاكاً.

هذا الشعب المنتصر يعيش على شفا الجوع، يقتر عليه فى الخبز واللحم، ويحسب عليه الكساء وأدوات النظافة. هذا الشعب الذى استولت الدولة على معظم إيراده لترد عنه غوائل المعتدى يرى نفسه فى آخر المطاف غالباً يصرف بعض إيراده على المغلوب ويعيش ثلاثة أرباعه على الربع الباقى. فالدولة تأخذ من الغنى لتعطى الفقير. ومهما كثر ما تأخذ من الغنى فهو أبعد من أن تجعل من الغنى فقيراً ومن الفقير غنياً، ولكنها خطوات فى طريق التحرير، تحرير البشرية من العوز، طريق العدالة الاجتماعية، عدالة المساواة لا أمام القانون وحده، بل أمام الاقتصاد أيضاً.

«الإمارة سيف ومنسف»:

مازن النجار

هذا الكتاب هو فى الأصل مجموعة مساهمات بحثية متكاملة، وإن لم تكن شاملة، لعدد من الأكاديميين (فى أوروبا) من المهتمين بالتاريخ والسياسة والاجتماع فى المشرق العربى الإسلامى. تقارب هذه المعالجات بنية ووظائف قبائل العراق وإيران وكردستان وليبيا والمغرب والمملكة العربية السعودية وأوضاعها الراهنة، وما طرأ عليها من مستجدات وتطورات فى القرن الماضى، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين القبيلة والسلطة، وخلفيات وحركيات هذه العلاقة. كما تعالج مساهمات الباحثين أثر السياسات والتنظيمات المركزية والتقنيات الحديثة واقتصاد السوق على أحوال القبائل، وما أحدثته من تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية. ومن خلال دراسة بعض الحالات، تستعرض المساهمات تعقيدات بنيان وعلاقات القرابة والنسب وأثرها على تشكيل العصبيات القبلية وقيام إمارات القبائل واندحارها.

تبنت المنطقة العربية، وجوارها شرق الأوسطى عموما، فى حقبة ما بعد الاستقلال فى أعقاب الحربين العالميتين، نموذج الدولة القومية (الحديثة) بشكلها وحدودها ومؤسساتها وبعض آلياتها. ومن خلال ذلك أرادت بعض النخب الحاكمة أن تتدرج فى عملية التحديث متجاوزة الأشكال التقليدية للاجتماع السياسى، وفى مقدمتها وأهمها القبيلة. لكن بعد مرور عقود طويلة على تأسس الدولة الحديثة فى الشرق الأوسط، أثبتت القبيلة أنها عصية على الاقتلاع، وأنها ما زالت حجر الأساس فى كثير من البلدان. ذلك أنها لم تختف من المسرح السياسى العربى والشرق أوسطى، رغم ما بدا من غياب أو تغييب لها. لقد كانت القبيلة دوما هناك فى خلفية المسرح تلعب أدوارا مركزية فى السياسة والسلطة، ويشهد اليوم صعودا متميزا للقبيلة وتموضعا جديدا لها فى قلب المجتمع أو قلب السلطة.

يطرح هذا الوضع أسئلة كثيرة: كيف حدث هذا؟ لماذا يرتد المجتمع والسياسة العربيان إلى عصبيات إثنية وقبلية فى عصر العولمة وانهيار الحدود والولاءات الضيقة؟ هذه الأسئلة وتفريعاتها الكثيرة هى بعض ما يتطرق إليه الكتاب، غير أن السؤال المركزى الذى يطرحه الكتاب، وينعكس على معظم مساهمات الباحثين المشاركين هو كيف استمر حضور القبيلة بشكل طاغ فى السياسة العربية؟ ولماذا؟

دور القبيلة بعد قرن من نشوء الدولة الحديثة

تنطلق الفكرة الأساسية للكتاب من التجربة العراقية حيث أعيد إحياء القبائل فى مطلع تسعينيات القرن العشرين، رغم أن العراق كان يُعرف فى القرن التاسع عشر بأنه مقبرة القبائل بينما كانت الجزيرة العربية تعتبر ملاذ أو جنة القبائل. فقد كانت هناك سلطة مركزية قوية فى العراق، بينما كانت غائبة فى الجزيرة العربية. فحينما تقوى السلطة المركزية تضعف القبيلة، والعكس صحيح. ولكن بعد مرور حوالى قرن على نشوء الدولة المركزية، أعيد إنشاء القبائل بسهولة كبيرة فى العراق. وهكذا ينطلق السؤال من العراق ليمتد إلى منطقة الشرق الأوسط ككل فى محاولة للدراسة المقارنة مع المغرب والجزيرة العربية وكردستان تركيا وإيران والعراق. كما يقدم الكتاب دراسة لحالة إيران فى إطار مقارنة بعموم البلاد العربية إضافة إلى بعض البلاد المجاورة، وإن لم يحالف التوفيق بعض هذه المقارنات.

سيبقى العامل السياسى محوريا وهاما فى دول الشرق الأوسط الحديثة، وخاصة فى العراق. فمن هذه الناحية يتواصل الكتاب مع الأعمال الأنثروبولوجية والسياسية عن القبائل، والتى كتبت عن منطقة العراق والأردن والجزيرة العربية. وهو إضافة مهمة لهذه الدراسات، وتبقى الرسالة الأصلية للكتاب هى استمرارية القبيلة، ولكن فى نفس الوقت هناك أيضا تغير وتطور هائل بحيث إنها أصبحت وحدة اجتماعية تختلف تمام الاختلاف عما كانت عليه تاريخيا. فقد كانت القبيلة تاريخيا وحدة اجتماعية لها تركيب خاص، وكان تركيبها متعلقا بالاقتصاد، خاصة الاقتصاد الرعوى، وتربية الإبل. زال هذا التركيب الاقتصادى فى العصر الحديث، فصارت للقبيلة وظائف اجتماعية أخرى، تختلف تمام الاختلاف عما كانت عليه تاريخيا، وهى كوحدة اجتماعية أيضا اختلفت تماما. ولكن كيف تطورت وتغيرت وحدة القبيلة فى ظل الدولة المركزية مقارنة بما كانت عليه؟

ينتقد الكتاب نظرية التطور التى ترى أن القبيلة تبدأ مع الاقتصاد الرعوى، وتتفتت عندما تنتقل للاقتصاد الزراعى، وتتلاشى عندما تنتقل للاقتصاد المدينى أو الصناعى أو التجارى. لكن الواقع التاريخى يقول أنها لم تنته لدى انتقالها من حالة اقتصادية إلى أخرى، فتعلق التنظيم القبلى بالاقتصاد الرعوى ليس عضويا أو حتميا. فقد تغيرت أنماط الاقتصاد، وتغيرت أنماط التنظيم الاجتماعى والسياسى أيضا؛ ولكن القبيلة كقبيلة بقيت على الأقل من ناحية الاسم والكيان والزعامات. فمن الملاحظ أن القبيلة فى الاقتصاد الرعوى هى تقريبا دولة؛ لأن البذرة تحتوى على شجرة فى خلية، تصير غصنا فى خلية، تصير جذورا فى خلية، وتصير جذعا. فالقبيلة لها قوتها العسكرية، وقانونها غير المدون بالطبع، وثقافتها الشفهية، ونطاقها الجغرافى (الأرض)، ومصادر مياهها؛ ولها أيضا تحالفاتها ومعاهداتها العسكرية، كأنما هى دولة مصغرة، سوى أن الزعامة السياسية غير موجودة فعلا كمؤسسات سياسية. وقد تطورت بعض القبائل إلى إمارات، كما حصل فى إمارة شمّر فى الجزيرة العربية أو كما حصل فى حالة الدولة السعودية الأولى. كذلك نشأت بعض الإمارات الكردية من اتحادات وزعامات قبلية قوية وحدت القبائل وأخضعت مناطق. هذا الشكل الكلاسيكى انتهى، ولم يعد موجودا بسبب الاقتصاد الحديث والهجرة إلى المدن وغير ذلك.

لكن بقيت بعض الفرضيات حول هذا الموضوع. فهناك من يعتقد أن القبيلة ككل بقيت كثقافة، بمعنى الارتباط بالقبيلة وجدانيا، ودفع الديات نيابة عنها، والدفاع عنها، والاستجابة لمطالب ومبادرات شيخ القبيلة. فهى علاقة تضامن معنوية أكثر منها علاقات مادية. وهناك من يرى أن ما بقى من القبائل هو البيوتات والأفخاذ الصغيرة والعشائر.

ولكن السؤال الكبير وربما الفضفاض والذى تتوزع إجابته فى مختلف فصول الكتاب: هل صمود وحدة القبيلة رغم قيام الدولة المركزية، هو بسبب قوتها الذاتية الداخلية؟ أم هو بسبب فشل الشكل الجديد للدولة الحديثة فى المنطقة العربية والشرق الأوسط فى تحقيق هوية أو رابطة أو انتماء يحل محل القبيلة؟

بعد مرور عقود طويلة على تأسس الدولة الحديثة فى الشرق الأوسط، أثبتت القبيلة أنها عصية على الاقتلاع، وأنها ما زالت حجر الأساس فى كثير من البلدان

Tribes and Power: Nationalism and Ethnicity in the Middle East

القبيلة والسلطة: القومية والإثنية فى الشرق الأوسط

Faleh A. Jabar, Hosham Dawod (Editors)

London: Al Saqi Books, 2003; 360 pp

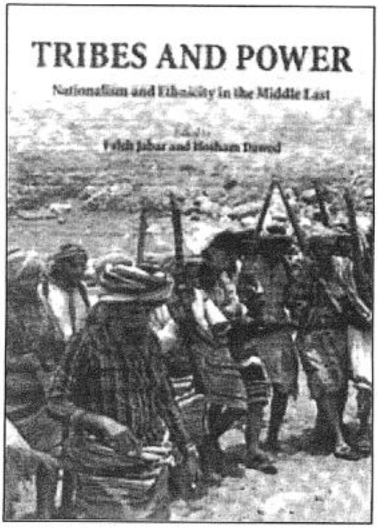
دولة القبيلة العربية

بيد أن المسألة ليست فشل الدولة الحديثة حصريا، لأنه من فعاليات الدولة الحديثة إنشاء تماسك اجتماعي داعم للدولة، وهذا يقتضي أن تستخدم القبيلة في معظم الأحيان لأجل خلق هذا التماسك والدعم. فالقبيلة صار لها إستراتيجية تعني تواجدا مختلفا لوحدات القبيلة، وهي خطة استراتيجية مبنية على أيديولوجية القرابة والنسب. ولكن في نفس الوقت، يتم استعمال القرابة والنسب في سبيل مصالح زعماء وأفخاذ القبيلة. فالقبيلة كوحدة تغيرت، ورغم أن النسب والقرابة هما أيدلوجية القبيلة، انحصرت الوحدات الفعالة في القبيلة في تلك التي لها مصالح تتماسك مع بعضها البعض. وبالطبع هناك في بعض الأحيان خلافات ونزاعات وصراعات بين مختلف الرئاسات في نفس القبيلة.

النموذج التفسيري الخلدوني

يكاد ابن خلدون أن يكون الحاضر الذي لا يغيب عن فصول الكتاب، خاصة المقولات والنظريات الخلدونية الشهيرة حول «النسب والعصبية والرياسة ودورات الملك». وترى بعض مساهمات الكتاب أن أهمية النظرية الخلدونية في فهم وتفسير مركزية العصبية (القبلية) في التاريخ العربي لا تتوقف على تفسيراته التاريخية والاجتماعية للحقبة التي عاشها وما سبقها، بل تمتد تطبيقاتها الهامة إلى التاريخ الحديث والمعاصر.

لاحظ ابن خلدون أن صراع العصبيات القبلية الصغرى يتم حسمه لصالح عصبية غالبة، يؤول إليها الملك، وتعمل من خلاله على إعادة صياغة الولاءات والعصبيات الصغرى بحيث تؤسس ولاء وروحا جماعية بين عصبيات القبائل المتصارعة، مستندة إلى شرعية المقدس المتمثل بدعوة دينية وما لها من فعاليات في التنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. لكن ديناميةوحراك العصبيات الصغرى يخفت ويشتد بالتوازي مع منعة وقوة العصبية الغالبة التي ستنخرط حتما في دورة الملك الذي ما أن يصل ذروته حتى يبدأ بالهبوط والانحدار الناتج عن فساد يولده الترف والدعة. في تلك الأثناء تكون عصبية أخرى ترقب الانحدار لتتلقف راية الرياسة، وتصعد لتأخذ مكانها في دورة التدافع التي تتابع الدوران.



يتفق ويختلف الباحثون المساهمون في الكتاب مع ابن خلدون في بعض الجوانب من نظريته، لكنهم لا يستطيعون إغفالها، خصوصا في الفصل الذي كتبه بيير بونت حول «القبائل والدول: ابن خلدون والأنثروبولوجية المعاصرة»، فهو يدرس دورات قيام الدول والتحالفات القبلية وأثرها على القبيلة والدولة. ولكن ما هي دلالة فكر ابن خلدون فيما يخص دراسة القبيلة والسلطة؟ وهل يمكن لقراءات وتفسيرات الاجتماع البشري في القرن الثالث عشر والرابع عشر أن تفسر واقع الاجتماع البشري الحديث أو المعاصر؟

دلالة النموذج التفسيري الخلدوني هي في الاستمرارية التاريخية لظاهرة القبيلة كأحد ظواهر الاجتماع البشري. فالدولة الحديثة في المنطقة لم تنشأ إلا في بداية القرن العشرين مع الإصلاحات العثمانية، وإصلاحات محمد علي باشا، والثورة الدستورية في إيران (المشروطية). قبل ذلك كان هناك استمرارية تاريخية للتوازن بين القبائل وبين الدولة، وتعرف هذه الحالة في المغرب بالدولة «المخزن». وقد لاحظت دورة الاجتماع الخلدونية أن قبائل البدو تتضامن وتكون كل ثلاثة أجيال قوة عسكرية هامة تقتحم المدن لتؤسس دولة، تدوم بدورها لثلاثة أجيال، ثم تتحلل الأواصر بين الغزاة، لتضعف شوكتهم، ثم تتفكك تحت ضغط تحالف بدوي (قبلي) جديد أكثر التحاما. لكن العثمانيين كسروا الدورة الخلدونية عندما دخلوا عصر البارود والمدفعية، وغيروا علاقات القوى بين المدينة والقبيلة لصالح الدولة (الإمبراطورية). فالتحول الأهم في العهد العثماني هو انقطاع صيرورة الصراع بين البداوة والمدينة التي هي أساس النظرية الخلدونية، وانكسار الدورة الخلدونية؛ إذ كانت أي مدينة محصنة بأسوارها وقلاعها ومدافعها الموجهة من فتحات الأسوار قادرة غالبا على صد هجمات البدو. يؤكد هذا الانكسار في الدولة الخلدونية إخفاق عدد من محاولات الانسلاخ عن الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، وكانت تلك المحاولات قائمة على عصبيات وتحالفات قبلية، كإمارة الشيخ ضاهر العمر في إقليم عكا، وإمارة فخرالدين المعني الثاني في جبل لبنان، والدولة السعودية الأولى في نجد، وإمارة الشيخ صفوق بن فارس الشمري في عراق منتصف القرن التاسع عشر. وكانت آخرها إمارة الشيخ خزعل في الأهواز جنوب غرب إيران والتي انتهت بهزيمته أمام رضا شاه ونفيه من الأهواز.

كذلك، يتناول بيير بونت جانبا جديدا وهاما. فالدارس لابن خلدون يجد تفسيرات لتماسك القبيلة وعدم تماسك المدينة، وكيف أن القبيلة تنتقل إلى المدينة وتسيطر عليها، ثم يبدأ الانحلال وغيره من مناحي الضعف. غير أن بيير بونت يدرس البنية الهرمية التراتبية داخل القبيلة وفيما بين القبائل التي تنشأ منها الزعامة؛ فهي ليست بنية مستقرة، بل هي بنية احتراب وصراع داخل القبيلة، لا يقل حدة عن الصراع بينه وبين القبائل الأخرى، وعلى الأخص الصراع بين البيوتات القوية على الزعامة، وكذلك داخل البيت المتزعم، لأنه لا يوجد نظام ثابت لتوارث الزعامة. فعندما يموت شيخ القبيلة يرثه أبناؤه أو إخوته أو أبناء إخوته. فالوراثة إما أن تكون أفقية أو عمودية. وهنا ينشأ الصراع بين خطوط الوراثة (بين الأبناء والأعمام) أو داخل كل خط (فيما بين الأبناء أو بين الإخوة)، وهي مسألة مهمة يعالجها بيير بونت.

الإدارة البريطانية والقبيلة

في الفصل الذي كتبه توبي دودج عن أثر الاستعمار البريطاني وعلاقته مع القبيلة، يعرض دودج لرؤية حنا بطاطو حول أن الاستعمار البريطاني أنقذ القبيلة من انحدار كان شبه حتمي، وأنه حاول استغلال شيوخ القبائل حتى يساعدوه في إدارة العراق كقوة إدارة محلية، وبهذه العملية هو أنقذها من انحلال كان متوقعا بسبب دخول الحداثة وفعاليات عملية التحديث. كانت رؤية حنا بطاطو حول علاقة الإدارة البريطانية بالقبائل قد لقيت قبولا أكاديميا واسعا لعقود طويلة، إلا أنه بعد صدور دراسات كثيرة حول التاريخ الاجتماعي للعراق، احتاجت هذه الرؤية إلى تعديل.

كان حنا بطاطو يعتقد أن العثمانيين في عهد التنظيمات وفي سياق



كان بريطانيون آخرون - مثل جلوب باشا - ينظرون إلى القبيلة نظرة رومانسية؛ ويشعرون بالقلق إزاء تراجع الحياة القبلية، وما تنطوى من نقاء وعفوية، تفتقدها الحياة الغربية الحديثة

سعيهم نحو بناء إدارة مركزية، كانوا يدمرون الرؤساء والزعامات، ويفتتون القبائل. وعلى العكس من السياسات العثمانية السابقة على التنظيمات، كانت الأخيرة تعتمد الحكم المباشر، ولا تؤمن بتفويض وسطاء من القبائل والزعماء المحليين للاعتماد عليهم فى إدارة المناطق. ولهذا فقد كانت علاقتهم عدائية مع القبائل، بل تعرضت القبائل والقبلية بشكل عام لانتكاسات متوالية فى العهد العثمانى بسبب مركزية السياسة والتحديث القسرى والفوقى الذى فرضه الباب العالى على أكثر من مجال من مجالات الحياة.

لكن البريطانيين لم يوقفوا تفتت القبائل، بل أوقفوا تدمير شيوخ القبائل. استخدمت الإدارة البريطانية فى العراق الشيوخ لثلاثة أسباب. السبب الأول هو عدم ثقتها بالمدن ورغبتها فى إيجاد توازن «بريطانى» بين القبيلة والمدينة. السبب الثانى أن السير بيرسى كوكس (المعتمد البريطانى فى الخليج) أقام عام ١٩١٦ نظاما سماه «قانون فض المنازعات» الذى أسس شيوخ القبائل باعتبارهم شرطة وجهازا عدليا (قضائيا)، ولأول مرة أصبح لشيخ القبيلة قوة شرطة مسلحة خارج إطار القبيلة، وتخضع القبيلة نفسها. يعنى تحول شيخ القبيلة إلى شرطى وإلى جهاز عدلى، فهذه كانت سيطرة قليلة التكلفة. السبب الثالث هو تحول شيوخ القبائل إلى إقطاعيين، واستمرت عملية تفتت القبائل، لم توقفها ترتيبات إعادة تأهيل الشيوخ التى لم تشمل القبائل. فالشيوخ تحولوا إلى إقطاعيين وكبار ملاك، بينما تحول أبناء القبائل إلى فلاحين أقنان عندهم، أدى ذلك إلى هروب الفلاحين من الأرض، وتفاقمت بالتالى عملية تفتت القبائل؛ فلم توقفها إجراءات الإدارة البريطانية، بل عززتها، كان الاختلاف بين السياستين البريطانية والعثمانية هو أن بريطانيا أنقذت شيوخ القبائل بتحويلهم إلى ملاك وإقطاعيين.

جاءت مغالطة بطاطو حول هذه المسألة من قياسه على الحالة الكردية، فقد كان الضباط البريطانيون يتصلون ببعض القرى الكردية ويسألونهم إلى أى عشيرة ينتمون. فإذا أخبرهم الفلاحون أنهم لا ينتمون إلى عشائر، قال البريطانيون لا بد لكم من الانتماء إلى عشائر. لكن الحقيقة أن هناك نوعين من التنظيم الاجتماعى فى المنطقة الكردية: مجتمعات زراعية (فلاحية) فى القرى، وقبائل. وثمة دراسات كثيرة حول هذه القضية. لكن هذا المسئول البريطانى لم يكن يعلم أنه فى بعض المناطق لا توجد قبائل بالأساس، ولم يكن الموقف تعبيرا عن دعم بريطانى للقبلية.

لم يقتصر الموقف البريطانى من القبائل فى العراق على التوظيف الإدارى لشيوخ القبائل، بل كان جزءا من رؤية داروينية أوسع لفكرة الارتقاء التى ترى أن انضباط القبيلة ودخولها فى طاعة الامبراطورية يؤهلها للعب دور قيادى فى الانتقال بالمجتمعات التقليدية والبسيطة من البدائية إلى «الحضارة، والحداثة». عبر عن ذلك اللورد لوغارد، أحد رجالات الإدارة الاستعمارية، الذى رأى أن الشعوب «البدائية» - خصوصا الأفريقية منها- لا بد لها من الارتقاء وفقا لمسار معين ينقلها بالتدريج وعبر مراحل انتقالية من التخلف إلى الحضارة. وكان ينظر إلى القبيلة كمجتمع أبوى قسرى على أنها إحدى المراحل الانتقالية بين البدائية والحضارة. ولذا، فإن تأهيل الإدارة البريطانية لشيوخ القبائل والاعتراف بسلطتهم وتوظيفهم فى ضبط أوضاع قبائلهم هو من وجهة نظره يقرب القبيلة خطوة واسعة من التحضر بعيدا عن البدائية. تفسر هذه الرؤية الداروينية سبب احتقار لوجارد للنخب الأفريقية المتغربة لأن أفرادها «يحرقون» مراحل التطور، ويتجاوزون منحنى عملية التغيير بشكل يربكها أو يعرقلها. بينما كان بريطانيون آخرون - مثل جلوب باشا فى شرق الأردن- ينظرون إلى القبيلة نظرة رومانسية؛ ويشعرون بالقلق إزاء تراجع الحياة القبلية، ومنظومتها الأبوية، وما تنطوى من نقاء وعفوية وقيم، تفتقدها الحياة الغربية الحديثة.

بيد أن السلطات الاستعمارية البريطانية لم تكن -على أى حال- تثق بالقوى السياسية الوطنية والقومية الحديثة، بل كانت تخشاها؛ فوظفت القبائل كعامل توازن ضد القوى السياسية الحديثة، ونشوء الدولة والقوى السياسية الحديثة. لم يقتصر هذا التوظيف لزعامات القبائل على الإدارة الاستعمارية فقط، بل إن الدول والحكومات الوطنية فيما بعد استخدمت أيضا القبائل والعصبيات القبلية والإثنية ضد القوى السياسية الحديثة، واستمر ذلك إلى عهد البعث. لكن فى عراق منتصف القرن العشرين، نرى أن تطور ونضوج الحركات السياسية قلل من أهمية القبلية والإثنية. وفى العهد الجمهورى (عهد عبد الكريم قاسم) مثلا، أدى نظام الإصلاح الزراعى إلى إضعاف القبائل والقبلية بصورة عامة، ولكنها عادت بعد زوال نظام قاسم وصعود البعث إلى السلطة فى ١٩٦٨، رغم أن الأيديولوجية القومية (الحديثة) فى مراحلها المبكرة والتى انبثق عنها البعث كانت مضادة للقبلية: فتماسك الوطن والشعب والأمة يجب أن يكون على أساس المواطنة والانتماء العام، وليس على أساس القبلية.

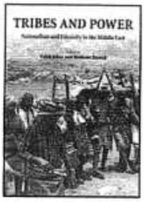
الدولة العراقية الحديثة ومسألة السلطة والقبيلة

يتناول جزء الكتاب - الذى هو بعنوان «التوليتارية والقبلية»- علاقة السلطة البعثية بالقبائل فى العراق تحديدا كحالة دراسية، وكيف تمت «بعثنة» القبيلة أو تحزيب القبيلة بعثيا، وفى الوقت ذاته اتخذت السلطة طابعا قبليا. وهذا الموضوع هو محور الكتاب بدون شك لأنه يركز على علاقة القبيلة والسلطة فى العراق الحديث.

ففى الفصل المعنون «شيوخ وأيديولوجيون»، ويتناول تفكيك وإعادة تركيب القبائل العراقية تحت توتاليتارية البعث «الأبوية»، يقدم فالح عبد الجبار تقسيما وظيفيا لأنماط القبلية. فهناك «القبلية الثقافية» Cultural Tribalism وتعبر عن شبكات قرابة قوية أو أيديولوجيا قرابة قوية، وعن قيم ومنظومات ثقافية دون أن يوجد وراءها تنظيم قبلى كلاسيكى كما هو فى السابق. فهى قبيلة أصبح جزء منها مزارعين، وآخر لا زال فى البادية، وآخر انتقل إلى الاستقرار فى المدن ولا يرتبطون ببنية قبلية محددة، بل تربطهم بعض عهود وعلاقات تراحم وتكافل فى أمور الزواج والوفاة والقضايا والوساطات. وهذه القبلية نراها فى المدن وهى تتباين وتتفاوت بين حالة (قبيلة) وأخرى.

رغم أن التناقض بين الخطاب القومى وهو بطبيعته يتسع ويتجاوز القبائل والإثنيات والمناطق وبين الخطاب القبلى الذى هو ضيق وحصرى بمجموعة بشرية معينة، استعانت المجموعة البعثية الحاكمة منذ ١٩٦٨ - بسبب ضعفها ووضعها الأقلوى داخل حزب البعث- بأفراد قبيلتها لملء المناصب الحساسة فى الجيش والأجهزة الأمنية؛ فسميت هذه الحالة «قبلنة» الدولة Tribalization of State أو قبلية «حكومية» Etatized Tribalism أى أن الدولة صارت محاطة بشبكات من القرابة لحمايتها. وعندما استخدمت الأحزاب الكردية القبائل الكردية القوية لأغراض عسكرية، سميت الحالة قبلية عسكرية Military Tribalism لأن الأحزاب الكردية اشترت الخدمات العسكرية للقبائل مما أحيا سلطة القبيلة وليس فقط سلطة زعماء القبائل، وهؤلاء الزعماء تحولوا بدورهم إلى رأسماليين كبار يملكون مشروعات صناعية وفنادق وعمارات بفضل هذه التحولات.

أما القبلية «الاجتماعية» فى الجنوب، فهى تعبير عن حالة المهاجرين من الريف للمدينة وما بينهم من تضامن



وتكافل. فنتيجة لتدمير أو إضعاف منظومات المجتمع الأهلى التى هى شكل التعبير عن انتماء الفرد إلى مجموعة أو أمة أو طبقة، نشأ فراغ بين الدولة والفرد. وهذا الفراغ ملأته شبكات التضامن الأسرية ومنها القبلية فهى قبلية «اجتماعية».

الدور السياسى للقبائل العربية

غابت صورة القبيلة فى بلدان عربية أخرى كاليمن أو الأردن عن الكتاب، وهذا أحد أوجه النقد الذى يوجه للكتاب؛ فدراسة القبيلة فى هذه البلاد تساعد على الوصول إلى مقارنات واكتشاف خطوط التوازى والتباين مع ما حدث للقبيلة فى العراق والجزيرة العربية والمغرب. فالقبلية فى اليمن والأردن لها أوضاع رسمية أكثر فى السياسة وفى ترتيب الدولة، خاصة فى اليمن. وتطور المجتمع والاقتصاد والدولة فى اليمن يختلف عنه فى البلاد العربية الأخرى مثل مصر. لذلك استمرت أهمية القبيلة، كما استمر التنظيم الاقتصادى والتاريخى لبعض القبائل. ولازال النظام العسكرى للدولة يتداخل مع العصبيات القبلية. لذلك تتجاوز أهمية القبيلة والقبلية فى اليمن تلك الأهمية فى بلاد العرب الأخرى. أما فى الأردن، فالقبيلة لها دور سياسى مباشر ينعكس على أى انتخابات عامة والتى عادة ما تكون مسبوقة بانتخابات داخل القبيلة، والتى ترشح بدورها من يمثلها فى الانتخابات البرلمانية أو البلدية. وهذا بدوره يكرس شرعية القبيلة أو الوضع الرسمى للقبلية فى الأردن، مع اختلاف الحالة هناك عنها فى اليمن. أما فى العراق، فقد ضعفت القبلية حوالى منتصف القرن العشرين، ثم قويت واستعادت عافيتها مرة أخرى بعد توظيفها من قبل حكومة البعث. وفى آخر عهدها استخدمت حكومة البعث القبائل لتقوية السيطرة الاجتماعية للدولة، فقد ضعفت آليات الدولة فى الأقاليم والمناطق مما فتح المجال لانبعاث دور القبائل فيها.

فى دراسته للقبلية والدولة فى العراق، يسجل كايكو ساكاى ملاحظاته حول دور القبلية فى الجيش والوزارات والبرلمان فى الحالة العراقية. ما يلفت النظر هو ذلك التناقض الذى يبدو أحيانا فى توجهات حزب البعث الحاكم نحو القبلية. فمن ناحية، قامت حكومة الحزب بشطب اسم الأسرة أو العشيرة أو الناحية من أسماء الأشخاص ربما لصرف النظر عن الصبغة القبلية لأفراد النظام ذاته أو لمصادرة الشعور بالانتماء والقرابة والتضامن والتعارف بين أبناء القبائل الأخرى المنافسة. من ناحية أخرى، أدت سياسات النظام إلى انبعاث دور القبيلة فى العراق بعد ذبول وانكفاء طويل، كما أدت إلى اعتماد الجيش للتشكيلات القبلية.

مـا لا يقـل عن ثلث القيـادات العسـكرية الرفيعة، ونخب رجـال الأعمـال الذين أثروا خلال عهد البعث بالعراق، وقيادات بعض المؤسسـات الأمنيـة الحسـاسة، تنتمـى فى معظمها إلى قبيلة أو قبيلتين

فما لا يقل عن ثلث القيادات العسكرية الرفيعة من مستوى قيادة الفرق فما فوق، ونخب رجال الأعمال الذين أثروا خلال عهد البعث، وقيادات بعض المؤسسات الأمنية الحساسة تنتمى فى معظمها إلى قبيلة أو قبيلتين؛ والسبب الأساسى وراء ذلك هو إضفاء عامل التلاحم على النخبة الحاكمة. تسببت السياسات القبلية للبعث، والانتقال من الخطاب القومى الموجه للأمة إلى الخطاب القبلى الضيق إلى مأزق أيديولوجى حاول بعض الأيديولوجيين فى حزب البعث حله حلا براجماتيا لتسويق القبلية فى المجتمع العراقى باعتبار أن القبيلة التى تقوم بنيتها على القرابة ونقاء النسب هى وحدة بنائية تمتد كلبنة او مكوّن داخل العائلة العربية الكبرى. وبذلك، لا يكون هناك تناقض بين أيديولوجية البعث القومية التى تقوم على فكرة الدولة وبين أيديولوجية القبيلة التى تقوم على النسب والقرابة؛ مع أن ساطع الحصرى وميشيل عفلق أقاما مفهوم الأمة بشكل أساسى على الرابط اللسانى والتاريخ المشترك وليس على رابطة العرق أو النسب.

القبيلة فى المغرب

فى الفصل الذى كتبه كنيث براون حول «الدولة والقبيلة فى المغرب»، يتناول براون علاقة القبائل المغربية والصحراوية بالدولة المغربية أو «المخزن»، كما هى التسمية التاريخية المعروفة. كذلك، يرصد الباحث التحولات الديمجرافية المتسارعة بين الريف والمدن. فمع مطلع القرن العشرين، بلغ سكان الريف والصحراء فى المغرب ضعف سكان المدن تقريبا. لكن لدى الوصول إلى عقد التسعينيات الماضية، أصبحت نسبة سكان الريف والصحراء حوالى ٤٠٪ من عدد سكان البلاد. أدى ذلك لا محالة إلى ضعف أوضاع القبائل فى المغرب، ويسر للحكومة المركزية السيطرة على البلاد فى عهد الاستقلال. لم تشهد مناطق القبائل أى تحركات أو انتفاضات ضد الدولة منذ نهاية السبعينيات الماضية، مما يؤشر على قدرة الدولة المركزية على إحكام السيطرة وتصفية مراكز القوى القبلية التى يمكن أن تشكل تحديا لها منذ بداية الثمانينيات الماضية. وإضافة إلى ذلك، تمكنت الدولة من حيازة كافة الأدوات والوسائل التى تكفل لها تشكيل التوجهات والأوضاع القبلية، بما يضمن لها سيطرة شبه تامة على هذه الأوضاع. ورغم أن القبيلة المغربية لا زالت تحتفظ ببعض خصائصها ووظائفها التاريخية كثقافتها التى تميزها عن غيرها من التشكيلات الاجتماعية، وتقاليدها التى تستقطب ولاء أفرادها، وسدنتها لمقامات بعض الأولياء، فإن قوتها السياسية قد اضمحلت إلى حد كبير.

يشكك براون فى الرؤية التقليدية السائدة حول القبيلة باعتبارها وحدة إثنية وتاريخية، بل قد تكون وحدة قبلية جهوية أو جغرافية، حيث تقدم روابط الجوار والسكنى للقاطنين فى تلك المناطق أساسا للانتماء والرابطة القبلية. وبناء على ذلك، تصبح القبيلة مركبا اجتماعيا معقدا، تدخل فيه مكوناته البشرية بشكل طوعى. وتمارس القبيلة سلطتها وتقاليدها على هذه المكونات كما تضفى عليها حمايتها. يتفق براون مع ملاحظة إدوارد كونت (مؤلف الفصل الأول) أن القبلية هناك ليست بالضرورة علاقة دم أو علاقة قرابة عن طريق الأب، إذ تخضع هذه المسألة لتداخلات وتشابكات من ناحية النسب، وكثيرا ما آلت زعامة بعض القبائل إلى عائلات من الأشراف الهاشميين لا تنتسب بقرابة الدم إلى القبائل ذاتها. بل إن شرعية العرش المغربى نفسها تستمد من النسب الهاشمى الفاطمى للأسرة العلوية المغربية المالكة. والحقيقة أن هذه الملاحظة قد تصدق أيضا فى المشرق. فقد اختارت قبائل شمر فى القرن السادس عشر الشيخ سالم بن الشريف محمد بن بركات (الجربا) زعيما لها، وظلت زعامة شمر فى ذريته إلى اليوم، ويقال كذلك أن زعامة قبيلة مطير من آل الدويش هم أصلا من الأشراف الهاشميين. وهناك أمثلة أخرى على ذلك.

والواقع أن أيديولوجية القرابة لا تتفق دائما أو بالضرورة مع الأوضاع القائمة على الأرض، وكثيرا ما تكون للقبائل رؤية استراتيجية وخطط مترتبة عليها، مما ينعكس فى تقاليد ومرويات شفهية حول أنساب وقرابات افتراضية (غير حقيقية)، لكنها ضرورية لترتيب الأوضاع الاستراتيجية والمعيشية للقبيلة. فهى إذن حالة رمزية تعبر عن أوضاع بنيوية وإشكالات استراتيجية. ورغم تشابه ثورة القبيلة والأيديولوجية القبلية فى المشرق والمغرب، يختلف التشكيل الاجتماعى للقبيلة فى المغرب عنه فى المشرق، خصوصا من ناحية علاقة القبيلة بالطرق الصوفية. وهى مسألة موجودة فى قبائل كردستان ولكن بترتيب مختلف.

القبيلة  والسلطة

قانون الانتخاب العصبوى

فى الفصل الذى كتبته مضاوى الرشيد حول «الكونفدراليات والإمارات القبلية فى الجزيرة العربية»، تحاول المؤلفة أن ترصد تطور علاقة السلطة والقبيلة فى الجزيرة العربية، وتتابع نشوء إمارات آل الرشيد وآل سعود وعلاقة كل منهما بالقبائل الأخرى. فقد سيطرت اتحادات القبائل العربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على مناطق البدو الرحل الشاسعة بينما سيطرت إمارات صغيرة على الواحات ومناطق استقرار القبائل فى نجد والحجاز والإحساء وعسير. أدت التغيرات المستمرة فى ولاءات وتحالفات القبائل وتبدل المصالح وأنماط الاقتصاد إلى تغيرات مقابلة (مناظرة) فى سلطة ونفوذ الإمارات المستقلة. ومن ناحية أخرى، كان ازدياد قوة ونفوذ تلك الإمارات تنعكس على قدرتها على المناورة والتلاعب بالتحالفات والاتحادات القائمة بين القبائل. استمرت هذه الحركية كأحد أهم العوامل المؤثرة فى العلاقة بين القبيلة والسلطة فى الجزيرة العربية حتى قيام المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢.

وكثيرا ما تستدعى الباحثة مقولات ابن خلدون، فتناقشه وتخالفه فى مسألة الأيديولوجية والعصبية الدينية. فهى لا ترى ثنائية العصبية القبلية والشرعية (الدعوة) الدينية شرطا حتميا لقيام الملك أو الرياسة فى حالة إمارات الجزيرة العربية. فقد قامت إمارات تتمتع بأحد طرفى الثنائية دون الآخر، كإمارة آل الرشيد -التى تحققت بالعصبية القبلية دون الدعوة الدينية- فى حائل (١٨٣٥-١٩٢١)، أو إمارة آل سعود فى الدرعية (١٧٤٤-١٨١٨)، والتى غلبت شرعيتها الدينية على عصبيتها القبلية.

ولكن ثنائية العصبية القبلية والدعوة الدينية تبقى ذات دلالة فى فهم آليات وحركيات قيام الإمارات ذات الأساس القبلى واندحارها. فهل كان لدعوة ابن سعود الدينية دور فى رفع قدرته على الحشد وإيقاع الهزيمة بآل الرشيد الذين افتقدوا الأيديولوجية الدينية. وهل أدى افتقاد آل الرشيد لنظام توريث مستقر -وهو إخفاق فى تنظيم واستدامة العصبية القبلية- إلى حدوث فراغ سياسى وقيادى فى إمارة آل الرشيد بحائل، فاقمه الصراع داخل آل الرشيد على زعامة الإمارة، مما أتاح لابن سعود فرصة الانقضاض عليها وإنهاء ملك آل الرشيد؟

تؤشر هذه الدراسة وغيرها إلى أنه من رحم القبيلة تنشأ الدولة، أى الدولة السلالية (الوراثية) بالتحديد، وليست الدولة الحديثة، بدليل نشوء إمارة شمر فى جبل شمر ونشوء إمارة آل سعود فى الدرعية وجوارها قبل أن تتوسع لتصبح مملكة فيما بعد. وهى تشير إلى قانون الانتخاب العصبوى داخل القبيلة: فأقوى شخص فى أقوى بيت لأقوى فخذ لأقوى عشيرة هو الذى يؤسس إمارة، وعندما تنشأ أكثر من إمارة، فإن أقوى إمارة هى التى تصنع دولة حديثة. وهى تلاحظ بحق أن الفرق بين تنظيم القبيلة التقليدى وتنظيم القبيلة التى تتحول إلى إمارة يتجلى فى تشكيل وتنظيم القوة المسلحة. فالانخراط فى القوة العسكرية للقبيلة هو حالة طوعية، لكنها لم تعد مسألة طوعية فى القبيلة التى تحولت إلى إمارة، بل تصبح القوة العسكرية للإمارة منفصلة عن القبيلة، ويضاف إلها عبيد كالذين استحضروا من بلاد الحبشة وبلاد القوقاز إلى إمارة آل الرشيد، وبعض هؤلاء العبيد يرضعونهم مع أبناء الشيخ حتى يصبحوا أخوة لأولاده بالرضاعة، أخوة رمزية بالطبع، ويصبحون قوة مسلحة لإخضاع القبائل الأخرى ولإخضاع قبيلتهم. لذلك، تقول الخبرة العربية (القبلية) أن «الإمارة سيف ومنسف»؛ فالسيف هو رمز القوة، والمنسف -الذى هو اللحم والثريد- رمز الكرم والمشاركة الاقتصادية.

وهذا التحليل يشير أيضا إلى نموذجين تفسيريين: النمط الخلدونى البسيط والنمط الخلدونى المركب، لقبيلة تعتمد على أيديولوجيا القرابة، وإمارة تعرض الأمن كسلعة بين القبائل، فتصبح بدورها وسيطا.

الخبرة القبلية
فى إيران وكردستان

يرسم الفصل الذى كتبه فاريان صباحى حول «برنامج الخيمة البيضاء فى إيران» بعض المتوازيات؛ إذ يتناول القبيلة فى الحالة الإيرانية، ويناقش برنامج تأهيل وتعليم البدو (الخيمة البيضاء) ونقلهم من البداوة إلى التحضر. من المفارقات أن هؤلاء البدو الذين تعلموا وتحضروا ما بين انهيار حكومة مصدق عام ١٩٥٣ وسقوط نظام الشاه عام ١٩٧٩، التحق كثير منهم بثورة الخمينى الإسلامية ضد النظام ذاته الذى قاد عملية تأهيل وتحضير البدو. كان هؤلاء من البدو المهاجرين للمدن، وهناك فى المدينة تعلموا، واتسعت آفاقهم، وعلت توقعاتهم، ولكنهم لم يجدوا أعمالا، فأقاموا إخوانيات أو تعاونيات لم تهتم بها الدولة، واهتم بها رجال الدين الذين قدموا لها المساعدات الغذائية والاجتماعية، فالتحقوا بهم. وفى غياب الأحزاب والمؤسسات الدينية الحديثة، أصبح هؤلاء المهاجرون موالين للقوى الدينية. فكأنما هى صيرورة التحديث الذى يستتبع عمليات ونتائج تاريخية معاكسة تضاد أهداف وغايات القائمين عليه فى المقام الأول.

وهى ظاهرة تاريخية عامة تنطبق على أكثر من بيئة وتجربة. فهناك عدد من الدول التى أطلقت مشروعات تعليم وتحديث واسعة أملا فى تسريع معدلات التقدم وفى كسب دعم الشعب، ومن ثم الاستقرار السياسى. ولكن التعليم وما يستتبعه من تنوير وتوسع الآفاق الفكرية والثقافية للناس يطلق قدرا هائلا من التوقعات العالية، ويؤدى إلى مناخ خصب لأفكار التغيير والمعارضة وتجاوز الأنظمة القائمة. وربما ينطبق هذا المثال على بعض دول الخليج الحالية، فالطفرة النفطية ووفرة الموارد ورأس المال أتاحت الفرصة لإطلاق عمليات تعليم وتحديث كثيفة، علمت أجيال جديدة على نطاق واسع، وأزالت الحواجز بين هذه الأجيال وبين العالم الحديث، بكل ما ينطوى عليه ذلك من مؤثرات وتحديات شكلت وعى الأجيال الجديدة واستثارت فيها استجابات متعددة.

وقد تفسر هذه التجارب بعض ما تشهده منطقة الخليج من توجهات راديكالية واندلاع لموجة العنف ضد الغرب، وخاصة الولايات المتحدة. كذلك، تطرح هذه الظاهرة تساؤلات كبيرة حول صوابية التشخيص الأميركى لأسباب تصاعد العنف والرفض ضد الولايات المتحدة لدى قطاع من الأجيال الشابة فى منطقة الخليج، والتى بلغت ذروتها بهجمات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١. فقد ظنت الرؤية الأميركية الرسمية أن تلك الهجمات وما وراءها من تطرف وعنف هو نتاج لثقافة تعصب وانغلاق وعزلة عن فكر وقيم الحداثة وواقع الحضارة العالمية المعاصرة. لذلك، قامت الإدارة الأميركية بترويج بعض المبادرات للإصلاح الديمقراطى والاجتماعى والثقافى فى الشرق الأوسط، ولا تخفى نيتها أو رغبتها فى تغيير المناهج التعليمية وإحداث انقطاع مع الموروث الدينى والثقافى من أجل مزيد من التحديث والعصرنة، كما لا تخفى استعدادها لتغيير الأنظمة التقليدية فى المنطقة، إذا أمكنها ذلك. اللافت هنا أن الموروث الثقافى والدينى الذى يلقى عليه بلائمة

تقول الخبرة العربية (القبلية) أن «الإمارة سيف ومنسف». فالسيف هو رمز القوة، والمنسف، الذى هو اللحم والثريد، رمز الكرم والمشاركة الاقتصادية

العنف والتطرف استمر سائدا عقودا أو قرونا، قبل برامج التعليم وعمليات التحديث الواسعة التى شهدتها المنطقة فى العقدين الماضيين، بدون أن يسبب أى توجهات راديكالية أو يولد عنفا، خاصة إزاء الغرب. لذلك، قد لا تؤدى إزاحة الموروث القديم ورفع وتيرة ومعدلات التحديث وإسقاط منظومة القيم والأفكار المحافظة إلا إلى مزيد من الراديكالية والرفض والعنف العدمى!

مسألة السلطة والقبيلة فى كردستان يتناولها مارتن فان برونيسين فى فصل حول «الأكراد والدول والقبائل»، ويركز على صلابة القبيلة الكردية التى تعرضت لمحاولات تفتيت مختلفة فى تركيا وإيران والعراق. ومع ذلك تعيد القبيلة الكردية إنتاج نفسها وإثبات فعاليتها. فتنظيم القبيلة الكردية يختلف فى بعض جوانبه عن تنظيم القبيلة العربية التى لا يجمع فيها شيخ القبيلة بين وظيفة دينية وأخرى دنيوية، كما هو الحال فى كردستان. كما تحولت قبائل كردية بأكملها إلى زعماء (أغوات)، فهم يسيطرون على إقليم من ثمانمائة قرية ويتقاسمون عائلاتها، فليس هناك مجتمع زراعى خارج نطاق القبائل فى كردستان. وهذا ليس له نظير فى القبائل العربية إلا فى حالة شيوخ جنوب العراق الذين تحولوا إلى إقطاعيين وأصبح أفراد قبيلتهم فلاحين فى الأرض. وبسبب وعورة المنطقة الجبلية فى كردستان، لم تتمكن الطرق الحديثة ونظم الاتصال من اختراق المنطقة بسرعة، مما تسبب فى عزل قبائل كردستان عن مؤثرات وأفكار وتيارات المجال المحيط بهم. لذلك، كانت هناك مناطق عديدة فى كردستان لم يطبق فيها الإصلاح الزراعى الذى قوض سلطة شيوخ القبائل الإقطاعيين فى جنوب ووسط العراق، لكنه بالكاد مس هذه الطبقة فى كردستان. فقد كان الأغوات الإقطاعيون فى كردستان أقوياء ومتنفذين جدا، لا يجرؤ أحد على التقدم لأخذ أراضيهم، أو كانوا دهاة جدا إذ وظفوا مبدأ التفاوض، فتفاوضوا مع فلاحيهم ومع أحزاب يسارية فى المنطقة، وعطلوا الإصلاح الزراعى من خلال عملية التفاوض وتقديم بعض التنازلات وتوزيع بعض المكاسب.

خاتمة

وبعد قرن من المخاض الذى شهده المشرق العربى الإسلامى، وما مر على المنطقة من تيارات واوضاع ومتغيرات سياسية واجتماعية وأيديولوجية، أخفقت الدولة القومية الحديثة فى خلق بديل عن القبيلة وما تمثله من قيم تقليدية فى الانتماء والعصبية والتضامن، ونسيج اجتماعى كثيف، وفضاء للحراك والتفاعل الاجتماعى؛ وهى الوسائط التى لا يستطيع الفرد أن يعيش أو يتفاعل خارجها مجردا من معنى الهوية وقاعدة الإسناد. فأساس البناء الاجتماعى الذى تستند إليه الدولة الحديثة هو مبدأ المواطنة الذى يفترض فيه أن يقيم هوية وانتماء وطنيا يعلو على ما سواه من انتماءات جهوية أو إثنية أو ثقافية أو غيرها، لكن القهر والقمع والتسلط الذى جاءت به الدولة الشمولية المتسلطة (الحديثة) بدد أية أوهام حول إمكانية أن يسود مفهوم المواطنة بديلا عن غيره من الانتماءات، أو أن تصبح الدولة الحديثة هى المشترك الذى يجمع الإثنيات والهويات المختلفة. بل إن التسلط والقمع قد أدى إلى اضمحلال المجتمع الأهلى (التقليدى) من أوقاف ونقابات وطرق صوفية ومؤسسات ثقافية وأدبية ومشروعات خيرية وروابط اجتماعية، فلم يبق من ملاذ للأفراد والمجموعات أمام تغول الدولة إلا العودة إلى أكناف القبيلة أو العشيرة أو العائلة، وما توفره هذه الكيانات من حماية وعصبية وانتماء. فممارسات الدولة الشمولية هى التى أدت بشكل غير مباشر إلى إعادة الحيوية للقبيلة.

وإذا كان للكائنات العضوية دورة حياة تبدأ بالميلاد وتنتهى بالوفاة مرورا بالطفولة والشباب والهرم، فإن الكيانات والتشكلات والظواهر الإثنية والاجتماعية والثقافية هى حالة تاريخية لا تموت عضويا. وهى قد تضعف أو تذوى أو تتكيف مع بعض الظروف غير المواتية أو تصبح فى حالة كمون بانتظار انفراج تاريخى يعيد لها حيويتها وسيرورتها، ويمنحها دورها وصيرورتها. تبقى القبيلة وكأنها الثابت الوحيد الذى يطوى المتغيرات السياسية والأيديولوجية والأنظمة والنخب والظواهر فى المشرق العربى الإسلامى. ■

كتاب الزاوية

سندباد إلى الغرب

جولة فى باريس ما بعد الحرب

كل ما رأيته فى فرنسا لم أتوقعه. والذنب فى هذا واقع على الصحافة العالمية التى تعيش بمال المنتصرين، وبأغراض الطامعين فى تراث أم الحضارة وزينة الحضارة.

توقعت أن أرى فرنسا غافلة عن أمسها الذليل فى ظل الصليب المعقوف، لتنسج لنفسها لبوسًا من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة. فوجدت الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة، ويعترفون فى أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار. لهم فى ذلك قولة مشهورة: سنوات الاحتلال النازى هى أيضًا من تاريخ فرنسا العريق، وفى هذا التاريخ صفحات المجد والذلة والفخار والانحدار.

توقعت أن أرى فرنسا فرحة بتحريرها فحسب، فوجدتها مطأطئة الرأس واجمة، تبحث فى شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها، تسائل التاريخ والاجتماع والاقتصاد والعلم عن منهج جديد فى حياتها.

توقعت أن أرى فرنسا مهدمة فقيرة قذرة تقتحمها العين، فرأيت شعبًا جريحًا يضمد جراحه، أنيقًا يرتق ثيابه، نشيطًا إلى البناء، متحفزًا إلى النهوض من كبوته، أكثر ما يكره الوقوف بالأطلال والبكاء على الزمن.

دخلت المعارض وقاعات الصور والمسارح، وارتدت المكاتب العامة وبيوت النشر، والمعامل ودور الحكم، وطالعت وراء سطور الصحف السياسية والأدبية والفنية، فإذا الشعوب لا تعيش بالخبز والزبد وحدهما ولا تموت بالحديد والنار فحسب.

هنا عرفت للمرة الأولى بعد المائتين سر رقى الشعوب، وهو فى فكر الفيلسوف ومعمل العالم، وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى.

نزيف العقول

نبيل علي

مقدمة

■ ■ نزيف العقول، أو هجرة الأدمغة من مواطنها الأصلية، مشكلة مزمنة تعددت الأراء بشأنها، وبلغ البعض منها إلى حد اعتبار أن ما تقوم به الدول المتقدمة حاليا من نهب للثروات البشرية للشعوب لا يقل في بشاعته . إن لم يزد . عما قامت به الدول الاستعمارية في الماضي من نهب الموارد الطبيعية لمستعمراتها، ومع النقلة النوعية التي تشهدها المجتمعات الإنسانية صوب مجتمع المعرفة وتسارع حركة العولمة زاد نهم الدول المتقدمة لالتهام نخب عقول الدول النامية لتتضاعف . بالتالي . حدة المشكلة ولتصبح ساحة ساخنة لتنافس الكبار، وقيدا ثقيلا يحد من قدرة الصغار على اللحاق أو النضال من أجل البقاء ولا غرابة في ذلك، فالعقل هو صانع المعرفة وصاحب القدرة على تحويلها إلى أصول وسلع وخدمات عالية القيمة، وعلى توظيفها لحل مشاكل المجتمع المعاصر: مجتمع بات فيه التعقد هو أبرز سماته وقدرة عقول أبنائه على مواجهة هذا التعقد هي أهم متطلباته.

والارتباط الوثيق بين هجرة العقول والعولمة يبدو متسقا مع نزعتها الاحتكارية وتكثيف الموارد الراسمالية، فكما أدت العولمة إلى تزايد هجرة راس المال المادي بحثا عن أكبر عائد استثماري أينما كان، أدت أيضا إلى تزايد هجرة رأس المال الذهني إلى حيث يتاح له أكبر فرص لاستثماره ويحقق أقصى عائد، مادي وأدبي، لعمالته الذهنية؛ وإن كانت هجرة رأس المال المادي يسودها طابع الدفع Push، فهجرة رأس المال الذهني يسودها طابع الجذب Pull، والكشف عن جوانب التفاعل المختلفة بين قوتي الدفع والجذب هاتين يعد مدخلا أساسيا لفهم اقتصاد المعرفة الذي ما زال لغزا.

تناولت عدة دراسات سابقة مشكلة نزيف العقول العربية في خطاب غلب عليه طابع العمومية وتأثره بتكنولوجيا الصناعة. تسعى هذه الدراسة إلى رؤية هذه القضية من منظور معلوماتي، فالرؤية المعلوماتية أقدر من غيرها على إماطة اللثام عن طبيعة العلاقة بين أصحاب المال وأصحاب الأفكار ويزعم الكاتب. أن هذه العلاقة، في كثير من جوانبها، هي صدى لثنائية المادي والذهني التي قامت عليها تكنولوجيا المعلومات ونقصد بها ثنائية العتاد hardware وثنائية البرمجيات software.

هذا من حيث توجهها أما من حيث إطارها العام فقد انتهجت فيه التسلسل التالي:

- أولا: تكنولوجيا المعلومات وهجرة العقول
- ثانيا: تكالب الدول المتقدمة على عقول الدول النامية
- ثالثا: قنوات امتصاص عقول الدول النامية
- رابعا: بعض ملامح المشهد العربي فيما يخص نزيف العقول
- خامسا: بعض منطلقات مقترحة لمواجهة المشكلة

وقبل أن نبدأ، ربما يثير حديثنا عن هجرة العقول العربية حفيظة البعض لدينا على أساس أنها هجرة فرضت على أصحاب هذه العقول، فلو بقوا في أوطانهم ما كان لهم أن ينجزوا لعدم توفر البيئة المواتية وغياب الطلب الاجتماعي على البحث العلمي والتكنولوجي، وهم في مهجرهم يساهمون بمشاركتهم على المستوى الإنساني مما سيعود بالنفع على الجميع، ولا يمكن لأحد أن ينكر ما في هذا الرأي من وجاهة، ونحن لا نقصد بحديثنا توجيه اللوم إلى علمائنا المهاجرين، فيكفي أن كثيرا منهم يقدم وجها مشرقا للعقل العربي الذي يتهمه البعض بالعجز والتخلف. إن ما تهدف إليه هذه الدراسة هو الحث على خلق الظروف الملائمة للحد من نزيف العقول ومحاولة استعادة بعض أصحابها، وذلك تلبية لمطالب ملحة يفرضها مجتمع المعرفة الذي حل بنا بالفعل.

أولا: تكنولوجيا المعلومات وهجرة العقول

تشترك ظاهرة هجرة عمالة تكنولوجيا المعلومات ذات المهارة العالية، في كثير من سماتها، مع عمالة التكنولوجيات المتقدمة الأخرى، إلا أن لها بعض ملامحها وأبعادها المميزة والتي من أبرزها:

- تقلص طلب الدول المتقدمة على عمالة المهارات الدنيا نتيجة لما أدت إليه تكنولوجيا المعلومات من انتشار الأتمتة automation، والتوسع في استخدام الروبوت، في نفس الوقت الذي تصاعد فيه طلبها على العمالة الأجنبية ذات المهارات العالية (HSFW) من أجل زيادة القدرة التنافسية لهذه الدول في مجتمع اقتصاد المعرفة.
- الفجوة الرقمية digital divide التي تفصل بين العالم المتقدم والعالم النامي من حيث مدى توفر وسائل النفاذ إلى موارد المعلومات والقدرة على استغلالها تنمويا، والتي يؤكد الجميع أن لا حل لها إلا من خلال زيادة قدرة الدول النامية على تنمية مواردها البشرية والحفاظ عليها.
- تعمل تكنولوجيا المعلومات في المجتمعات المتقدمة على حشد العقول وتضافرها لينبثق نوع من الذكاء الجمعي collective intelligence يقاس به الأداء الكلي للمجتمع، ويحدد موقعه على الخريطة الجيو_معرفية، وعلى العكس من ذلك تؤدي تكنولوجيا المعلومات في كثير من المجتمعات النامية إلى تشتت العقول وتضارب المواقف؛ وقد يصل الأمر أحيانا إلى حد الفوضى وذلك بسبب عجز هذه المجتمعات عن الاستيعاب التكنولوجي والامتصاص المعرفي.
- تعمل تكنولوجيا المعلومات، وما أفرزته من عولمة، وتكثيف لرأس المال وتكتلات تكنولوجية، على احتكار الدول المتقدمة لسوق العمل في مجالات الابتكار العلمي والتكنولوجي، ويعني ذلك أن الدول المتقدمة لا تكتفي فقط بسلب عقول الدول النامية، بل تعمل أيضا . بصورة مباشرة وغير مباشرة. على تضييق الخناق على من بقي منهم متمسكا بوطنه مما يحد من قدرتهم على ممارسة رسالتهم، وكسر قيود الاحتكار التي تزداد وطأة يوما بعد يوم، وهو وضع يمكن اعتباره بمثابة «نزيف داخلي» للعقول بعد أن تم تحجيمها عن مزاولة الاكتشاف والابتكار والإبداع، وكمثال على ذلك أن معظم التوجهات الحديثة لتكنولوجيا البرمجيات تعمل على حرمان متخصصي الدول النامية من المساهمة الجادة في أعمال البحوث والتطوير، ومن أبرز هذه التوجهات ما يطلق عليه «التوجه نحو المكونات البرمجية component-ware»، فبدلا من أن يقيموا للبرمجيات نموذجها الاقتصادي الخاص بها نظرا لطبيعتها الذهنية، أرادوا لها أن تخضع لذات النموذج الذي أفرزته الصناعة التقليدية، حيث تنتقل صناعة البرمجيات حاليا من إنتاج البرامج الكاملة إلى تجميع هذه البرامج من مكونات برمجية قياسية؛ تماما كما يتم تجميع نظم العتاد hardware من مكونات قياسية كالمقاومات والمكثفات والشرائح الإلكترونية. لتدخل بذلك صناعة البرمجيات عالم اقتصاديات الحجم من أوسع أبوابه، وتسعى المؤسسات العملاقة حاليا إلى احتكار هذه الصناعة الحيوية؛ وذلك من خلال تحويل عملية إنتاج المكونات البرمجية هذه إلى صناعة كثيفة التكنولوجيا وكثيفة رأس المال. ولا يمكن لأحد أن ينكر مزايا التوجه نحو إنتاج المكونات البرمجية من حيث أنه يسرع من عملية تطوير برامج التطبيقات النهائية، ويخفض . بالتالي . من كلفة هذا التطوير، علاوة على احتياجه إلى مهارات أقل. وهذه الميزة الأخيرة هي أخطر ما ينطوي عليه التوجه صوب المكونات البرمجية، والذي يعني . في جوهره . تفتيت مهارات البرمجة deskiling، وهو ما يؤدي إلى إبعاد مصممي النظم ومخططي البرامج تدريجيا عن التفاصيل الفنية الداخلية، لتستحيل بذلك البرمجيات هي الأخرى إلى صناديق سوداء، وهكذا يستبعد المصممون والمخططون في الدول النامية من المساهمة في صناعة البرمجيات «على المستوى الثقيل» لتضمر . نتيجة لذلك . قدرتهم على حل المشكلات المستجدة . وما أكثرها . والتي لا يتوفر لها عادة . بحكم طبيعتها غير النمطية . المكونات البرمجية القياسية التي تحتكر إنتاجها الشركات الكبرى.

ثانيا: تكالب الدول المتقدمة على عقول الدول النامية

- خلال القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية والولايات المتحدة تعمل على اجتذاب العقول في مجالات العلوم والتكنولوجيا من كل حدب وصوب، إلا أنها كادت أن ترتد عن ذلك بعض الشيء في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، عندما فكرت الإدارة الأمريكية . بالفعل . في إصدار قرار يحرم الطلبة الوافدين من الدول النامية، مستهدفا أبناء الدول العربية والإسلامية بشكل خاص، من الحصول على درجات الدكتوراه في بعض المجالات العلمية الحساسة كالبيولوجيا الحيوية، وهندسة البرمجيات المتقدمة، ولم يوقفهم عن اتخاذ مثل هذا القرار إلا بعض ذوي الحكمة الذين أوضحوا لإدارتهم السياسية ما ينطوي عليه هذا الإجراء من تهديد لوضع أمريكا كقائدة للعالم في مجال العلم والتكنولوجيا، مما يزعزع . بالتالي . قيادتها له سياسيا واقتصاديا وعسكريا . لقد بنى هؤلاء «الحكماء» توصيتهم هذه على أساس إحصائيات تشير إلى أن ما يقرب من ٣٠٪ من طلبة الدكتوراه في الولايات المتحدة من الأجانب، وأن هناك عزوفا متناميا عن الدراسات العليا لدى أغلبية الخريجين من أبناء البلد، وربما

العربيـــــة... رؤيـــة معلـومـاتيـــة

يرجع السبب فى ذلك إلى طابع «اقتصاد الكازينو» اقتصاد المضاربات والصفقات، الذى يتيح فرصا عديدة للثراء، أسرع وأسهل ـ بلا ريب ـ من الجهد الشاق الذى يتطلبه البحث العلمى.

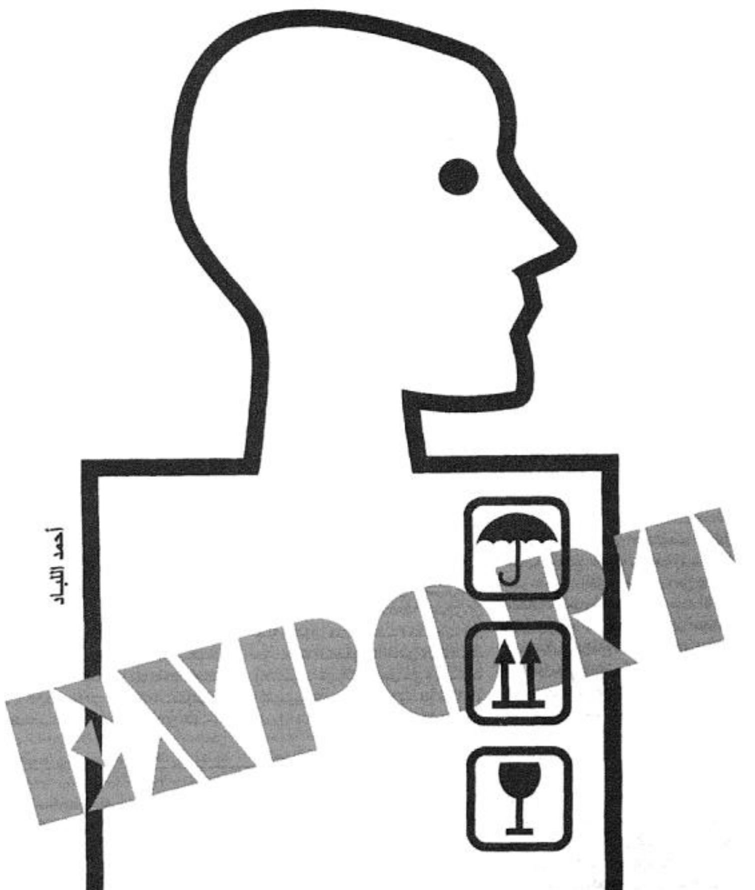
❖ تتصارع الدول الكبرى الأعضاء فى منظمة التعاون الاقتصادى من أجل التنمية OECD على اقتناص أكبر قدر من غنائم الثروة البشرية للدول النامية، وبينما كانت دول المنظمة تحظر تغيير نوع تأشيرة إقامة الطلبة بعد حصولهم على درجتهم العلمية، ها هى ترفع الحظر، بل وتسهل اندماج الأجانب الحاصلين على درجة الدكتوراه فى أسواق عملها. ولهذا ـ بالطبع ـ مبرراته الاقتصادية القوية حيث تخصص هذه الدول نسبا عالية من إجمالى ناتجها المحلى فى الاستثمار فى مجالات المعرفة، ومن الطبيعى أن يؤمنوا هذه الاستثمارات بتوفير عناصر البنية التحتية لها، وعلى رأسها العنصر البشرى، إلا أن مؤسساتها التعليمية والتدريبية لا تستطيع أن تواكب سرعة التطور نتيجة التغير المعلوماتى، وأن تلبى مطالب سوق العولمة الذى يزداد اتساعا وتنافسا، وما زال البعض منا يذكر ما أدى إليه الاندفاع الرهيب لإنشاء شركات الإنترنت والمعروفة باسم «دوت كوم com» ، من تزايد لهفة الشركات الأمريكية على العمالة الأجنبية حتى أصبح وادى السيلكون الأمريكى من أكبر مصايد عمالة المعلوماتية.

❖ من أجل الصمود أمام المنافس الأمريكى، وإيقاف الزحف التكنولوجى القادم إليه من الشرق، يسعى الاتحاد الأوروبى إلى تحصين نفسه ـ قدر المستطاع ـ ضد نزيف العقول من داخله، وزيادة قدرته على اجتذاب العقول من خارجه، ولا تخلو برامج الشراكة الأوروبية، من دوافع مستترة لاصطياد العقول.

❖ لم تكتف ألمانيا بعد توحدها بما أهدته إياها ألمانيا الشرقية من عقول ومواهب، فراحت تطلب المزيد من خلال تخفيف قيود هجرة العمالة الأجنبية ذات المهارات العليا وتطويع قوانينها بحيث تصبح أكثر انتقائية للعمالة المتميزة، فى نفس الوقت الذى تحاول أن تتخلص فيه بكل الوسائل من العمالة التركية ذات المهارة المنخفضة وهى العمالة التى ساهمت بقسط وافر فى النهضة الاقتصادية لألمانيا ما بعد الحرب.

❖ وحتى اليابان التى عرف عنها موقفها الصارم من الهجرة الوافدة نظرا لكثافتها السكانية العالية، ها هى تراجع فى عام ١٩٨٩ قوانين هجرة العمل المؤقتة وتخفف من قيودها مما أدى إلى ارتفاع ملحوظ فى نصيبها من هذه العمالة منذ بداية التسعينيات.

وموقف الدول المتقدمة فى هذا الخصوص يمثل تناقضا صارخا، فبالرغم من أنها تدرك تماما قيمة الموارد البشرية، وما سيؤدى إليه امتصاصها لموارد الدول النامية، إلا أنها ـ فى نفس الوقت ـ ترفض تعويض هذه البلدان عما لحق بها من ضرر جسيم، وتكتفى بتقديم معونات لا تغنى ولا تسمن من جوع، يستهلك خبراؤها، فى كثير من الحالات، قسطا كبيرا من ميزانياتها فى تقديم الاستشارات ودراسة المشروعات ويجنى موردوها الربح الوفير من وراء إمداد المعدات والبرامج اللازمة لتنفيذها، ويكفى شاهدا أن نشير هنا إلى موقف الدول المتقدمة الرافض لتخفيف ديون العالم الثالث، وقد شهدت القمة العالمية لمجتمع المعلومات، التى عقدت مؤخرا فى جنيف فى ديسمبر ٢٠٠٣، موقفا لا يقل تناقضا، فقد



رفضت الدول الكبرى المساهمة فى إنشاء صندوق عالمى للتنمية المعلوماتية فى العالم النامى، فقد فضلوا - على ما يبدو - أن يتركوه نهبا لأطماع مورديهم وجشع مقاوليهم، يعانى من قصور الموارد وارتفاع كلفة هذه التنمية، سواء من حيث إنشاء البنى التحتية، أو تطوير نظم المعلومات التى تبنى عليها.

وهل للمرء أن يغفل هنا عن موقف منظمة التجارة العالمية WTO، فبينما تعطى أقصى درجات الأولية لموضوع الملكية الفكرية وتسعى - ما وسعها الجهد - لتوسيع نطاق الحماية ليشمل أيضا الاكتشافات العلمية، بينما تفعل ذلك لحماية مصالح الكبار، نراها تلتزم الصمت التام حيال نهب العقول، ذات العقول التى تساهم مساهمة فعالة فيما تسعى الملكية الفكرية لحمايته.

أما مسعى الكبار فيما يخص تضييق الفجوة الرقمية بين العالم المتقدم والعالم النامى فلا يتعدى كونه شعارا فارغا، ولا نبالغ إن قلنا إنه يبطن قناعة الكثيرين من أغنياء عالمنا بسياسة «قارب النجاة الذى لا يتسع للجميع»، وما على شعوب العالم المتخلفة إلا الرضا بمصيرها المحتوم، ومازال فى الجعبة الكثير، فمن منا يمكنه أن يثق فيما أعلنته الولايات المتحدة على لسان ال جور - نائب الرئيس الأمريكى السابق - من ضرورة تضييق الفجوة الرقمية عالميا، وكيف يتسق هذا مع ما يتردد من أصوات أمريكية تنادى - تحت دعوى محاربة الإرهاب - بالتحول من مبدأ الحق فى المعرفة right-to-know إلى توفير المعرفة بقدر الحاجة إليها need-to-know، وغالبا ما سيؤول ذلك فى النهاية إلى نقل المعرفة إلى الدول النامية بالقدر الذى يكفى استيعاب مستهلكيها لمنتجات صناعة المعلومات كثيفة المعرفة، بقول آخر معرفة من أجل تنمية الأسواق لا تنمية العقول.

ومشكلة نزيف العقول ليست مقصورة على الدول النامية بل تشكو منها أيضا بعض البلدان المتقدمة، فهاهى دول الاتحاد الأوروبى تظهر قلقا شديدا من هجرة علمائها، خاصة فى مجال التكنولوجيا المعلوماتية والتكنولوجيا الحيوية، إلى الولايات المتحدة بحثا عن فرص أكثر للإنجاز العلمى والتكنولوجى، وهو الأمر الذى يؤكد مدى توحش النزعة الاحتكارية لرأسمالية أيامنا، رأسمالية التكنولوجيا المتقدمة كما يسميها البعض، حيث لا تتوانى قمة المعسكر الرأسمالى عن احتكار موارد حلفائها من داخل المعسكر ذاته، وقد ظهرت بوادر التذمر من هذه الاحتكارية المفرطة فى سوق تكنولوجيا المعلومات فيما قام به الاتحاد الأوروبى مؤخرا من التصدى لاحتكارية شركة ميكروسوفت، وهى الاحتكارية التى باتت تشكو منها كبرى شركات البرمجيات فى الولايات المتحدة نفسها، إنها بحق الاحتكارية فى صورتها القصوى، احتكارية اقتصاد المعرفة القائمة على احتكار للعقول الصانعة لهذه المعرفة، وقد أظهرت - على عكس المتوقع - منتجات صناعات المعرفة، كصناعات البرمجيات والدواء على سبيل المثال، قابلية غير مسبوقة للاحتكار وذلك بفعل القوى السياسية والاقتصادية التى توجه حركة التقدم العلمى والتكنولوجى.

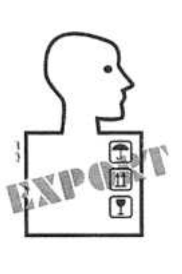
ثالثا: قنوات امتصاص عقول الدول النامية

هناك عدة قنوات لامتصاص العقول، منها ما هو تقليدى سابق على انتشار تكنولوجيا المعلومات، ومنها ما هو مستحدث ومبتكر نتيجة لانتشارها، خاصة فيما يتعلق بالإنترنت، ونورد فيما يلى قائمة بهذه القنوات التى تمتص العقول عبر مسالكها، بفعل «مضخة شفط» هائلة، لتصب فى النهاية فى عدد محدود من مراكز الاحتكار المعرفى: للعلمى والتكنولوجى والإبداعى.

(أ) الهجرة الدائمة لعمالة المهارات العليا، ومن أكبر مصادرها استبقاء المبعوثين، ولا تختلف عمالة المعلوماتية هنا عن غيرها من عمالة التكنولوجيا المتقدمة، وقد أخذت تتوارى الهجرة الدائمة تدريجيا لظهور بدائل أسرع وأقل كلفة كما ستوضح أدناه.

(ب) الهجرة المؤقتة للعمل، وكمؤشر على معدل تزايد هذه الهجرة يوضح الجدول أدناه عدد فيزات الإقامة التى استصدرتها بعض كبرى الشركات الأمريكية فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لاستضافة العمالة الأجنبية وذلك خلال الفترة من أكتوبر ١٩٩٩ إلى فبراير ٢٠٠٠[*].

وفى هذا الصدد تتميز تكنولوجيا المعلومات، خاصة البرمجيات، باختلاف جوهرى عن غيرها، وهو قابلية عمالتها الشديدة للتنقل ما بين أماكن العمل job mobility، يرجع ذلك إلى التوحيد القياسى لبيئة عمل المتخصصين المعلوماتيين، فهم يستخدمون - بغض النظر عن موقعهم الجغرافى - نفس المعدات، ويرجعون إلى نفس الوثائق والأدلة الفنية، ويتعاملون مع نفس بيئة البرمجيات من نظم تشغيل وأدوات زيادة الإنتاجية (من أشهر الأمثلة فى ذلك نظامى التشغيل WINDOS و UNIX). يعنى ذلك أن العمالة المهاجرة تشرع فى العمل فور انتقالها دون حاجة إلى إعادة التدريب أو التأهيل، بل ولا حتى التوجيه العام orientation فى كثير من الأحيان. إنها عمالة «سابقة التجهيز» إن جاز القول، فقد تلقت تعليمها فى مؤسسات التعليم العالى لأوطانها، واكتسبت خبرات العمل فى مؤسسات التطوير المحلية، وكما يسلم مقاولو الدول المتقدمة مشاريعهم للدول النامية بأسلوب «تسليم مفتاح turn key»، تهدى الدول النامية فى المقابل عمالتها المعلوماتية بنفس الأسلوب، وفى أحيان كثيرة يزور المهاجر بلده بعد مغادرته لها بقليل كخبير للشركة الأجنبية التى انتمى إليها، لتحاسبنا عليه الشركة الأجنبية مثله مثل أى خبير أجنبى آخر، بالرغم من كون هذا المهاجر لم يكتسب بعد خبرة تفوق بكثير ما هاجر حاملا إياها، إنها بحق عملية «إعادة تصدير» فى صياغة عولمية.



	التخصص الغالب	عدد الفيزات
شركة إينتل	صناعة الشرائح الإلكترونية	٣٦٧
شركة موتورولا	صناعة الشرائح الإلكترونية	٦١٨
شركة ميكروسوفت	تطوير برمجيات	٣٦٢
شركة أوراكل	تطوير برمجيات	٤٥٥
شركة سيسكو للنظم	اتصالات	٣٩٨

(ج) العمل فى المكاتب المحلية والإقليمية للشركات المتعددة الجنسية، وهو توجه ينمو بسرعة مع انتشار العولمة وتنفيذ اتفاقيات منظمة التجارة العالمية، وتعمل هذه المكاتب عادة على «ضخ» الأفكار من المتخصصين المحليين لتصب فى أنشطة التطوير الرئيسية فى مراكز إدارة هذه الشركات، وهنا يبرز اختلاف جوهرى آخر متعلق بتكنولوجيا المعلومات، مرجعه - هذه المرة - إلى تنامى التوجه الثقافى والاجتماعى لتطبيقات المعلوماتية الحديثة، ومن أمثلتها البرمجيات التعليمية والثقافية ونظم الحكومة الإلكترونية وما شابه، وهو توجه - بحكم التعريف - يعطى ثقلا أكبر للجوانب المحلية، وهكذا تصبح المكاتب المحلية لكبرى شركات البرمجيات بمثابة شبكة موزعة تقوم بتجميع الشق المحلى من مناطق شتى حاملا معه عصارة فكر أصحاب العقول المحليين وخلاصة خبراتهم المحلية، ليؤول كل هذا فى نهاية المطاف إلى مراكز التطوير الرئيسية لهذه الشركات لتقوم بوضعه فى صورة حزم برمجية عامة universal software packages يدعى مطوروها أنها ذات عمومية على المستوى العالمى تجعلها صالحة لجميع الأسواق ملبية لمطالب كل محلى وخاص، وعلى المستهلك فى كل مكان أن يدفع أعباء هذه العمومية، وما أكثر الحالات التى تعجز فيها عن تلبية مطالبه الخاصة، وإن كانت هذه الحزم البرمجية قد حققت - حتى الآن - نجاحا تسويقيا رغم ارتفاع كلفتها إلا أن الكثيرين يتوقعون انحسارها مع تزايد ثقل الشق المحلى فى تطبيقات المعلوماتية وتوجه تكنولوجيا المعلومات والاتصالات صوب المنزل وصوب الجامعات.

(د) استخدام الإنترنت لاجتذاب عمالة الدول النامية وهم قابعون فى أوطانهم دون حاجة إلى هجرة: دائمة كانت أم مؤقتة، حيث يمكن لهذه العمالة المحلية أن تشارك عبر الإنترنت مع فريق العمل الجماعى للشركات الأجنبية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «نزيف العقول عن بعد»، ومن المتوقع أن تتوسع المؤسسات الأجنبية فى هذا التوجه

القليل الكلفة، والذى يحمى ديموغرافية بلدانهم من هجرة العمالة الوافدة إليها من العالم النامى والتى يرى فيها البعض لديهم نوعا من «التلوث السكانى» إن جاز التعبير.

(هـ) المشاريع المشتركة فى مجال التكنولوجيا المتقدمة بين مؤسسات الدول الكبرى ومؤسسات الدول النامية، هى وسيلة أخرى لامتصاص رحيق عقول الدول النامية، والتى غالبا ما يمثل فيها الشريك المحلى الجانب الأضعف وصاحب النصيب الأقل فى العوائد المادية والمزايا الفنية، بالرغم من كونه - فى كثير من الأحيان - هو صاحب المساهمة الأكبر فى إنجاز المشروع.

(و) تقوم الجامعات الأمريكية والبريطانية والكندية بحملات تسويق لاجتذاب أكبر عدد ممكن من الطلبة الأجانب، وقد لحقتها أخيرا بعض من الجامعات الأوروبية، وهكذا تمتزج عملية تفريخ العقول مع دوافع الاستحواذ عليها من المنبع، حيث تسعى كثير من الجامعات المستضيفة إلى استبقاء خيرة خريجيها من الطلبة الأجانب. وتشير الإحصائيات إلى أن ٥٠٪ من الطلبة من الحاصلين على الدكتوراه فى الولايات المتحدة يرجعون إلى بلادهم فى حين تبلغ هذه النسبة فى بريطانيا ٤٠٪.

(ز) وأخيرا وليس آخرا، فقد قيل إن الإنترنت قد ساهمت فى زيادة عدد البحوث العلمية التى يقوم بها باحثون أمريكيون بالمشاركة مع باحثين من الدول النامية، ورغم كونه توجها حميدا بلا شك إلا أنه هو الآخر يطرح تساؤلا فيما يخص نزيف العقول، مؤداه: من هو المستفيد النهائى من هذه الإنجازات العلمية المشتركة؟، فالمستفيد - بحكم المنطق - هو الدول المتقدمة التى تمتلك القاعدة التكنولوجية التى تستطيع من خلالها تحويل الإنجاز العلمى إلى تطبيقات عملية تدر عائدا استثماريا، علاوة على ذلك فالشريك الأقوى، الأمريكى فى حالتنا، غالبا هو الذى يحدد مجالات البحث العلمى المشترك وفقا لمطالب مجتمعه، والتى يقبلها باحثو الدول النامية عن طيب خاطر للهفتهم على النشر العلمى فى الدوريات العلمية العالمية وتعزيز مكانتهم الأكاديمية.

ربما يرى البعض فى حديثنا السابق أننا كدنا أن نسد جميع السبل أمام فرص التعاون العلمى التكنولوجى بين العالم المتقدم والعالم النامى، وهذا - بالقطع - ليس هدفنا بالمرة، فنحن نؤمن بأهمية هذا التعاون بل وضرورته، وندرك تماما أن لكل تكنولوجيا لها مخاطرها، وكلما زادت سطوة هذه التكنولوجيا - كما هو الحال فى تكنولوجيا المعلومات - كلما زادت هذه المخاطر، وهذا يعنى أن عملية تقديم التكنولوجيا واقتنائها لا بد أن يتوازى معها جهد جاد للكشف عن آثارها الجانبية على المدى البعيد والقريب، وأن يجيد مخططوها ومنفذوها فى الدول النامية كيفية الموازنة بين منافعها ومضارها، ومزاياها وأوجه قصورها، وكيفية وضع السياسات التى ترشد استخدام الموارد والاختيار الأمثل ما بين البدائل التكنولوجية المتاحة. خلاصة القول، نحن مع التعاون العلمى والتكنولوجى إلى آخر مدى طالما كان ذلك تحت الشعار الذى رفعه مناهضو العولمة فى سياتل: «تجارة عادلة لا تجارة حرة fair trade not free trade» وهو ما يعنى فى حالتنا تعاونا علميا تكنولوجيا مثمرا ومنصفا لجميع الأطراف.



رابعا: ملامح المشهد العربي

فيما يخص نزيف العقول

كل ما قيل حتى الآن من حديث نزيف العقول فى العالم النامى ينطبق - بداهة - على وطننا العربى لكونه جزءا من هذا العالم، وسنركز فى هذه الفقرة على بعض الملامح الخاصة بالمشهد العربى، وقد ضمنت الفقرة أيضا بعض الجوانب التى أرجأنا تناولها فى الشق العام حيث فضلنا طرحها فى السياق العربى لإبراز مغزاها الخاص بنا.

(أ) تختلف هجرة الأدمغة العربية عن تلك الهجرة التى تشكو منها بعض دول أوروبا بل وبعض دول جنوب شرق آسيا، فمعظم عقولنا العربية المهاجرة ترحل عنا بلا تذكرة عودة، وتؤكد الإحصائيات مدى تدنى نسبة عودة «طيورنا النادرة» مقارنة بالصين والهند وماليزيا بل وحتى تركيا.

(ب) لا أمل فى إحداث تنمية عربية مستدامة دون توفر أهم عناصر بنيتها التحتية ألا وهو العنصر البشرى، خاصة عمالة المهارات العليا، ويتطلب تضييق الفجوة الرقمية بين البلدان العربية والعالم المتقدم - أول ما يتطلب - عقلا عربيا قادرا على قيادة ركب التنمية المعلوماتية، وقد أيقن الجميع تعذر إحداث هذه التنمية المستدامة باستيراد الحلول الجاهزة واستدعاء الخبراء الأجانب، وذلك فى ظل ما سبق أن أشرنا إليه بخصوص تنامى التوجه الثقافى والاجتماعى لتطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتى تفترض القدرة على الجمع بين المحلى والعولمى، وعلى تطويع التكنولوجيا وتوطينها فى التربة العربية.

ومن المفارقة أنه بينما تسعى الدول المتقدمة إلى استيراد عمالة المعلومات ذات المهارات العالية تسعى بعض الدول العربية غير النفطية، مثل مصر والأردن وسوريا، إلى تصدير هذه العمالة النادرة بحجة توفير فرص العمل أو توفير العملة الصعبة، وسرعان ما سنكتشف أننا نقايض كنوزنا البشرية بأبخس الأسعار، وسيؤدى ذلك فى نهاية الأمر إلى ترسيخ التبعية التكنولوجية فى مجال التنمية المعلوماتية، وذلك بالرغم من كل ما عانيناه فيما مضى من هذه التبعية التى كانت وراء إجهاض معظم مشاريع التنمية الصناعية العربية، وإن جاز قبولها وعلى مضض فى الماضى؛ فلا سبيل لنا لتحقيق التنمية المعلوماتية إلا بالتخلص من هذه التبعية المترسخة؛ فما أبهظ كلفتها المادية وغير المادية، ويجب أن ينطلق مسعانا فى هذا الشأن من إدراكنا الدقيق للفروق الجوهرية بين تكنولوجيا المعلومات وما سبقها من تكنولوجيات، ومن أهم هذه الفروق - بالنسبة لسياقنا الحالى - اعتمادها على الموارد البشرية فى المقام الأول، وكون موارد المعلومات تنمو - لا تنضب - مع زيادة استهلاكها على خلاف الموارد المادية والطبيعية حيث تتغذى المعرفة على نفسها، لذا فنزيف العقول يعنى استهلاكا أقل، وبالتالى تقليلا لهذه الميزة التضاعفية.

(ج) يفرض التحدى المعلوماتى الإسرائيلى والفجوة الرقمية بينها وبين البلدان العربية مزيدا من الاهتمام بقضية نزيف العقول، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

* إسرائيل من أعلى دول العالم من حيث نسبة العلماء والمهندسين إلى إجمالى عدد السكان.
* تركز إسرائيل على التكنولوجيا المتقدمة خاصة فى مجالى المعلوماتية والتكنولوجية الحيوية. وقد حصنت موقعها على الخريطة الجيو - معلوماتية سواء على مستوى العتاد hardware أو البرمجيات أو الاتصالات.
* شبكة العلاقات الوثيقة التى أقامتها إسرائيل مع علمائها فى الخارج.
* توفير إسرائيل لعدد كبير من الحضانات incubators خاصة لتشجيع العلماء والمهندسين المهاجرين إليها من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق.
* هناك العديد من مشاريع التطوير المشترك والاتفاقيات والتحالفات مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى، وكثير من مؤسسات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المتعددة الجنسية.

(د) تسعى كبرى شركات البرمجيات الأمريكية إلى احتكار تكنولوجيا اللغات عالميا، ومن أهمها اللغة العربية، وتمثل تكنولوجيا اللغات حاليا واحدة من أهم فروع المعلوماتية وهى تشمل - على سبيل المثال لا الحصر - نظم الترجمة الآلية، وتحليل مضمون النصوص، وتدقيق الوثائق وتصنيفها وتلخيصها آلوماتيكياً، ونطق الكلام وتمييزه آليا، وينظر البعض إلى تكنولوجيا اللغات بمثابة نقلة نوعية فى تطوير البرمجيات وإكسابها خاصية الذكاء الاصطناعى وملكة التعلم ذاتيا؛ وهو الأمر الذى أدى بهذه الشركات إلى اجتذاب كثير من المتخصصين المتميزين للعمل فى مراكز تطويرها الرئيسية فى الولايات المتحدة أو فى أحد فروعها الرئيسية فى أوروبا. المشكلة هنا أن معظم شركات البرمجيات هذه تضع اللغات السامية العربية والعبرية تحديدا، فى سلة واحدة (أمثلة: ميكروسوفت سياتل، فرع شركة أمريكا - أون لاين AOL فى دبلن)، وهو ما يتيح لخبراء العبرية فرصة النفاذ إلى أدق التفاصيل فيما يخص تكنولوجيا اللغة العربية، والتى ستجد طريقها - إن عاجلا أو آجلا - إلى إسرائيل، وكما هو معروف تتمتع إسرائيل بميزة تنافسية عالية من حيث قدرتها على اختراق مجال تكنولوجيا اللغة العربية وذلك بالاستفادة من الكتلة السكانية العربية الكبيرة داخل الكيان الإسرائيلى.

(هـ) من الفرص المتاحة لسد الفجوة الرقمية وتقليل

كتـــاب الــزاويـــة



ســـندباد إلى الغـــرب

مادية الغرب وروحانية الشرق

أنا خائن لوطنى، أفاق منافق، جبان إذا ترددت لحظة فى أن أبوح بما تجيش به نفسى فى هذه السنوات الأخيرة، وهو: إذا فقدت مصر إيمانها بمقومات الحضارة الحديثة، فإن ذلك نذير بأن ترتد مصر إلى أظلم عهودها.

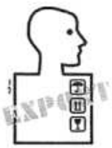
ويجئ الحمقى منا فيشيرون إلى أوروبا المريضة، ثم إلى أوروبا الصريعة ليتبجحوا قائلين: أهذه هى الحضارة التى دافعتم وتدافعون عنها؟ أين هذا من.. روحانية الشرق؟

الكلمة الأخرى التى أخشاها، لا لكذبها، فهى صادقة، ولكن لأنها، هى أيضًا، من الكلمات الخطيرة التى تلقى ظلها خارج النفس، فينقلها الجهلاء من حقيقة داخلية فلسفية إلى الواقع، ثم يتخذون هذا الواقع دليلاً على.. مادية الغرب!

وما هى هذه الحضارة التى لا تبدو للعيون فى صورها المادية؟ ففى صميم حضارات الشرق والغرب والشمال والجنوب ناحية روحية، فى فكر الفيلسوف والعالم، وإلهام رجل الفن والأدب، ولكن هذه الحضارات تبدو أكثر ما تبدو فى مظاهرها المادية.

قال المفكر اللبنانى، فيلسوف وادى الفريكة: «أنا الشرق، عندى فلسفات، فمن يبيعنى بها طيارات». وآسف للعودة مرة أخرى - وبعد وفاة ذلك الرجل الكبير - إلى هذه الكلمة الخطيرة التى ظلت تسرى فى ناحيتنا من العالم حتى تأثر بها بعض رجال الفكر عندنا.

أغلب ظنى أن إجابة صاحب الطيارات على هذا العرض الكريم هى: يفتح الله! فصاحب الطيارة لن يرضى بيعها مقابل فلسفات العالم مجتمعة..



الكلفة المتصاعدة لاستيراد البرمجيات اللجوء إلى البرمجيات ذات المصدر المفتوح OSS: Open Source Software، التى توزع مجانا مصحوبة بكل التفاصيل الدقيقة لكود لغة البرمجة التى صيغت بها، وهو ما يسمح بتطويعها للمطالب المحلية، ومداومة تطويرها وإمكانية إدماجها ضمن نظم أخرى، وذلك على عكس البرمجيات التى يتم شراؤها بثمن غالٍ من شركات البرمجيات التجارية والتى تبيعها كصناديق سوداء منغلقة المصدر على طريقة «خذها كما هى أو اتركها take it or leave it»، والتى لا تسمح بأى منفذ إلى تفاصيلها الداخلية مما يتعذر معه إدخال التعديلات ومداومة التحديث.

وكما هو معروف، يتطلب استخدام البرمجيات ذات المصدر المفتوح مهارات محلية عالية حيث عادة ما تأتى دون دعم فنى من مانحيها، ودون ضمان باستمرارية تطويرها، لذا فإن هجرة العقول العربية فى مجال البرمجيات ستحرم العرب من استغلال هذا المورد المعلوماتى الهام: المورد الذى ينظر إليه الكثيرون على أنه مناط الأمل فى كسر احتكارية شركات البرمجيات الكبرى لسوق المعلوماتية العالمى.

(و) أخيرا وليس آخرا، فهناك هجرة لعمالة المعلومات ذات المهارات العالية ما بين البلدان العربية، وفى رأينا أن هجرة العقول ما بين البلدان العربية سلاح ذو حدين، فهى - بلا شك - تحرم البلدان المصدرة من نوعية عمالة هى فى أمس الحاجة إليها، وقد أشار تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول (٢٠٠٢) إلى وجود فجوة رقمية ما بين دول الخليج وباقى البلدان الأخرى، وفى المقابل فإن البلدان العربية المستوردة توفر - علاوة على المزايا المالية - إمكانات فنية عالية، وبيئات عمل متقدمة، لا تتوفر عادة فى الدول المصدرة، وهو ما يكسب العمالة الوافدة خبرات يصعب الحصول عليها فى بلدانهم. من جانب آخر فإن العمالة الوافدة فى البلدان العربية غالبا ما تعود إلى أوطانها، خاصة فى ظل القيود الصارمة التى تفرضها معظم الدول العربية على منح جنسياتها للوافدين.

خامسا: منطلقات مقترحة لمواجهة المشكلة

لن نضيف جديدا بقولنا إن مشكلة نزيف العقول العربية هى مشكلة متعددة الجوانب أفرزتها عوامل عدة: اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية وتكنولوجية، ولا يعنى ذلك أن نقف مكتوفى الأيدى تجاهها، بل يجب أن تحظى بأكبر قدر من الاهتمام من قبل واضعى الإستراتيجيات العربية على المستوى الإقليمى والقطرى، وسنكتفى هنا ببعض منطلقات مقترحة للتصدى لهذه المشكلة:

❖ دفع حركة التنمية التكنولوجية عموما والتنمية المعلوماتية خصوصا، أسوة بما فعلته الصين من أجل استعادة عقولها المهاجرة.

❖ نشر الوعى بخطورة القضية على مستوى القيادات السياسية والاقتصادية والإعلامية من منظور ضرورة تضييق الفجوة الرقمية بين الوطن العربى والعالم المتقدم.

❖ وضع استراتيجية عربية للتنمية المعلوماتية تقوم على أساس مبدأ المشاركة فى الموارد وتوفير الحوافز المادية اللازمة لاستبقاء ذوى المهارات العالية.

❖ إنشاء أكبر عدد من الحضانات فى الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث العربية وذلك لتشجيع العلماء والمهندسين على استثمار أفكارهم عمليا، وتجربة الجامعات البريطانية فى هذا الصدد جديرة بالدراسة.

❖ تشجيع الاستثمار فى مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ومازال القطاع الخاص العربى عازفا عن الاستثمار فى هذا المجال إلا أنه تلوح فى الأفق حاليا بوادر مشجعة تشير إلى تحول فى هذا الموقف.

❖ زيادة مساهمة القطاع الخاص فى تدريب عمالته وربط ذلك بعقود عمل مرنة تضمن الاستفادة من عائد الاستثمار فى التدريب.

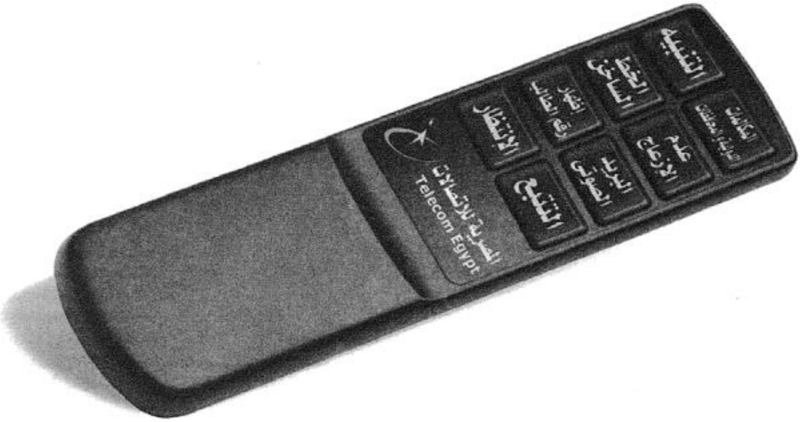
❖ التزام الحرص فى صياغة البنود المرجعية لمشاريع التطوير المعلوماتى التى تكلف بها أو تساهم فيها شركات أجنبية بحيث تلزم هذه الشركات بعدم محاولة الاستيلاء على العمالة المحلية. ■

هـــامـــش:

(*) جميع البيانات والإحصائيات الواردة فى هذه الدراسة مستقاة من عرض POWER POINT للدكتور صلاح سليمان الأستاذ بكلية الزراعة - جامعة الإسكندرية، وقد ساهم هذا العرض فى إثارة كثير من الأفكار التى وردت فى الدراسة الحالية.

****

وكلّه بالريموت سنترال



بالرقم السري

خدمات السنترال من غير ماتروح السنترال

الآن بزيارة واحدة لبعض السنترالات
تحصل مجاناً وبسهولة على رقم سري خاص بك
يمكنك من الإشتراك في أي من الخدمات الإضافية مع الإحتفاظ
بالسرية التامة لبياناتك الشخصية ومعلومات فاتورة تليفونك

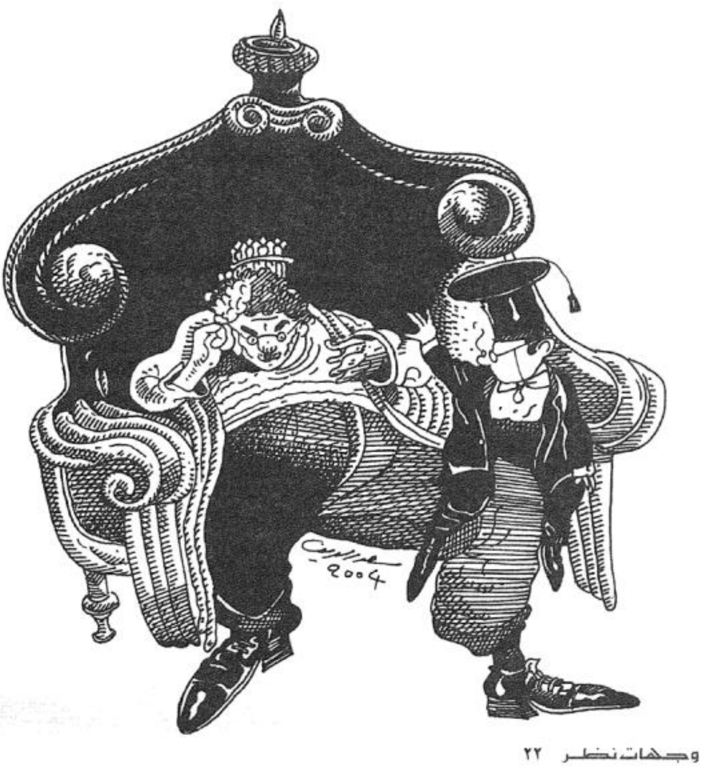
لمزيد من المعلومات اتصل برقم ١١١

معاك الرقم السري!

المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

من الأمير إلى الخبير؟

ياسر علوى



[١] كان القرن العشرون بامتياز قرن التخصص الدقيق والعصر الذهبى للخبراء الفنيين فى جميع مجالات المعرفة الإنسانية، وهو ما اعتبره المؤرخون قفزة هائلة للأمام نحو إحكام سيطرة الإنسان على ظروفه الطبيعية والاجتماعية، وتحولا هائلا فى آليات صنع واتخاذ القرار، ينقلها من الارتهان لرغبات الأمير وتقلباته المزاجية، إلى الاستناد على رصانة الخبير وحساباته العلمية.

غير أنه كان أيضا القرن الذى اكتشف فيه الإنسان أن ثمة قضايا مصيرية من الخطورة والأهمية بحيث لا يمكن معها أن تترك للخبراء الفنيين بمفردهم دون مشاركة من أوسع قطاعات ممكنة من المجتمع فى مناقشتها، والاستعداد لها، واتخاذ القرارات بشأنها، باعتبار أن المجتمع بأسره سيتحمل نتائج هذه القرارات بحلوها ومرها.

فقد أبرزت تجربة حربين عالميتين حقيقة أن الحرب بتكاليفها البشرية والمادية الباهظة أخطر من أن تترك للجنرالات، فعمل هؤلاء يجب أن يأتى تحقيقا لغايات يضعها المجتمع -عبر ممثلين سياسيين منتخبين، هم أقدر من غيرهم على تحديد الهدف والأولويات، وتقدير مدى استعداد الجماهير لدفع الثمن اللازم لتحقيقها- وتحت رقابته الصارمة. وكانت هذه قفزة ثانية للأمام، تنتقل بموجبها القرارات المصيرية التى تؤثر فى حياة الملايين إلى يد الجماهير، والتى يعمل تحت إشرافها كل خبير أو أمير يناط به اتخاذ وتنفيذ هذه القرارات.

وما يمكن قوله عن الحرب الأخطر من أن تترك للجنرالات، يمكن أيضا أن يقال عن الاقتصاد والقرارات الاقتصادية. فالقرار الاقتصادى فى الكثير من الأحيان يكون أوسع تأثيرا من القرار العسكرى، ومن ثم فإن قرارات السياسة الاقتصادية يفترض أيضا أن تكون أخطر من أن تترك للاقتصاديين

Enter Economism, Exit Politics: Experts, Economic Policy, and the Damage to Democracy

(ليدخل الاقتصاد ولتخرج السياسة: الخبراء، والسياسة الاقتصادية، وإفساد الديمقراطية)

Teivo Teivainen
London: Zed Books, 2000.

Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity

(حكم الخبراء: مصر والسياسات الفنية والحداثة)

Timothy Mitchell,
Berkley: University of California Press, 2000.

والخبراء الفنيين. إلا أن المفارقة المذهلة التى شهدها القرن العشرون هى أن الاقتصاديين نجحوا فيما يبدو فيما اخفق فيه الجنرالات. فما أن يأتى الحديث عن قضايا التنمية أو إدارة أى شأن اقتصادى حتى تتم الإحالة الفورية إلى رأى الفنيين، بل إن تطورات عديدة فى العقود الماضية أدت إلى إخراج القرارات الفنية - فى المسائل الاقتصادية - من دائرة الإشراف السياسى (مثال: التوجه نحو زيادة «استقلالية» البنوك المركزية، أو نقل عملية صنع القرارات الاقتصادية فى العديد من الدول النامية من البرلمانات إلى الأجهزة التنفيذية «المتخصصة»)، ووصل الأمر فى بعض الحالات إلى إخضاع العمل السياسى وكافة شئون المجتمع إلى اعتبارات الكفاءة الاقتصادية بالمعنى الفنى الضيق (بلغ ذلك فى بعض الأحيان مستويات فجة فى بعض دول أمريكا اللاتينية عندما كان يتم حل برلمانات بدعوى أنها تتخذ قرارات غير رشيدة اقتصاديا، على نحو ما سنرى لاحقا).

ويثير ذلك بطبيعة الحال أسئلة من نوعية: كيف تم ذلك؟ وما هى تداعيات هذا الانتصار للخبراء الفنيين فى مجال السياسة الاقتصادية؟ غير أن السؤال الأخطر، والذى ينبغى أن نجيب عنه أولا هو: وما الضرر فى هذا النجاح للخبراء الاقتصاديين؟ أليس الأولى أن نعطى الخبز لخبازه على نحو ما يجرى المثل الدارج؟ ثم هل يمكن أن ينجح الساسة فى تحقيق ما فشل فيه الخبراء؟ بل هل يمكن أن يفشل الخبراء أصلا؟

والواقع أن إجابة الفكر الاقتصادى والتنموى خلال العقود الخمسة الأخيرة عن السؤال الأخير كانت بالنفى القاطع. فالاستعانة «بأهل الخبرة» هى أول ما ينصح به كل من يتصدى للعمل العام وبالذات فى قضاياه الاقتصادية، وغياب «أهل الخبرة» هو المشجب الذى تعلق عليه عادة أسباب الفشل، فيقال عندئذ، لابد أن الحكومة اختارت «أهل الثقة» وحابتهم، ونسيت دور «أهل الخبرة».

ومن البديهى أن هذا المنطق يفترض أن الاستعانة بأهل الخبرة مسألة مضمونة النجاح. فالحل «العلمى» الذى يعرفه الخبراء بالضرورة أكثر من غيرهم هو الحل الأمثل لمشاكل المجتمع. والمتأمل لتجربة التنمية فى مصر خلال العقود الخمسة الماضية على سبيل المثال، يلحظ هذا الإلحاح على فكرة وجود حل «علمى/فنى» لجميع مشكلات المجتمع، وبصرف النظر عن توجهات الدولة الاقتصادية والتنموية. فتعبير «الاشتراكية العلمية» الذى استخدم فى مصر الستينيات، لم يكن يشير إلى المعنى الماركسى للمفهوم، وإنما لمعنى آخر يفترض أن الاشتراكية تمثل اختيارا فنيا أكثر كفاءة وعلمية لإدارة شئون المجتمع، وبنفس المنطق كان يقال أن مشكلة مصر هى مشكلة إدارة، وأنه لا توجد إدارة اشتراكية وإدارة رأسمالية، وإنما إدارة ناجحة وأخرى فاشلة. وفى السبعينيات، تم طرح سياسة الانفتاح الاقتصادى باعتبارها ضرورة فنية لحل مشكلات المجتمع الذى لم تعد تجدى معه الأساليب القديمة. ويمكن أن يقال نفس الشىء عن الخطاب المفسر للسياسات الاقتصادية المتبعة فى ظل برنامج الإصلاح الاقتصادى منذ عام ١٩٩١، والذى يتحدث بفخر عن «تجاوز عمليات تسييس الاقتصاد ونهاية الأيديولوجيات»، وأن الاقتصاد لا يدار اليوم وفقا لاعتبارات أيديولوجية أو مواقف سياسية وإنما وفقا لمقتضيات العلم، ونصائح الخبراء.

وللأسف فإنه فى دول عديدة - فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وبدرجة أقل فى آسيا - لم يكن نصيب «الحلول الفنية» التى يضعها الخبراء لمشاكل هذه الدول التنموية من النجاح أفضل من الحال فى مصر. وقيل فى تفسير ذلك العديد من المبررات التى تدور فى مجملها حول عدم كفاءة الخبرات التى تمت الاستعانة بها، أو عن الكيفية التى تسلل بها الساسة ليتدخلوا فى عمل الخبراء الذين نجحوا - بشكل يحسدون عليه- فى تفادى تحمل أية مسئولية عن فشل السياسات الاقتصادية التى نصحوا باتباعها.

وتكمن قيمة الكتابين اللذين يعرض لهما هذا المقال فى أنهما طرحا السؤال: متى يمكن أن يفشل الخبراء؟ وهل «الحل الفنى لمشاكل المجتمع» مجرد أسطورة لا وجود لها فى الواقع؟ وهل آن الأوان ليخضع الخبراء الاقتصاديون لما سبق أن خضع له الجنرالات؟ وبعبارة أخرى، هل حان الوقت لكى ندرك أن النجاح فى مواجهة تحدى التنمية لا يحتاج فقط إلى نقل القرار الاقتصادى من الأمير إلى الخبير، وإنما أيضا -وبالأساس- إلى أن يخضع كلاهما لقرار وإرادة الجماهير؟

يقدم كتاب تيفو تيفينين قصة مشوقة - وبحبكة تكاد تماثل الروايات البوليسية - لتجارب دولة بيرو المتكررة خلال القرن العشرين مع وصفات الإصلاح التى يقدمها الخبراء، وكيف ساء الوضع فى كل مرة أسفرت فيها هذه التجارب عن نتائج كارثية على اقتصاد ومجتمع بيرو، وأدت لخروج الخبير طريدا من بيرو، ليعود هو -أو خبير آخر- بعد أعوام قليلة بوصفة تكاد تكون متماثلة وتتكرر التجربة من جديد. أما كتاب تيموثى ميتشل فيتضمن مجموعة من الدراسات -نشر أغلبها من قبل فى صورة مقالات أو فصول فى كتب محررة- تتناول الأبعاد السياسية والاجتماعية لقضايا فى تاريخ مصر الحديث تبدو فنية صرفة، من مواجهة وباء الملاريا إلى ظهور الملكية الفردية للأراضى فى مصر، وصولا إلى برنامج التكيف الهيكلى المتبع منذ بداية التسعينيات.



ميتشل يتحدى التصور الشائع عن تراجع مستويات الدعم فى مصر خلال التسعينيات ويدفع بأن ما حدث فقط هو تغير الشرائح الاجتماعية المتلقية للدعم

وما يجمع الكتابين هو همٌ واحد يتمثل فى محاولة استخلاص عبر أعم وأوسع نطاقا من دراسات الحالة التى يتناولانها، والإجابة عن ثلاثة أسئلة أساسية، هى: هل هناك فعلا حلول فنية - محايدة سياسيا - للمشاكل الاقتصادية التى تواجهها الدول النامية؟ كيف نشأ وتمكن هذا الإيمان الأعمى بالخبراء الفنيين؟ وما هى الخصائص المشتركة للوصفات الفنية التى تقدم للدول النامية؟

وبينما يركز كتاب تيفينين على تفاصيل التجربة البيروانية، وينشغل ببحث تأثير هيمنة الخبراء والحلول الفنية على التطور الديمقراطى فى بيرو، ودول العالم النامى بشكل عام، فإن كتاب ميتشيل يبدو أكثر إدراكا للأسس الفلسفية التى يستند إليها الخيار الفنى لحل المشاكل الاقتصادية والسياسية، وإن كان أقل ثراء من حيث التفاصيل التاريخية. فالأول يروى بتفصيل وإحكام قصة واحدة، أما الثانى فيضم فصولا متفرقة يجمعها هم التأسيس لأطروحة نظرية طموحة تعيد النظر فى المشروع الحداثى ككل. وهما معا يتكاملان ويحكيان أطرافا من قصة ممتدة قد تكون هى جوهر مأساة التنمية فى دول العالم الثالث، ويطرحان السؤال المثير: هل هناك حلول فنية لمشاكل دول العالم الثالث؟

ظهرت فكرة الخبير المحايد القادر على مساعدة الدول على مواجهة أزماتها الاقتصادية فى أوائل القرن الماضى، وكانت البداية مع اقتصادى أمريكى شهير من جامعة برينستون هو إدوين ولتر كيمرر Edwin Walter Kemmerer، والذى كان يعرف باسم «طبيب الأموال the money doctor» القادر على حل الأزمات المالية للدول. وكان كيمرر يؤكد دائما أنه لا شأن له بالسياسة ويقدم نفسه باعتباره حاملاً لوصفة علمية لحل مشاكل موازين المدفوعات للدول النامية. ولن يندهش القارئ عندما يعلم أن الوصفة كانت انكماشية (على غرار وصفات صندوق النقد الدولى فى أيامنا هذه) تعلى من شأن الانضباط المالى والنقدى على أية اعتبارات أخرى، حتى أن تيفينين أسماه فى دراسته «رجل واحد يقوم بعمل صندوق النقد One-man IMF». وتنقل كيمرر خلال العقود الأولى من القرن العشرين فى عدد من دول أمريكا اللاتينية - من بينها بيرو - مقدما وصفته التقشفية. وبلغ إيمان كيمرر بعلمية وصفته، وصلاحيتها لكل دولة وفى كل وقت، أنه قدم ذات النصائح الانكماشية لدول أمريكا اللاتينية فى مواجهة الكساد الكبير فى نهاية العشرينيات من القرن

الماضى. وليس من الصعب تخيل النتائج الكارثية لهذه النصائح، حيث أشهرت كل دول أمريكا اللاتينية والوسطى - باستثناء هاييتى - إفلاسها بحلول عام ١٩٣٣، وتم - بطبيعة الحال - الاستغناء عن خدمات السيد كيمرر.

غير أن هزيمة كيمرر الشخصية لم تؤد إلى التشكيك فى فكرة الحلول الفنية التى لا يعرفها سوى الخبراء. فبيرو تعطى مثالا غريبا للإصرار على تكرار ذات الخطأ، فبعد عقدين على تجربتها مع كيمرر أخضعت بيرو نفسها لصندوق النقد، وكانت أول دولة لاتينية توقع اتفاق تثبيت مع المنظمة عام ١٩٥٤، ومنذ ذلك الوقت يمكن رصد نمط متكرر تقوم بموجبه حكومة بيروانية بتوقيع اتفاقات انكماشية بإرشاد من خبراء صندوق النقد الدولى، واقتصاديين محافظين (من جامعة شيكاغو الأمريكية فى أغلب الأحيان)، مما يؤدى إلى زيادة تفاقم الأزمة الاقتصادية وارتفاع درجة الاحتجاج الاجتماعى، وسقوط الحكومة، التى لا تلبث خليفتها أن تدخل فى نفس الدورة مجددا.

ولا يمكن تفسير هذا الخطأ المتكرر، بمجرد افتراض حماقة صناع القرار الاقتصادى، وإصرارهم على تكرار الخطأ، فالحماقة، كما يقول أستاذ العلوم السياسية الأمريكى الشهير ستيفين كرازنر، ليست وحدة تحليلية صحيحة Stupidity is not a valid analytic category. ومن هنا يحاول تيفينين أن يفسر لنا هذه الحلقة الخبيثة عن طريق البحث عن المصالح السياسية الكامنة وراء هذه الوصفات المحايدة التى قدمها الخبراء واتبعها بكل إخلاص السياسيون، ويخلص من خلال تحليل التغير فى توزيع الدخول للشرائح الاجتماعية المختلفة إلى نتيجة فى منتهى الأهمية، فبرامج الخبراء الانكماشية والقائمة على الانسحاب المستمر للدور الاقتصادى للدولة لم تؤثر بالسلب على الجميع، وإنما أدت لخدمة شرائح اجتماعية معينة كانت فى تحالف مستمر مع الحكومات المتعاقبة، ومن هنا فالمسألة لم تكن مجرد خطأ فى الحساب الفنى، أو إصرار أحمق على تكرار الأخطاء، وإنما كانت خيارا اجتماعيا وسياسيا واضحا بخدمة مصالح معينة واستبعاد مصالح أخرى.

ونفس النتيجة تظهر بشكل متكرر فى الفصول المختلفة المتضمنة دراسات ميتشل فى التاريخ الاقتصادى لمصر، والتى يسوق خلالها أمثلة عديدة من حقب مختلفة، لعل أكثرها طرافة ذلك الخاص بقضية الدعم الحكومى، والمناظرة الدائرة حول جدواه الاقتصادية. فميتشل يتحدى التصور

من الأمير إلى الخبير



إن كل قرار فنى هو بالضرورة قرار سياسى يدعم مصالح معينة ويهمش مصالح أخرى. وبالتالى، فإن المفاضلة بين البدائل المختلفة لصنع القرار ينبغى أن تقوم على حسم الخيارات الاجتماعية المضمرة فى كل قرار فنى. فلا يوجد حل فنى بلا تكلفة اجتماعية

الشائع عن تراجع مستويات الدعم فى مصر خلال عقد التسعينيات فى ظل برنامج الإصلاح الهيكلى، ويدفع بأن ما حدث فقط هو تغير الشرائح الاجتماعية المتلقية للدعم. وهنا تكمن مفارقة تقليدية فى الخطاب الإعلامى حول موضوع الدعم، فالدعم الذى يتم الحديث عنه عادة هو الدعم المقدم للفقراء، بينما تسقط منه كافة أشكال الدعم المقدمة للأثرياء (يشير كتاب ميتشيل منها إلى الإعفاءات الضريبية، أو منح عقود مجزية من الحكومة أو من مشروعات المعونة الأمريكية لبعض رجال الأعمال، أو شق طريق سريع موصل لمشروع سكانى يرتبط النجاح فى بيع وحداته بالدفع بقربها من العاصمة...إلخ). ولذا فإن الكاتب يرى أن الجدل الفنى حول حكمة الإبقاء على الدعم الحكومى أو تقليصه يصبح غير ذى دلالة، إذ أن ما يحدث ليس مناظرة فنية حول الدعم، وإنما خيار اجتماعى بتغيير الشرائح المتلقية له. والخلاصة التى يؤكد عليها الكتابان هى أنه لا توجد حلول مدرسية textbook solutions لمشاكل المجتمع، فكل قرار فنى يعبر بالضرورة عن خيار سياسى واجتماعى ينحاز لمصالح معينة ويستبعد مصالح أخرى.

ولكن إذا كان لكل قرار فنى أساس سياسى، فكيف نشأ هذا الإيمان العميق بفكرة وجود حلول فنية؟ تطرح الدراستان ثلاثة أسباب لتفسير هذه الظاهرة، سببان سياسيان، وأما السبب الثالث فهو فلسفى يتعلق بمقولات وأطروحات فلسفة الحداثة فى أكثر أشكالها تطرفا.

فعلى الصعيد السياسى، كانت هذه الفكرة ملائمة لمصالح أطراف عديدة. فالخطاب الفنى يتيح عادة إخفاء التحيزات الاجتماعية للقرارات والسياسات الاقتصادية المختلفة، ما دام يصاغ بلغة «شبيهة بحياد لغة النشرات الجوية»، على حد التعبير الشهير ليوجين بلاك، رئيس البنك الدولى الأسبق، والذى لا أشك أن القارئ يتذكر دوره الشهير فى أزمة تمويل السد العالى وتأميم قناة السويس، حين دفع بأن بنكه فنى لا شأن له بالسياسة، وأن سحب تمويل السد كان لأسباب اقتصادية بحتة، وشبهه الرئيس السابق جمال عبد الناصر فى خطاب التأميم الشهير بفرديناند دليسبس. ومن ناحية أخرى، فإن الدفع باعتبارات فنية يمثل أفضل وسيلة للتحلل من الوعود الانتخابية بتحسين الأوضاع المعيشية. ففى بيرو مثلا، جاء الرئيس فوجيمورى بحملة انتخابية ذات صبغة يسارية، ولكنه تبنى أكثر البرامج الاقتصادية محافظة، مبررا هذا التحول بوجود ضرورات فنية لإصلاح الاقتصاد البيروانى ومطالبا الناخبين بتحمل التضحيات التى لابد منها، وظل يتمسك بهذا البرنامج المحافظ، والخطاب الفنى لتبريره، حتى اضطر تحت وطأة الاحتجاج الشعبى إلى الاستقالة والهروب إلى اليابان -موطن أسلافه الأوائل- عام ٢٠٠٠.

أما أخطر الأسباب فهو الذى يشير إليه ميتشل فى دراسته، فجوهر أسطورة الحل الفنى فى رأيه مرتبط بأكثر صور الفكر الحداثى تطرفا، والتى ترى أن التاريخ الإنسانى ما هو إلا عملية سيطرة متنامية للإنسان على المادة، وتعرفه على القوانين العلمية التى تتيح له التحكم والسيطرة على الكون. وتنظر هذه الصيغة للفكر الحداثى لتاريخ المجتمعات بشكل خطى linear يفترض أن هناك مسارا «علميا» واحدا لتطور جميع المجتمعات، ومن ثم فإن نقل خبرة التحديث التى شهدها الغرب إلى المجتمعات «المتخلفة» ممكن وضرورى، باعتبار أن هذه الخبرة هى ثمة قوانين «علمية» صالحة لكل زمان ومكان. وهذه فى الواقع هى مهمة الخبراء الفنيين.

ويذهب ميتشل خطوة أبعد، فيلفت نظر قارئه إلى أنه ولفترات تاريخية طويلة كانت ثنائية الخبراء والتحديث الخطى هى جوهر أيديولوجية الاستعمار المعروفة باسم «عبء الرجل الأبيض»، فينقل عن أحد رجال الإدارة البريطانية فى الهند قوله «لا أجد سببا للاعتقاد بأن المبادئ التى لا شك فى صحتها فى كل مكان، لا يمكن تطبيقها فى البنغال»!! ولا أشك فى أن القارئ الآن يسمع أصداء لهذه الأفكار لتبرير «العبء الجديد للرجل الأبيض» لإصلاح وتحديث المنطقة العربية ودمجها فى شرق أوسط كبير أو موسع أو متضخم...إلى آخر ما تجود به قريحة «الخبراء» الغربيين وينقله عنهم للأسف الشديد الكثير من باحثينا بلا تدقيق.

وإذا كان الراحل العظيم إدوارد سعيد قد كشف واحدا من أخطر أوجه الاستشراق، باعتباره خطابا أسطوريا عن «المجتمع التقليدى» فى الشرق، ومكونا أصيلا لأيديولوجية «عبء الرجل الأبيض» (وهو ما تجد أصداء له فى الفصل الخاص بتاريخ الملكية الزراعية فى مصر فى كتاب ميتشل)، فلازالت هناك حاجة ماسة لتفكيك أسطورة «الخبير الفنى المحايد»، الذى سينقل «القوانين العلمية» الصالحة لكل زمان ومكان، باعتبارها الوجه الثانى لنفس الأيديولوجية.

يرصد الكتابان ثلاث قواعد أساسية يقوم عليها عمل الخبراء الفنيين، هى:

أولا: تصوير الظروف الاجتماعية فى «المجتمعات التقليدية» على أن لها وجودا طبيعيا وأزليا. فالتفاوت فى

ملكية الأراضى مثلا يجد أصوله فى ظاهرة الملكية الفردية للأراضى التى تعد ظاهرة طبيعية موجودة من قدم التاريخ، والمجتمع الريفى فى مصر مثلا لم تتغير أوضاعه منذ آلاف السنين، ولا يمكن لها أن تتغير إلا بتدخل «علمى» لزرع قوانين التحديث فى هذا المكان المستعصى على التحديث. ويصور ميتشل فى أحد أكثر فصول كتابه طرافة الكيفية التى يتم بها كتابة تاريخ أسطورى لحال المجتمع الريفى فى مصر، يتجاهل أن هذا المجتمع مر بتحولات هائلة أخطرها إدخال نظام الملكية الفردية للأرض الزراعية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وأن كثيرا من ظروفه ومشاكله ليست نتاجا لتقليديته وإنما لظروف تاريخية معينة، وفى أحيان كثيرة، لأنماط تحديث مشوهة.

ثانيا: تحديد «مناطق فنية آمنة» يختص بها الخبراء وحدهم ولا ينبغى أن يتطرق إليها الساسة.

ثالثا: التأكيد على ضرورة «الواقعية» وقبول أية مشاكل ناجمة عن تطبيق سياسات الخبراء (كتفاقم الخلل فى توزيع الثروة، أو ارتفاع معدل البطالة)، باعتبارها كلفة إنسانية لابد منها حتى تؤتى السياسات «العلمية» ثمارها، وليست نتيجة لانحياز اجتماعى كامن فى هذه السياسات العلمية ذاتها.

وبين المطالبة بالواقعية، وبناء المناطق الفنية الآمنة، تتحقق هذه المتتالية المأسوية التى عاشتها كثير من الدول النامية: ففى البدء يتم فصل الحيز الاقتصادى عن أية اعتبارات سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية، باعتبار أن المسائل الاقتصادية ذات طبيعة فنية بالأساس، ثم يتم إعادة تعريف الاقتصاد، بحيث لا ينظر إليه كأحد جوانب الحياة، وإنما - على حد تعبير الاقتصادى الشهير جارى بيكر الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٢- كمنطق علمى للتفكير وحساب الجدوى يمكن تطبيقه على كافة مجالات الحياة، ومن ثم يتم إسقاطه على سائر قضايا المجتمع لتخضع جميعها لحسابات الربح والخسارة (هل يخطر مثلا على بال القارئ الحديث المجوج عن عدم «استفادة» مصر من التزامها العربى وتضحياتها من أجل القضية الفلسطينية؟)، لتكتمل الحلقة التى تبدأ بإخراج الاقتصاد من دائرة رقابة المجتمع، وتنتهى بعودته للهيمنة على كل مقدرات المجتمع. وتضرب لنا التجربة البيروانية فى عهد الرئيس ألبرتو فوجيمورى (١٩٩٠-٢٠٠٠) مثالا بالغ الدلالة لهذه الحلقة الخبيثة: ففى البدء يتحلل الرئيس فوجيمورى من وعوده الانتخابية ويتبنى برنامجا محافظا بدعوى أن هذه هى مقتضيات الإصلاح الاقتصادى، ثم يدفع بأن قضايا الاقتصاد هى قضايا فنية لا ينبغى أن يتحدث فيها غير المتخصصين، وعندما اعترض البرلمان المنتخب على هذه السياسات، قام فوجيمورى بحل البرلمان عام ١٩٩٢ بدعوى أنه يعوق الإصلاحات!! وهكذا فإن ما بدأ بإخراج السياسات الاقتصادية من نطاق إشراف البرلمان المنتخب، انتهى بأن تصبح الاعتبارات الاقتصادية «الفنية» معيارا لتحديد صلاحية البرلمان المنتخب للاستمرار فى الحكم!!

للقارئ عذره إن سأل: هل هذا المقال - والكتب التى يعرض لها - دعوة لإحلال أهل الثقة محل أهل الخبرة والكفاءة؟ فالواقع أن هذه الثنائية، على ما بها من أوجه ضعف منهجية عديدة، لا تزال مهيمنة على واقعنا العربى. فالحديث مستمر عن الحلول الفنية التى سيضعها الخبراء، وأى تشكيك فى جدوى الخيار الفنى لمواجهة مشاكل المجتمع يصور وكأنه دعوة شمولية لتقديم أهل الثقة والولاء.

وحتى الكتابات القليلة التى شككت فى هذه الثنائية التبسيطية كانت تنحو عادة منحى اعتذاريا، كأن يقال أن كثيرا من أهل الثقة هم أهل خبرة أيضا (مثال: فى أى خانة يمكن تصنيف محمد حسنين هيكل أو عزيز صدقى مثلا؟) أو أن كل دول العالم تعتمد على نسبة معينة من أهل الثقة (مثال: السفراء الأمريكيون المعينون سياسيا من خارج السلك الدبلوماسى).

ومشكلة هذا النوع من النقد هو أنه يبقى مسلمة أهل الخبرة خارج نطاق الشك، دون أن يطرح السؤال الأخطر وهو: هل هناك خبرة فنية محايدة؟ أو حل فنى لمعضلة سياسية أو اجتماعية؟ فليست القضية هنا دعوة - لا يمكن أن يقبلها ذو عقل - لتفضيل أهل الولاء على أهل العلم، بل على العكس، فكل ما يقوله أمثال الكاتبين اللذين عرضنا لهما هنا هو أن تأسيس وعى علمى ونهضوى سليم يقتضى إدراك أنه لا توجد حلول مدرسية لمشاكل مجتمعية معقدة، وأن كل قرار فنى هو بالضرورة قرار سياسى يدعم مصالح معينة ويهمش مصالح أخرى. وبالتالى، فإن المفاضلة بين البدائل المختلفة لصنع القرار ينبغى أن تقوم على حسم الخيارات الاجتماعية المضمرة فى كل قرار فنى. فلا يوجد حل فنى بلا تكلفة اجتماعية، والمسألة هنا هى فى حسم من يتحمل هذه التكلفة، وفى إشراك هذا الطرف المضحى فى اتخاذ القرار الذى نطالبه بأن يتحمل تكاليفه. هو دعوة إذن لأن يخضع كل من الأمير والخبير لرقابة الجماهير. وهذا هو بيت القصيد. ■

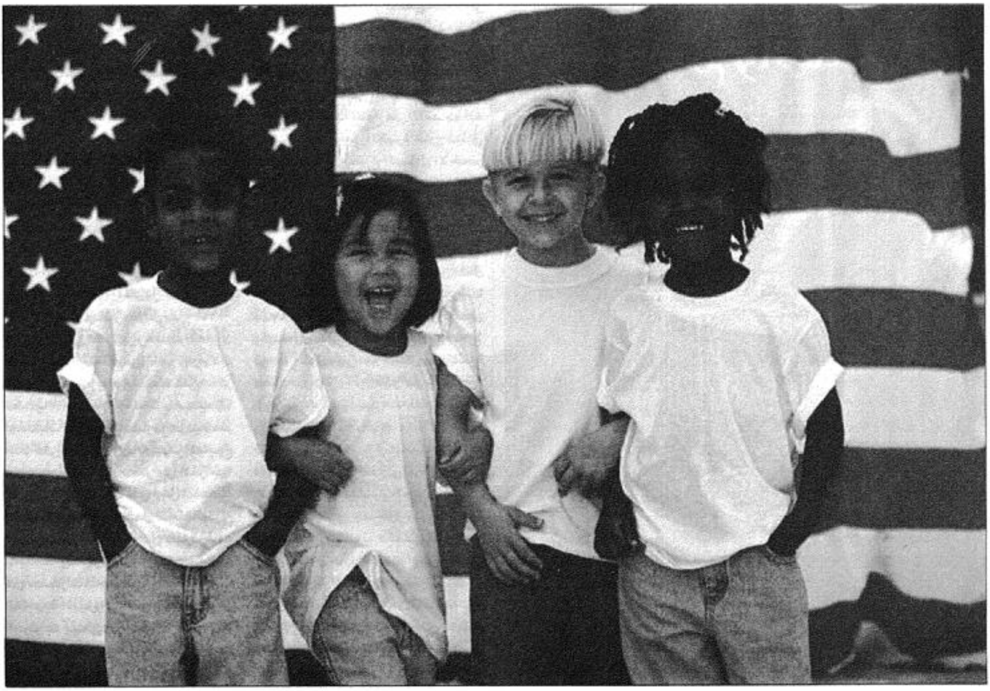
اللعـــب عـلى أوتـــار الوطنيـــة

■■ يستهل «صامويل ب. هانتنجتون Samuel P. Huntington» كتابه بإعلان أنه يكتب من منطلق «وطنى»، وهو ما يجعله فى شدة القلق على وحدة وقوة وطنه. وهو يخشى أيضا من أن «الوطنية» أصبحت عاطفة مهددة بالانقراض. ويرى «هانتنجتون» أن «حب الوطن» كان دوما من أسمى الفضائل. وينزع المحافظون - أكثر من الليبراليين - إلى تعليق الشارات على ياقاتهم ووضع أيديهم على قلوبهم عند عزف النشيد الوطنى. ومع ذلك فإن أمريكا التى يحبونها لها شكل محدد: اقتصاد يضع الأولوية دائما للكسب المادى مع الاستعداد الكامل للتجاوز عن الظلم الناتج عن ذلك، وسطوة عسكرية يرهبها العالم كله، مع التشديد على أهمية العقيدة الدينية بكل ما يتبعها من قيود. ومع ذلك يحذو المحافظون نهج «وليام بينيت William Bennett» فى الترويج لـ «المثالية المتفوقة لأسلوب الحياة الأمريكى». وعلى ذلك فكون المرء وطنيا يلزمه بالضرورة أن يؤمن بأن الولايات المتحدة تتفوق على كافة المجتمعات الأخرى (وإياك أن تحاول الجدل بأن الفنلنديين مثلا يؤدون بعض الأشياء بطريقة أفضل).

ويود «روبرت ب. رايش Robert B. Reich» أن يصنف أيضا ضمن الوطنيين. ولكنه يؤكد أن وطنيته من النوع «الإيجابى» الذى يختلف عن «الوطنية السلبية المستبدة». وهو يضيف بأن الكثير من الليبراليين «التزموا الصمت تجاه الوطنية» أو - على الأقل - شعروا بالارتباك نحوها. ولا يثير الدهشة أن مظاهر الحياة الأمريكية التى يكن لها «رايش» أسمى درجات التقدير ليست لها نفس الأولوية فى قائمة المحافظين. وهو عندما ينادى بـ «حقنا الديمقراطى فى المعارضة» يتبع ذلك بتوجيه قدر كبير من الانتقاد إلى الظلم الفادح الناتج عن اقتصاد السوق الذى يأمل بإصلاحه بالإقلال من الظلم على سبيل المثال وبتوفير رعاية صحية شاملة وزيادة الاستثمار فى التعليم الجيد. وهو يصرح فى نفس السياق بأن أمريكا التى يحبها تؤكد على أن «كلا منا مدين للآخرين، باعتبار أننا أعضاء فى نفس المجتمع».

لطالما جادل الليبراليون أمثال «رايش» بأن أهم التقاليد الأمريكية تأتى من الدستور والضمانات التى يوفرها للمعارضة، والتى تؤدى بالتالى إلى الإصلاح والتغيير البناء. ولسوء الحظ فليس من المرجح أن تلقى محاولات الوصول إلى وطنية ناقدة وناكرة للذات

... من هو الأمريكى؟



أنــــــــدرو هـــــاكــــــر

طبقا لتوصيات «رايش» قبولا لدى من نصبوا أنفسهم حماة لمتناقضات «هانتنجتون». وسواء رضينا ذلك أم لا، فقد أصبح الكسب المادى والقوة العسكرية والورع الدينى من السمات الثابتة للشخصية الأمريكية شبه الرسمية. أما الاستبداد الذى يقلق «رايش» فقد انتشر داخل أمريكا وخارجها على السواء. ولا يتورع المحافظون عن اتهام منتقديهم ذوى الميول «شبه» اليسارية بـ «معاداة أمريكا» وبأنهم يفتقرون إلى بعض الخصائص الأمريكية الخالصة، والتى لم يتجشم المحافظون عناء وضع تعريف لها. والليبراليون من جهتهم تنقصهم فعلا مثل هذه الصفات، وحتى لو ترك لهم الخيار ما كانت لتتوفر لديهم رغبة كبيرة فى انتحالها. ويلمح «رايش» إلى أن الكلمة التى اختارها عنوانا لكتابه «Reason» تتضمن سبب هذا العزوف.

أمريكا التى يحبها المحافظون لها شكل محدد: اقتصاد يضع الأولوية دائما للكسب المادى مع الاستعداد الكامل للتجاوز عن الظلم الناتج عن ذلك، وسطوة عسكرية يرهبها العالم كله، مع التشديد على أهمية العقيدة الدينية بكل ما يتبعها من قيود

وقد اختار «هانتنجتون» سؤال «من نكون؟» عنوانا لكتابه. ورغم أنه قام بطرح السؤال، إلا أنه فرض إجابة لا تقبل الشك. فهو يرى أن هوية الأمة قد تشكلت يوم أن اكتشفها المستعمرون البريطانيون الذين جلبوا معهم ثقافة مميزة تتضمن اللغة الإنجليزية والقيم البروتستانتية والنزعة الفردية والالتزام الدينى واحترام القانون.

وفى كل صفحات الكتاب تقريبا نجد تلميحات إلى الفطرة «الأنجلو - بروتستانتية»، والتى يسبغ عليها «هانتنجتون» كل الفضائل عدا الشرعية الدستورية، وذلك رغم الاستعداد الكامل للاندماج والانصهار والذى أبداه المهاجرون من أصول أخرى. وقد يجادل المؤرخون بأن تاريخنا قد تغير كثيرا منذ أن استوطن أول المستعمرين فى خليج «ماساتشوسيتس». وفى الحقيقة، فكما تظهر الأرقام، فإن أقل من ٢٥ بالمائة من الأمريكيين اليوم يدعون أن أسلافهم هم فى الأساس أو الغالب الأعم من البريطانيين أو الإسكوتلانديين أو من «ويلز» أو أيرلنديين. سكوتلانديين. ورغم عدم توافر إحصائيات موثوقة حول العقيدة فمن الواضح أن وصول الكاثوليك واليهود وكذلك الأفارقة والآسيويين قد أعاد تشكيل البنية الثقافية بطرق عديدة ومختلفة. وفى الحقيقة فإن البروتستانت الأنجلو - ساكسون البيض قد اضمحلوا فى أمريكا منذ زمن طويل ولم يعد لهم ذكر سوى فى مسرحيات «أ. ر. جورنى A.R Gurney» و روايات «جون شيفر John Cheever»، وبالتالى لم تعد لهم السيادة فى مجالات مثل البنوك والقضاء أو جامعة «هارفارد».

ومع ذلك فلدى «هانتنجتون» حجة قوية بأنه إلى وقت قريب على الأقل فإن «الآخرين من غير البيض البروتستانت الأنجلو. ساكسون لم يصبحوا أمريكيين إلا بعد أن اعتنقوا القيم الثقافية والسياسية الأنجلو. بروتستانتية الأمريكية». وفى الحقيقة فإن من وصلوا إلى أمريكا بعد ذلك لم يتكيفوا تماما فقط، بل وتخلوا بمرور الوقت عن كثير من سماتهم المميزة. فرغم أن الألمان مثلا هم أكبر الجماعات المهاجرة من أوروبا، فمن الصعب اليوم أن تجد لهم أثرا يذكر، حتى فى مدن مثل «ميلووكى» و«سينسيناتى». وفى «نيويورك» كانت الأعداد الكبيرة للأيرلنديين الإسكوتلانديين تكفى للسير فى موكب «الرجال البرتقاليين» (منظمة سرية بروتستانتية أيرلندية) ولكنهم الآن انصهروا وذابوا أيضا. وبسبب الزواج المختلط والعلاقات الأخرى وجدنا فى الأجيال المتعاقبة أعدادا متزايدة من الأمريكيين ينحدرون من أصول مختلطة. بل إن تأجيل التفكير فى الزواج أو حتى «تجاهله» تماما سمح للأمريكيين الشباب باختيار شركائهم بدون وصاية من الأهل.

ويرى «هانتنجتون» فى الأمريكيين من أصل أوروبى «نهاية للعرقية». فهناك اليوم حوالى ٦٢ مليون أمريكى ذوى أصول مختلطة، وقرابة الـ ٥٤ مليونًا بدون أصول على الإطلاق، وكذلك هناك ٢١ مليونًا تقريبا يعتبرون أنفسهم ببساطة «مواطنين أمريكيين». ومجموع كل هؤلاء يساوى تقريبا رقم الـ ١٤٣ مليون أمريكى الذين مازالوا يفاخرون بالانتساب إلى دولة واحدة أو أصل وحيد. ولكن لماذا تعتبر الأصول «البروتستانتية» عنصرا رئيسيا فى الهوية الأمريكية اليوم؟ من الصحيح أن البروتستانتية كانت ديانة كل المستكشفين تقريبا. ومع ذلك فإن «حركة الإصلاح الدينى» كانت موجودة لأكثر من قرنين من الزمان قبل اكتشاف أمريكا، وكانت قيمها قد اندمجت تماما فى الحياة الأوروبية والأمريكية بحلول ذلك الوقت. وعلى ذلك فإن فرض عنصر دينى محدد على ثقافتنا السياسية الأمريكية يصيبنى بالصدمة، ليس فقط لأنه لا لزوم له، وإنما أيضا لأنه باعث على الفرقة. ورغم كل شىء، فالذى وقع إعلان الاستقلال (عام ١٧٧٦) كان كاثوليكيا، والمؤتمر الدستورى (١٧٨٧) كان يضم بين أعضائه التسعة والثلاثين اثنين من الكاثوليك. وفى جميع الأحوال فإن «هانتنجتون» نفسه لم يحاول فى كتابه أن يعزل على وجه الخصوص العناصر البروتستانتية للهوية الأمريكية.

وأكثر مايقلق «هانتنجتون» هو مايسميه بـ «الأسبنة» (نسبة إلى معظم سكان أمريكا اللاتينية والوسطى والجنوبية والذين ينحدرون من أصول أسبانية)، والتى يعتقد أنها تطوق أجزاء كبيرة من أمريكا. وعلى النقيض من ذلك فليست لديه مخاوف مماثلة تجاه المهاجرين الآسيويين، لأنهم - حسب قوله - يزدادون «ابيضاضا» ولأن «قيمهم تنسجم مع القيم الأمريكية» وبسبب «المستوى المرتفع لتعليمهم ولمراكزهم الوظيفية». وأعتقد أن الكثيرين سيقولون أن خلفيتهم الآسيوية ساعدتهم فى اكتساب قيمهم الحالية. بل إن «هانتنجتون» يقرر أن «لون جلودهم يتحول

Who Are We? The Challenges to America's National Identity
(من نكون؟: التحديات التى تواجه الهوية القومية الأمريكية)
Samuel P. Huntington
Simon & Schusher, 2004,
428pp., $27.00

Reason: Why Liberals Will Win the Battle for America
(العقل: لماذا سيكسب الليبراليون معركة أمريكا)
Robert B. Reich
Knopf, 2004, 257pp., $24.00

On Paradise Drive: How We live Now (And Always Have) in the Future Tense
(سعيا نحو الفردوس: كيف نعيش الآن -كما عشنا دوما- فى صيغة الزمن المستقبل)
David Brooks
Simon & Schusher, 2004,
304pp., $25.00

The Two Americas: Our Current Political Deadlock and How to Break It
(أمريكتان: الجمود السياسى الحالى وكيف نكسره)
Stanley B. Greenberg
St. Martin's Press, 2004, 400pp.,
$25.95

The Working Poor: Invisible in America
(العمال الفقراء: الذين لايراهم أحد فى أمريكا)
David K. Shipler
Knopf, 2004, 319pp., $25.00

عن مجلة:

New York Review of Book

ترجمة: عادل فتحى

للبياض، رغم أنه لا يذكر مصدرا لهذا التأكيد. وفى الواقع أن مجموع الأمريكيين الآسيويين يزداد «اسمرارا» بعض الشىء نظرا للانخفاض الإجمالى لأعداد المهاجرين الصينيين واليابانيين والكوريين منذ منتصف التسعينيات، بينما زادت أعداد القادمين من باكستان والهند، والذين لا يعود تراثهم بالتأكيد إلى التاريخ البروتستانتى و«المبدأ الأخلاقى» الذى وصفه «ماكس ويبر Max Weber» (عالم اجتماع واقتصاد ألمانى، ١٨٦٤-١٩٢٠).

وفى التعداد السكانى لعام ١٩٧٠، شكل الأمريكيون الأسبان الذين ترجع أصولهم العائلية إلى دول أمريكا اللاتينية نسبة ٤.٥ بالمائة من السكان. أما فى تعداد عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ١٢.٥ بالمائة. وجاء ٥٨.٥ بالمائة من هؤلاء من أصول مكسيكية، بينما جاء مواطنو بورتوريكو فى المرتبة الثانية بنسبة ٩.٦ بالمائة، يليهم الكوبيون بنسبة ٣.٥ بالمائة، ثم خليط من أمريكا الوسطى بنسبة ٤.٨ بالمائة، وأمريكا الجنوبية بنسبة ٣.٨ بالمائة. وخلال تلك الفترة انخفضت نسبة الأمريكيين البيض من ٨٣.٣ بالمائة إلى ٦٩.١ بالمائة. وبالنسبة للمستقبل، فإن العائلات الأسبانية لديها ٢.٧ طفل فى المتوسط بينما يدور الرقم عند العائلات الأمريكية البيضاء حول ١.٨ طفل والذى يقل حتى عن الحد المطلوب للحفاظ على معدل الإحلال.

ويختلف دفق المهاجرين الأسبان عن غيره نظرا لقرب الولايات المتحدة جغرافيا من المكسيك والدول الأخرى المتحدثة بالأسبانية مثل جمهورية الدومينيكان وغيرها. فمن الواضح أن هذا القرب الجغرافى يسهل الهجرة إلى الولايات المتحدة، وخاصة غير الشرعية، والتى تمثل ـ كما يقول «هانتنجتون» ـ ما يقرب من ٤٥ بالمائة من الأسبان الموجودين على الأرض الأمريكية فعلا. ولكن قربهم من أوطانهم الأصلية يمكن أيضا أن يضعف من ولائهم الوطنى لأمريكا حتى عند الجيل الثانى والثالث. ويزعم «هانتنجتون» أن العديد منهم يحتفظون بالأسبانية كلغتهم الأم، ويطالبون بفصول دراسية ثنائية اللغة لأبنائهم، ويختارون العيش فى أحياء خاصة بهم، وكثيرا ما يقضون أجازاتهم الطويلة فى المكسيك ودول أمريكا اللاتينية الأخرى. وهو يشير كمعيار جوهرى إلى أن ٣٣ بالمائة فقط من المهاجرين المكسيكيين يصبحون مواطنين مقابل ٧١ بالمائة من الكوريين و٧٦ بالمائة من الفلبينيين. ولا يذكر «هانتنجتون» هنا أن ٤٠ بالمائة فقط من المهاجرين الكنديين يصبحون مواطنين أمريكيين. ويتباكى «هانتنجتون» أيضا على مايعتبره احتلالا كوبيا لـ «ميامى»، والذى يزعم أنه أدى إلى نزوح ١٤٠ ألف أمريكى أبيض منها فيما بين عامى ١٩٨٣ و ١٩٩٣، وهو يستشهد بملصق على إحدى السيارات هناك يقول «نرجو من آخر الأمريكيين المغادرين أن يقوم بإنزال العلم قبل أن يرحل» (فى الحقيقة أن رقم ١٤٠ ألف رقم غير صحيح بالمرة. فالإحصاءات تكشف عن أن عدد السكان البيض فى ميامى قد انخفض بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٩٠ من ٦٧,٢٤٩ نسمة إلى ٤٤,٠٩١ نسمة، وكان عددهم بحلول عام ٢٠٠٠ هو ٤٣,١٩٥ وهو تقريبا نفس العدد الذى كان موجودا قبل عقد من الزمان).

ويشن «هانتنجتون» فى كتابه حملة شعواء على الأمريكيين المكسيكيين الذين يمثلون الآن ٧١.٦ بالمائة من المواليد الأسبان. فعلى ضوء اتساع مساحة وطنهم الأم والسهولة النسبية لدخول الولايات المتحدة، فمن المرجح وصول المزيد منهم. ويرى «هانتنجتون» أن «الهجرة المكسيكية سوف تؤدى إلى تحولات سكانية عكسية فى المناطق التى استولت عليها أمريكا من المكسيك بالقوة فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر». وهو لا يعنى بذلك أن يصل الأمر إلى انفصال مساحات كبيرة فى جنوب غرب الولايات المتحدة بعد أن تتحول إلى مستعمرات محلية لهؤلاء الدخلاء. وهو يرفض مقولة أن القيم الأمريكية قادرة على استيعاب التقاليد والثقافة اللاتينية، ويؤكد أنه لا يوجد حلم «أمريكى/ مكسيكى»، بل فقط حلم «أمريكى/أنجلو. بروتستانتى»، وأن على الأمريكيين المكسيكيين إن أرادوا المشاركة فى هذا الحلم أن يحلموا باللغة الإنجليزية.

إن ذلك يبدو من قبيل التسطيح. ألم يسمع «هانتنجتون» أبدا بأناس يتحدثون إحدى اللغات فى المنزل ولغة أخرى فى المدرسة أو العمل ويكونون فى الوقت نفسه مواطنين صالحين محبين لوطنهم؟ من الغريب على وجه الخصوص أن «هانتنجتون» لا يقدم من الدراسات الحقيقية ما يعضد به استنتاجاته.

وقد كتب «لويس ميناند Louis Menand» فى معرض مراجعته النقدية لكتاب «هانتنجتون»، والمنشورة فى مجلة «نيو يوركر New Yorker» بتاريخ ١٧ مايو ٢٠٠٤ أن «هانتنجتون» لا يبدو على وعى بالنتائج الأخيرة التى توصل إليها عالمى الاجتماع «ريتشارد ألبا Richard Alba» و «فيكتور نى Victor Nee» والتى تشير إلى أنه فى عام ١٩٩٠ «كان ٩٥ بالمائة من الأمريكيين المكسيكيين الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين والأربعين والمولودين فى الولايات المتحدة يجيدون التحدث باللغة الإنجليزية». وقد استخلص «ألبا» و«نى» أن الاستيعاب اللغوى للأسبان كان «واسع الانتشار» (راجع كتابهما «إعادة توجيه المسار الأمريكى: الانصهار والهجرة المعاصرة Remaking the American Mainstream: Assimilation and Contemporary Immigration)». وربما ساعد على ذلك أن ٢٨.٣ بالمائة منهم مقترنون بأزواج من أصول أخرى. ومما يثير الدهشة أيضا أن «هانتنجتون» لا يشير من قريب أو بعيد إلى أية علاقة وثيقة له بأحد من أولئك الأسبان أو أنه على استعداد لزيارة عائلاتهم والاستماع إلى وجهة نظرهم حول مفهوم «الوطنية» أو أى موضوع آخر. من الواضح أن «هانتنجتون» يكتب عن أناس لا يعلم عنهم الكثير، وربما كان ذلك هو السبب فى الإحساس بوجود شىء من التوجس لديه عند تناوله إياهم بالدراسة.

يقول «هانتنجتون» فى كتابه أنه «إذا ما توقفت هجرة المكسيكيين فجأة فإن أجور الأمريكيين ذوى الدخل المنخفض سوف تتحسن». لا يمكن إثبات هذه المقولة بسهولة رغم أنها تتردد كثيرا. فإذا ما توقفت الهجرة، فكم من الوظائف التى يحتلها الآن الوافدون الجدد ستؤول إلى الأمريكيين الأقدم عهدا؟ إن أرباب العمل يقومون ـ فى معظم الحالات ـ بتشغيل المكسيكيين لأنهم يقبلون العمل بأجور متدنية مما يؤدى بالتالى إلى خفض التكلفة وتوفير السلع والخدمات للمستهلكين بأسعار أقل. فإذا ما قامت محال غسل وكى الملابس والمطاعم ومواقف انتظار السيارات بتوظيف عمال أمريكيين بالأجور المعتادة فإن رواد هذه المرافق سيتوجب عليهم دفع مبالغ أكبر مقابل تلك الخدمات، مما سيؤدى فى معظم الأحوال إلى انخفاض الطلب عن العرض مما يقلل من عدد الوظائف المتاحة. ومن المعروف فعلا أن الأمريكيين يفضلون شراء الأجهزة الكهربائية والإلكترونية المستوردة من الخارج عوضا عن المصنعة محليا. وكما يشير «دافيد شيبلر David Shipler» فى كتابه «العمال الفقراء»، فإن المهاجرين الذين يقصون العشب ويغسلون السيارات هم فى واقع الأمر قوة عاملة تابعة للعالم الثالث ولكنها تعيش بين ظهرانينا.

أما الأمريكيون فى كتاب «دافيد بروكس David Brooks» سعيا نحو الفردوس، فقد نالوا أكثر مما يستحقون من الاهتمام والتحليل. لقد قام بدراستهم بعناية فى كتابه السابق الذى نعتهم فيه بالبرجوازية الجديدة والذين تأثرت رفاهيتهم سلبا بسبب الصرعات البوهيمية المتوارثة من حقبة الستينيات (كتاب «البوهيميون البورجوازيون فى الفردوس: الطبقة العليا الجديدة وكيف وصلت إلى هناك Bobos in Paradise: The New Upper Class and How They Got There)». إنهم فى العادة خريجو جامعات ولديهم وظائف رائعة ويعيشون فى ضواح آمنة وسط جيران يشابهونهم إلى حد كبير. وأكثر ما لفت انتباه «بروكس» فيهم هو ولعهم الشديد بتملك أحدث ما وصل إليه العلم واكتساب مهارات جديدة مثل حضور ندوة عن الطهى فى «سيينا» بإيطاليا أو الاشتراك فى مغامرة لمراقبة النمور فى الهند أو قضاء أسبوع بين كروم العنب فى «بوردو» بفرنسا.

فى واقع الأمر أننا لا نعرف الكثير عن أحوال الأمريكيين السياسية فيما عدا أنهم غير متعلقين بحزب معين أو عقيدة سياسية واضحة. ويوحى التجاهل الشديد لميولهم السياسية من قبل «بروكس» بأنه لم يدرسهم جيدا أو



لا يوجد حلم «أمريكى/مكسيكى»، بل فقط حلم «أمريكى/أنجلو. بروتستانتى»، وعلى الأمريكيين المكسيكيين إن أرادوا المشاركة فى هذا الحلم أن يحلموا باللغة الإنجليزية

يتعرف إليهم عن قرب. وبدلا من تقصى آرائهم حول القوة العظمى لأمريكا وفئاتها الاجتماعية والأحزاب السياسية والزعماء السياسيين بها، يأخذنا «بروكس» فى رحلة مثيرة لدراسة المجتمعات البشرية. يقول «بروكس» فى كتابه «لن نتمكن من فهم سكان الضواحى بصورة صحيحة ما لم نقدر التأثير الثقافى القوى للعبة الجولف حق قدره». ليس لأن الجميع هناك يلعبون تلك اللعبة، وإنما لأن الجولف يرمز لـ «النموذج الفردوسى» حيث ملاعب الجولف هى «قطع ممتدة من الجمال الناعم» بينما ضربات اللاعبين هى «الحالة المثالية القصوى من السعادة والراحة والألفة».

يتبنى «بروكس» فى البداية لهجة متسامحة حيث ينادى بألا نقسو على الوافدين الجدد الذين يسعون لشق طريقهم فى الحياة. ولكن مع كل فصل من فصول الكتاب، يضع «بروكس» معيارا أعلى لقطاع من المجتمع متميز نسبيا.

الأساس الذى بنى عليه هذا الأمل، فرغم رحلاته العديدة إلى الضواحى فهو لا يستطيع أن يذكر لنا محتويات المثل والرؤى التى وجدها فى قلوب الضواحى. ويرى «بروكس» أن سكان فردوسه قد يكونون محبين للتملك، ولكن أفضل ما يمكن فعلا أن يصفهم به هو انهم لا يأبهون كثيرا بالمكانة الاجتماعية ولا يطمحون للوصول إليها.

يقول «بروكس» أن أمريكا ليست مكانا كهنوتيا. وهذا صحيح إلى درجة ما إذا كان المقصود من ذلك أننا لم ننشئ طبقات اجتماعية أو حواجز صارمة تحد من الحركة. ولكن ما أن يقول «بروكس» ذلك حتى يبدأ فى القلق من أن هناك كهنوتًا من نوع جديد يبرز الآن فى صورة «نظام طائفى تعليمى متوارث». والسبب فبينما ينحدر لأسفل المجتمع بعض أبناء غير القادرين، نجد مواهب جديدة من نفس الطبقة تصعد للأعلى (أجرى «توماس هيرتز Thomas Hertz» مؤخرا دراسة عن أطفال العائلات المدرجة فى شريحة العشرين بالمائة الأعلى من حيث الدخل. وعندما وصلت تلك الذرية إلى سن الرشد لم يبق منهم فى نفس الشريحة سوى ٣٧.٤ بالمائة. راجع فصل «أسمال وثروات وسباق» فى كتابه «فرص غير متكافئة: الخلفية العائلية والنجاح الاقتصادى Unequal Chances: Family Background and Economic Success)». وحتى بغض النظر عن الجينات الوراثية، فإننا نجد النشء المتنعم فى رفاهية الجيل الثانى أقل استعدادا لبذل نفس الجهد الذى كان على والديهم أن يقدموه.

ومن أهم نقاط القوة فى كتاب «سعيا نحو الفردوس» اللقاءات العديدة التى أجراها المؤلف مع أناس حقيقيين. رغم أن إصراره على اختياره لأسئلة معينة أمر

الديمقراطيين والجمهوريين». لقد اوقعت انتخابات العام ٢٠٠٠ الأمة فى «مأزق سياسى تاريخى». كانت نتيجة الأصوات العامة ٥٠.٩٩٩.٨٩٧ صوتا لصالح «آل جور Al Gore» مقابل ٥٠.٤٥٦.٠٠٢ صوتا لـ «جورج دبليو بوش George W. Bush» بفارق نصف بالمائة لصالح «جور». اما الفارق بين أصوات المجمع الإنتخابى (٢٧١ و ٢٦٦ لصالح «بوش») فكان الأقل منذ عام ١٨٧٦ عندما نال الرئيس «هايس Hayes» ١٨٥ صوتا مقابل ١٨٤ لـ «تيلدين Tilden». ومع ذلك فالقول باننا فى مأزق تاريخى ليس مجرد محصلة حسابية. ففارق الأصوات لصالح «جون كينيدى John Kennedy» عام ١٩٦٠ كان أقل من ذلك، فهو لم يفز على «ريتشارد نيكسون Richard Nixon» سوى بفارق سدس من واحد بالمائة. ومع ذلك فإن الصراعات فى ذلك العام (١٩٦٠) لم تكن عسيرة أو طويلة الأمد كما هى الآن.

هناك منذ بعض الوقت تلميحات



إن فكرة وجود جين وراثى خاص بالنجاح هى فكرة قديمة تعود إلى «أفلاطون Plato»، ويبدو أن التفكير فى تحسين نسل الجنس البشرى لا ينتهى أبدا

وبنهاية الكتاب يكون «بروكس» قد قدم لنا صورة بعيدة تماما عن المجاملة. فهو يستشهد على سبيل المثال بمقالات نشرت بمناسبة احتفالات لم الشمل الجامعية كتب فيها الخريجون الأوائل فقرات «شديدة الملل تصيب القارىء بالذهول لفرط تبلدها». وفى بعض الأحيان يلقى «بروكس» بتعليقات شبه ماركسية عندما يسرد مثلا أثر قيم الـ «بيزنس» على الشخصية الأمريكية، فيقول: «تتحول الشخصية إلى وسيلة بيع، والصداقات تصبح معاملات، والحافز للتطوير ينحدر إلى مجرد جشع، ويصبح المال هو معيار النجاح، وتوظف معظم الطاقات الفكرية لأبحاث السوق الخارجية فلا يبقى منها شىء للتأمل الداخلى، وتطغى لغة التجارة على المفردات الأخلاقية».

لو كان الكتاب قد توقف هنا لاعتبرناه مجرد تحديث لكتاب «دافيد ريزمان David Riesman» «الحشد الموحش» الذى يؤكد فيه أن نصف القرن الماضى لم يشهد تغييرا يذكر. ولكن «بروكس» يذهب إلى أبعد من ذلك، فهو يواصل التأكيد بأن التطواف فوق المروج والمتنزهات البديعة إنما هو رؤى غيبية سامية». ويقول «بروكس»: «آمل لو أن شعاعا مثاليا ضرب كل بقعة فى أمريكا». ولكن «بروكس» لا يذكر لنا أبدا

الرئيسى لهذا التغيير هو انتقاء المدارس والمهن الممتازة التى يكون معيار التوظيف والترقية فيها هو الجدارة التى تحقق المساواة بين الجنسين. وعلى ضوء المواهب والطباع المتشابهة فليس من غير المألوف لمن يفوزون بتلك الوظائف أن يلتقوا ويقترنوا ببعضهم البعض: «إن الآباء والأمهات الناجحين يتزوجون ويربون أطفالا يصبحون بدورهم نماذج ناجحة ويجنون الكثير من المال ويأتون هم أيضا بأطفال على شاكلتهم يتحولون إلى قوالب ناجحة».

إن فكرة وجود جين وراثى خاص بالنجاح هى فكرة قديمة تعود إلى «أفلاطون Plato»، ويبدو أن التفكير فى تحسين نسل الجنس البشرى لا ينتهى أبدا. وحسب رأى «بروكس» فلو كان كلا الوالدين يملك المقومات المؤهلة لدخول جامعة «برنستون Princeton» مثلا، فإن الاحتمالات تكون جيدة لأن يرث نسلهم تلك القدرات. المشكلة الوحيدة هنا أن التجارب السابقة نادرا ما تؤكد صحة هذه الفرضية. فبينما يولد أحيانا أطفال موهوبون لأزواج مرموقين، فإن معظم أطفال العائلات الوجيهة لا يصلون إلى المكانة نفسها التى وصل إليها آباؤهم أو أمهاتهم. ويفسر ذلك ما يسميه خبراء الإحصاء بـ «انتكاسة للوراء». وبالفعل فهذا عرف سائد فى المجتمعات المفتوحة:

غير مفهوم على الإطلاق. أما استعانته بالمراجع المطبوعة فكانت مضللة أحيانا. فهو يذكر على سبيل المثال أن دائرة الإحصاء اكتشفت أن ٢٥ بالمائة فقط من المراهقين يتوقعون الاستمرار بالعيش فى المدن التى نشأوا فيها. قد يكون ذلك هو شعورهم فعلا، ولكن لا يمكن أن يرد ذلك فى إحصاء رسمى لأن دوائر الإحصاء لا يمكن أن تسأل مثل هذه الأسئلة. ويقول «بروكس» أيضا أنه «يوجد الآن بالمدارس أقل من ثلاثة عشر طالبا مقابل كل مدرس». وهذا القول أيضا باطل لأن الرقم الحقيقى يقترب من ستة عشر طالبا لكل مدرس، ويدخل ضمن ذلك أيضا فصول الطلبة المعاقين التى لا يزيد العدد فيها على خمسة أو ستة. أما الفصول العادية فيتراوح عدد الطلاب بها بين واحد وعشرين طالبا فى المرحلة الابتدائية وأربعة وعشرين فى المرحلة الثانوية.

كتب «ستانلى جرينبرج Stanley Greenberg» صاحب استطلاعات الرأى الذى يعمل عادة لحساب الديمقراطيين، كتب يقول «إن ولاء الناخبين الأمريكيين انقسم الآن بالتساوى تقريبا بين

لانقسام البلاد. ولقد شطرت الانتخابات المتلفزة لعام ٢٠٠٠ البلاد إلى ما أطلق عليه المعلقون السياسيون ولايات «حمراء» وأخرى «زرقاء». ومن السخرية أن اللون الأحمر كان من نصيب الجمهوريين، وهو أمر كان يمكن أن يؤدى منذ جيل مضى إلى رفع قضية تشهير. كما أصبح لدينا أيضا الليبراليون مقابل المحافظين، والصقور مقابل الحمائم، وكان هناك أيضا انقسام حول بعض القضايا مثل حقوق الشواذ والإجهاض وحتى الموقف تجاه الأمم المتحدة، وقد تجنب «بروكس» التعرض لكل هذه الموضوعات. ويرى «جرينبرج» أن من بين المستجدات أن الحزبين الرئيسيين منقسمان الآن بشدة حول ما كان فى السابق مجموعات متناثرة من القضايا. وهو يقول أن «المتحزبين أصبحوا أكثر حزبية، والحياة السياسية أكثر استقطابا». ومع أنه لا يزال هناك بعض الوسطيين الأقل تشددا، إلا أنه يصعب الوصول إليهم، كما أنهم عادة ما يقررون البقاء فى منازلهم فى نوفمبر. فأقل من ٤٠ بالمائة من مجموع الأمريكيين الذين لهم حق الانتخاب يتقدمون لصناديق الاقتراع فى الانتخابات التكميلية، بينما يتقدم أكثر قليلا من النصف إلى الانتخابات الرئاسية.

وبالنسبة لـ «جرينبرج»

فإن الرؤساء الأمريكيين يتم اختيارهم بواسطة الحملات التسويقية. فهناك الملايين من الزبائن/الناخبين المحتملين، والتحدى هنا هو أن تتمكن من جعل المنتج/المرشح للرئاسة أكثر جاذبية من المنتج/المرشح المنافس. والحقيقة أن الناخبين كثيرون جدا ومتنوعون (أكثر من مائة مليون الآن) ولا يمكن لأسلوب واحد أن ينجح فى استقطابهم جميعا. ويقسم «جرينبرج» الناخبين إلى فئات يجب مغازلة كل منها باستراتيجية مختلفة. فهناك سبع فئات للجمهوريين، بما فى ذلك «سكان الريف»، و«سكان الضواحى الفاخرة»، و«الشباب العصاميون المتزوجون غير الجامعيين». ولديه أيضا ست مجموعات للديمقراطيين، مثل «النساء ذوات التعليم الممتاز» و«المحاربين العلمانيين» (الذين لا يذهبون أبدا إلى الكنيسة ولا يحملون الأسلحة النارية) و«العائلات الاتحادية».

وكما جاء فى كتاب «أمريكتان»، فإن الجمهورى - اعتبار الحزب الديمقراطى «فعالا». فالمرشحون الديمقراطيون يترشحون على نفقتهم الخاصة بدون مساعدة تذكر من أى منظمة قومية، ويجب عليهم إعادة حشد الجماهير بأنفسهم عند كل انتخابات. وفى الوقت نفسه فإن الاعتماد على الوطنية وحدها قد يصبح مشكلة بالنسبة للجمهوريين. فعندما بدأت تسوء أحوال الحرب فى فيتنام انسحب بعض أقوى مؤيديهم خلسة من الميدان. وهناك بالفعل من الدلائل ما يشير إلى أن ذلك هو بالضبط ما يحدث الآن فى العراق.

إن كتاب «أمريكتان» يقدم نفسه ككتاب «إرشادى» حافل بالنصائح الموجهة لكلا الحزبين. وهو يفترض أنه إذا ما صيغت الرسائل الموجهة إلى جماعات بعينها بدقة فمن المرجح أن تسترعى انتباهها ويترجم ذلك إلى أصوات انتخابية. ومع ذلك فإن قلة من الناخبين يهتمون فعلا بالسياسة، وليس لديهم بالطبع أى استعداد لتحمل سماع خطب المرشحين أو دعاياتهم.

شرع «دافيد شيبلر David Shipler» فى أواخر التسعينيات التى كانت فترة ازدهار حقيقى، شرع يبحث عن العمال الذين «نسيهم الجميع»، وهو يقدم لنا العشرات ممن قابلهم، بما فى ذلك الأزواج أو الفرادى من الآباء أو الأمهات، من مختلف الأعراق والبيئات، وكذلك من المواطنين الأصليين أو من المهاجرين الجدد. هم جميعا ممن يكسبون عيشهم أو يحاولون البحث عن عمل لائق، وكلهم فى الوقت نفسه يعيشون على حد الكفاف. ومع نهاية كتاب «شيبلر» لا نجد بارقة أمل فى أن يتمكنوا يوما ما من تخطى ظروفهم القاسية ما لم يتم تطبيق برامج اجتماعية طموحة.

ليس من الضرورى أن يكون المرء من ذوى الدخل المحدود حتى يعد من بين العمال الفقراء. إن «شيبلر» لا يقدم لنا العديد من الإحصائيات، لأن الأرقام لا تلقى ضوءا على الظروف المحيطة بكل فرد. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أنه من بين حوالى مائة مليون رجل وامرأة ممن يعملون بدوام كامل فى أمريكا هناك ١٨.٦ بالمائة يقل راتبهم عن عشرين ألف دولار سنويا، وهو ما يقارب إعانة البطالة. ولكن ما لا تذكره الإحصائيات دائما هو كم منهم لديه أطفال، أو هل كلا الزوجين يعملان، أو هل غير المتزوجين يعيشون مع شركاء من نفس الجنس أم من الجنس الآخر. لقد كان باستطاعة أرباب العمل دائما العثور على من يقبلون أجورا أقل نتيجة لأن العديد من الناس. أكثر من أى وقت مضى. أصبحوا لا يعولون سوى أنفسهم أو يعيشون مع شركاء قادرين بدورهم على الكسب. فالمستخدمون الصغار الذين نلتقيهم فى محلات «بارنس ونوبل Barnes & Noble» عادة ما يقتسمون تكاليف الحياة مع شركائهم فى السكن، بينما النساء الأكبر سنا العاملات فى «وول-مارت Wal-Mart» يكون لديهن فى العادة أزواج عاملون أو متقاعدون.

سرعان ما يتضح لنا أن أسباب الفقر لدى هؤلاء العمال ليست دائما اقتصادية. يحكى «شيبلر» عن رجل فى ولاية نيو إنجلاند يعمل بإصلاح الأسقف ويصل دخله فى الأعوام الجيدة إلى ثلاثين ألف دولار، بينما زوجته لا تعمل، ولديهما ثلاثة أطفال. وهو مضطر لقيادة سيارته خمس ساعات يوميا للذهاب للعمل والعودة منه، وهكذا يلتهم الوقود عدة مئات من الدولارات شهريا. كما نرى كلا الزوجين عاجزين تماما عن تنظيم حياته، ناهيك عن التقيد بميزانية معينة. وتتضمن أوجه الصرف الشهرية لديهم «مائتى دولار لغسيل الملابس بسبب تعطل غسالتهم، ومائتى دولار أخرى لتناول الطعام بالخارج لأن شركة الغاز قطعت عنهم إمدادات الغاز لحين دفع أربعمائة دولار قيمة فواتير متأخرة». كما أنهما يدفعان أيضا أثمان السجائر ومقابل استئجار الأفلام وشراء ملابس لحضور حفل زفاف وتذاكر لحضور الحفلات الموسيقية. وعندما يذهب أحد أفراد الأسرة إلى غرف الاستقبال بالمستشفيات للعلاج الطبى تصلهم الفواتير وتتراكم مع غيرها من المتأخرات. يقول أحد الأخصائيين الاجتماعيين لـ «شيبلر»: «يجب إجبار هذين الزوجين على طلب النصح لدى مستشار لتخطيط الميزانيات». ولكن لا وجود لمثل هذا المستشار، وليس هناك من ضمان أنهما سيعملان بنصيحته لو كان موجودا. ونجد العديد من البالغين غير قادرين - لأسباب مختلفة - على لم شتات حياتهم العائلية. ومعظم من التقاهم «شيبلر» هم من الأمهات الوحيدات اللواتى يعلن أطفالا. وبفضل ما يطلق عليه «تحرر الرجال» يمكن لأى رجل أن ينجب أطفالا ثم يختفى من حياتهم فجأة دون التعرض للوم وبقليل من الكلفة المالية فى العادة أو حتى بدون كلفة على الإطلاق (راجع كتاب «الاقتصاد الأمريكى: الدخل والثروة والفاقة The American Economy: Income, Wealth, and Want» تأليف «ستانلى ليبرجوت Stanley Lebergott»). ونتيجة لذلك يتوجب على النساء وحدهن تحمل مسئولية تربية الأطفال. وبسبب المبالغ التى اقتطعها «كلينتون Clinton» من برامج الخدمة الاجتماعية فإن عليهن الآن البحث عن عمل. ويحكى الكتاب عن امرأة كانت فى بحبوحة من العيش وكان من المقدر لأحوالها المالية الجيدة أن تدوم لو لم يفشل زواجها. ورغم أن زوجها السابق لديه دخل جيد فإنه لم يدفع لها أية نفقة، وتكفل فقط بدفع عشرة آلاف دولار سنويا كنفقة للطفلين انتهت حالما وصل أصغرهما لسن الثامنة عشرة. وحيث إن الأم لديها مواهب و لكن بدون مهارات، فقد قنعت بوظيفة فى مطبعة جامعية تدر عليها ثلاثة وعشرين ألف دولار سنويا. وبمعنى آخر فإنها قبلت بوظيفة تناسب شخصا بدون أعباء وفى مقتبل حياته العملية وليس امرأة فى منتصف العمر وتعول طفلين.



بنظرة إلى قائمة «فوربس Forbes» للمليارديرات نجد أن الفائزين فى أمريكا يصلون إلى القمة أسرع من أى بلد آخر. أما الخاسرون فيسقطون أيضا بمعدل أكبر

معظم من أدلوا بأصواتهم فى الانتخابات الرئاسية هم من ذوى الدخول العالية، وحتى لو لم يكونوا من الأغنياء، فهم ما زالوا يعتبرون أنفسهم أعضاء فى الطبقة المتوسطة المحترمة. فالقليل منهم عاطلون عن العمل أو يخشون فقدان وظائفهم. والناخبون من كلا الحزبين يشترون السيارات الرياضية متعددة الأغراض ويتناولون عشاءهم خارج المنزل ويخططون لرحلات تتكلف آلاف الدولارات. والحقيقة أن غياب أو قلة المتاعب المالية قد يفسر لماذا يأخذ الناخبون اليوم على محمل الجد قضايا عقائدية مثل الإجهاض، ناهيك عن مستنقع الحرب فى دول أجنبية. وقد تشكل أسعار الدواء مشكلة كبيرة هى الأخرى. فقد دفعت لتوى مائة دولار ثمنا لأربع عشرة كبسولة مضاد حيوى لا يشملها تأمينى الصحى. فماذا عن الملايين العديدة من العمال الأمريكيين الذين ليس لديهم أى تأمين صحى على الإطلاق؟

ويوضح كتاب «جرينبرج» أيضا إحدى الخصال التى يتمتع بها الجمهوريون. فمن بين مؤيديهم يميل الكثير من شديدى الولاء لقبول «جورج بوش» الابن كما هو. وعلى العكس من ذلك يواصل الديمقراطيون تقطيع أوصال مرشحهم كما لو أنه لم يستطع تمثيل نفسه بجدارة. ومن الصعب - مقارنة بالحزب

ويتوقف «شيبلر» متسائلا: «لماذا يتوجب على هؤلاء النسوة المكافحات أن يلدن الأطفال ويحتفظن بهم؟ فما دام إنجاب الأطفال يتطلب طرفين منذ البداية، فمن الظلم إلقاء التبعة كلها على النساء وحدهن. فى الواقع أنهن فى حالات كثيرة قد أنجبن الأطفال فى وقت كانوا يظنون فيه أن عرى الزوجية لن تنفصم. عادة ما تكون النساء فعلا المتسببات بالطلاق، ولكن ذلك لا يكون سهلا خاصة مع احتمال انخفاض الدخل نتيجة لذلك. وبعض الأرقام قد توضح الكثير. فمتوسط الدخل السنوى لـ ٩.٤ مليون عائلة تعولها أمهات وحيدات هو ٢٢.٦٣٧ دولار بما فى ذلك أى إعانات مالية من أى جهة. أما بالنسبة للعائلات

المكونة من زوجين وأطفال فيصل متوسط الدخل بالمقارنة إلى ٦٥.٣٩٩ دولارا أى ثلاثة أضعاف تقريبا. وحتى مع الأخذ فى الاعتبار مصروفات الزوجين، فيبدو أن الزواج أو أى علاقة مشابهة هو الطريق الأفضل لدرء الفقر. وأى شخص يتفحص الإحصائيات يود لو كانت هناك وسيلة لإبقاء الزوجين معا، ولكنى لم أر حتى الآن دلائل تذكر على أن الندوات ومكاتب استشارات الزواج قد حققت سوى نجاحات هامشية.

أمريكا هى غالبا أكثر مجتمع تنافسى شهده العالم، والمنافسة جزء لا يتجزأ من نظامها الاجتماعى. حتى الأطفال يُنشأون ليتنافسوا فيما بينهم، وذلك بدءا من أول نجمة ذهبية توزع عليهم فى رياض الأطفال

يحمل أحد فصول كتاب «العمال الفقراء» عنوان «حصاد العار» وفصل آخر يحمل عنوان «استيراد العالم الثالث»، وكلا الفصلين يشير إلى أن الأجور المتدنية تعتبر ملائمة تماما للمهاجرين سواء كانوا شرعيين أم لا، وخاصة الجدد منهم. فعلى سبيل المثال يتحصل الزوجان «هيكتور وماريبل ديلجادو» معا على قرابة ثمانية وعشرين ألف دولار سنويا مقابل عملهم فى جنى وتعبئة الخضروات فى ولاية كارولينا الشمالية. وبفضل أجرهما المتدنى فنحن ندفع أقل مما كان يتوجب علينا دفعه ثمنا لـ «الخيار» و«البطاطا الحلوة». وهناك أيضا «جانج هى لى» التى كانت فى السابق أمينة صندوق فى بنك بكوريا، وهى الآن تعمل نادلة على الطاولات ستة ليال فى الأسبوع وتجنى أقل من تسعة عشر ألف دولار سنويا. وذلك أيضا يجعل أسعار الوجبات التى تقدمها منخفضة.

وتبرز هنا قضية شائكة: ما هى التزامات المجتمع تجاه المهاجرين الجدد؟ إن معظمهم يصل إلى هنا وهم يتوقعون أجورا منخفضة، بل أنهم يتوقون للعثور على مثل هذه الوظائف. وبالطبع يمكن، كما يشرح «شيبلر»، أن يساء استغلال هؤلاء بدرجة كبيرة فى ظروف عمل بائسة بكل المقاييس. ومع ذلك فإن أمريكا - أكثر من معظم الدول الأخرى - توفر للوافدين الجدد فرصا للتقدم والاندماج. ولا يفارقنى الإحساس والأمل بأن «جانج هى لى» لن تبقى طويلا فى عملها الحالى كنادلة. فهى حصلت - مثلها فى ذلك مثل كثير من المهاجرين الآسيويين - على تعليم أساسى نظامى، ومن المؤكد أنها اكتسبت بعض الخبرات المطلوبة من واقع عملها السابق فى بنك. والآسيويون الذين ينتقلون من المجمعات السكنية الحقيرة المزدحمة إلى المنازل الفسيحة فى الضواحى ليسوا استثناء من النمط العام. ولكن ماذا عن مهاجرين مثل عائلة «ديلجادو»؟ لم يكونوا أمناء صناديق بالبنوك، وهم - حسب قول «شيبلر» - ليسوا متمرسين بـ «أساليب العالم الكبير». ومع ذلك فأرقام الإحصائيات تطرح قصة مختلفة. فلقد تضاعف عدد العائلات الأسبانية فى ولاية كارولينا الشمالية أكثر من أربع مرات بين عامى ١٩٩٠ و ٢٠٠٠، قافزا من ٢١.٥٣٣ إلى ٩٣.٤٩٩ نسمة، مما يشير إلى قدوم العديد من المهاجرين الجدد. وعلى ذلك فمن الممكن أن كثيرا ممن كانوا هناك عام ١٩٩٠ لم يعودوا يجنون الخضروات ويعبئونها ضمن طابور المهاجرين. وقد كشف إحصاء عام ٢٠٠٠ فعلا عن أن ٦.٣٨ بالمائة من العائلات الأسبانية بالولاية قد زاد دخلها السنوى عن أربعين ألف دولار، مما يشير - على الأقل - إلى أن أوضاع الكثيرين منهم كانت تتحسن. ولذلك فإنى أقترح على «شيبلر» أن يحاول العودة بعد عدة سنوات ليرى أحوال عائلة «ديلجادو» (وقد يستفيد «صامويل هانتنجتون» أيضا من القيام بزيارة).

ويعترف «شيبلر» فى مقدمة كتابه أن «الولايات المتحدة غير متأكدة من الأسباب الحقيقية للفقر»، والحقيقة أن كتابه يشير إلى العديد من العوامل مثل التصدع والعجز من النوع الذى وصفه فى حكاية مصلح الأسقف من كونيكتيكت. ومع ذلك فإن أمريكا هى غالبا أكثر مجتمع تنافسى شهده العالم، والمنافسة جزء لا يتجزأ من نظامها الاجتماعى. حتى الأطفال يُنشأون ليتنافسوا فيما بينهم، وذلك بدءا من أول نجمة ذهبية توزع عليهم فى رياض الأطفال. وبنظرة إلى قائمة «فوربس Forbes» للمليارديرات نجد أن الفائزين هنا فى أمريكا يصلون إلى القمة أسرع من أى بلد آخر. أما الخاسرون فيسقطون أيضا بمعدل أكبر من الدول التى تتشابه أساليبها فى الحياة معنا، وذلك نراه فى معدلات وفيات الأطفال وأمية المتعلمين واحتمالات قضاء جزء من العمر بالسجن. ومن مزايا الفقر أنه جرس إنذار ينبه الباقين منا إلى محاولة إقناع أنفسنا أننا لن نكون أبدا جزءا من طبعة منقحة لكتاب «شيبلر». ■

المشروع الزنجى.. خطة

لم يكن السؤال حول من هو الأمريكى؟
أو من يحق له أن يكون كذلك
غائبا عن التاريخ الأمريكى بطوله. ولم يكن
صمويل هانتنجتون فى كتابه الأخير
أول من طرح القضية



«... قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ. البَرَكَةَ وَاللعْنَةَ. فَاخْتَرِ الحَيَاةَ لِتَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ». (سفر التثنية ٣٠:١٩)

فى يوم مشمس ومنعش من أيام فصل الخريف أثناء الاحتفال بيوم كولومبوس عام ١٩٩٩، اقترب منظمو مسيرة «قوة القرار» من سلّم المحكمة الأمريكية العليا، وأوقف المتظاهرون الذين كانوا فى الغالب من القساوسة السود والعامة مظاهرتهم التى دامت ثلاثة أيام عند نُصُبين تذكاريين هما مدرسة «براون ضد مجلس التعليم» المناهضة للتمييز العرقى (١٩٥٤) و«أنثى ضد الإخصاب» المؤيدة للإجهاض (١٩٧٣). تركزت أهمية هذين النصبين - الأول يتعلق بالمساواة فى الحقوق لكل الأمريكيين والثانى بـ «حقوق» الإجهاض - فى إعلان القس جونى م. هنتر وهو راعى المظاهرة والمدير القومى لشبكة حق الحياة والتعليم والموارد (LEARN) وهى أكبر منظمات السود المؤيدة لحق الحياة حيث إنه «ليس للحقوق المدنية معنى يُذكر بدون الحق فى الحياة!».

جاء احتجاج هنتر وغيره من المتظاهرين على النسبة العالية وغير المتكافئة من حالات الإجهاض بين جماعات السود، فهذه النسبة العالية ليست من قبيل الصدفة. أما الأمر الذى لم يكن كثير من الأمريكيين من السود والبيض على السواء يدركونه فهو مشروع مارجريت سانجر لتنظيم الإنجاب بين الزنوج. دشنت سانجر هذا المشروع عام ١٩٣٩ بعد أن غيرت المنظمة اسمها من الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل (ABCL) إلى اتحاد أمريكا لتنظيم النسل (BCFA).

كان الهدف من هذا البرنامج هو الحد من النمو السكانى للسود بل يرى الكثيرون أن الهدف هو القضاء على هؤلاء السكان تماماً. عمدت سانجر إلى تنفيذ خطتها بمهارة تحت دعوى «الصحة الأفضل» و«تنظيم الأسرة». ومما يثير الدهشة أكثر خداع سانجر وتضليلها للنخبة السوداء فى أمريكا - وهى النخبة ذات النفوذ والمتمتعة بقسط وافر من التعليم والثراء - لحملهم على تنفيذ خطتها؛ فكان من بين أوساط النخبة السوداء من يؤمن بتنظيم النسل كوسيلة للوصول للتمكين الاقتصادى والرفع من مستوى السود واكتساب احترام البيض. لقد ترك هذا المشروع الزنجى آثاراً

من:
Concerned Women for America - www.cwfa.org

ترجمة علاء الدين محمود

القضاء على الأمريكان السود

تانيا ل. جرين

عميقة فى مجتمع السود، وهو ما عبر عنه هنتر بهتافه فى مسيرة «قوة القرار» قائلاً: «لقد أصبحنا ضحايا التطهير العرقى بأيدينا».

انحازت مارجريت سانجر إلى صف العلماء اليوجينيين الذين سادت أيديولوجيتهم فى أوائل القرن العشرين. يؤيد هؤلاء العلماء فكرة التفوق و«النقاء» العرقى بشدة لاسيما العرق «الآرى»، كما كانوا يأملون فى تنقية روابط الدم وتحسين العرق بتشجيع «الأصلح» على الإنجاب ووضع القيود على نسل «غير الصالح»، والسعى لاحتواء العناصر أو الأعراق «الأدنى» عن طريق العزل العرقى والتعقيم وتنظيم النسل والإجهاض.

وقد اعتنقت سانجر «يوجينيا مالتوس». وكان توماس روبرت مالتوس الذى عمل كاهناً وأستاذاً فى الاقتصاد السياسى فى القرن التاسع عشر يؤمن بأن قنبلة السكان الموقوتة تهدد وجود الجنس البشرى. نظر مالتوس إلى المشكلات الاجتماعية كالفقر والحرمان والجوع كدليل على هذه «الأزمة السكانية». ووفقاً للكاتب جورج جرانت، أدان مالتوس الأعمال الخيرية وغيرها من صور الإحسان لأنها حسب رأى الأخير لا تزيد إلا من حدة المشكلات. وكان الحل من وجهة نظره يكمن فى وضع حد للنمو السكانى لفئات معينة من البشر، وأصبحت نظرياته عن النمو السكانى والاستقرار الاقتصادى أساس السياسة الاجتماعية قومياً ودولياً. ويستشهد جرانت بواحد من أهم أعمال مالتوس وهو «بحث فى مبدأ السكان»، الذى نُشرَ فى ست طبعات من عام ١٧٩٨ إلى ١٨٢٦، يقول فيه:

لابد أن يهلك بالضرورة كل المواليد الذين تزيد أعدادهم عن الحد المطلوب لوصول السكان إلى المستوى المرغوب فيه مالم يتوفر لهم مكان بوفاة البالغين. ينبغى علينا العمل على تسهيل عمليات الطبيعة فى الوصول إلى هذا العدد من الوفيات بدلاً من المحاولات الحمقاء والبائسة للحد منها.

ويعتقد تلامذة مالتوس بأن بقاء الحضارة الغربية رهنٌ بقمع وعزل بل وأحياناً التخلص من المعاقين أو غير المؤهلين جسدياً و«الفقراء مادياً، والمرضى نفسياً أو روحياً و«الأدنى عرقياً»، وغير الأكفاء عقلياً. كما أحس هؤلاء التلامذة أن مناهج التعليم الأكثر «علمية» ودقة و«منع الحمل والتعقيم والإجهاض» ما هى إلا وسائل أكثر «عملية وقبولاً» للتخفيف من ضغوط ما يطلق عليه اسم الانفجار السكانى.

ويرى نقاد مالتوس أن تلك الجماعة «أنتجت مجموعة من مفردات لغة جديدة مبهمة بشكل مقصود: فجميعها مفردات واقعية وعلمية وقاسية»، بالإضافة إلى أن الحقائق التاريخية أثبتت عدم دقة نظرية مالتوس الحسابية بخصوص الانفجار السكانى، رغم أن الكثيرين لا يزالون يؤمنون بها.

ورغم فساد دعاوى مالتوس بشأن الانفجار السكانى، فإن سانجر تعمقت فى يوجينيا مالتوس، وكتب جرانت أنها دَعَت إلى تنظيم النسل مستعينة بالحجة «المؤكدة علمياً» من تهديد الفقر والمرض والتوتر العرقى والانفجار السكانى كخلفية لحجتها. وظلت مجلة سانجر «دورية تنظيم النسل» (التى تأسست عام ١٩١٧) تنشر بانتظام مقالات مؤيدة للتطهير الجينى كتبها يوجينيون من أمثال إرنست رودن. ورغم توقف سانجر عن إصدار «دورية تنظيم النسل» عام ١٩٢٩، فإن الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل ظلت تستعين بها كمنبر للأفكار اليوجينية.

أسست سانجر الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل وأخيراً منظمة تنظيم الإنجاب على أساس أفكار الحركة اليوجينية ومواردها. ويردف جرانت قائلاً إن «كل أعضاء مجلس إدارة المنظمة كانوا من اليوجينيين». ومول اليوجينيون المشروعات الأولى للمنظمة بدءاً من فتح عيادات لتنظيم النسل إلى نشر المطبوعات «الثورية».

عمل اليوجينيون كمتحدثين فى المؤتمرات أو أدباء أو مقدمى خدمات «بلا استثناء تقريباً»، واحتضنت مكاتب جمعية اليوجينيين العمل الدولى لبرنامج تنظيم الإنجاب منذ البداية، وتضافرت جهود المنظمتين لعدة سنوات.

أصبحت الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل هيئة قانونية يوم ٢٢ إبريل ١٩٢٢ فى نيويورك. وقبل ذلك، أدارت سانجر عيادة لتنظيم النسل بشكل غير قانونى فى أكتوبر ١٩١٦ فى قسم براونزفيل بحى بروكلين فى نيويورك، وأُغلقت تلك العيادة فى النهاية. كانت هذه العيادة تخدم المهاجرين الفقراء الذين اكتظت بهم المنطقة - أى أولئك الذين اعتبروا «غير صالحين أو مؤهلين» للإنجاب.

وتعكس كتابات سانجر الأولى تأثير مالتوس بوضوح، فقد كتبت:

ليست الأعمال الخيرية المنظمة فى حد ذاتها إلا عَرَضاً لمرض اجتماعى خبيث: فتلك المنظمات الضخمة والمعقدة والمتشابكة فيما بينها الهادفة إلى الحد من البؤس والعَوَز وكل الشرور النابعة من هذه التربة المُخصِبة بالفساد لهى أكبر دليل على أن حضارتنا أفرزت ولا تزال تفرز بل وتعمل بشكل مستمر على زيادة أعداد المختلين عقلياً والمنحرفين ومن هم عالة على غيرهم.

وفى فقرة أخرى، تصف سانجر عبء «النفايات البشرية» على المجتمع:

فهى (أى الأعمال الخيرية) تشجع القطاعات الأكثر صحة ومثالية فى العالم على تحمل عبء رغبات الآخرين التى لا يحكمها تفكير أو تمييز مما يؤدى إلى حمل ثقيل من النفايات البشرية. فبدلاً من أن تقوم الأعمال الخيرية بتقليل الفئات الأشد ضرراً على مستقبل الجنس البشرى والعالم والعمل على التخلص منها، فإنها تجعلها مسيطرة بصورة تنذر بالخطر.

وختمت سانجر كلامها بالقول بأن:

أخطر تهمة يمكن أن توجه إلى وجوه العمل «الخيرى» فى العصر الحديث هى تشجيعه على استمرار المختلين عقلياً والمنحرفين ومن هم عالة على غيرهم. هؤلاء من أخطر العناصر على أمن المجتمع العالمى، وأشد نقمة على التقدم والتعبير الإنسانى.

وطبعت الدورية مقتطفاً من كلمة ألقتها سانجر عام ١٩٢٦ حيث تقول:

لم يبقَ أمام الحكومة الأمريكية الآن سوى أن تضرب مثلاً حياً للعالم بمنح مكافأة أو معاش سنوى للزوجين اللذين يتضح عدم صلاحيتهما للإنجاب ويقرران أن يعقما أنفسهما باستخدام الوسائل العلمية وغير الضارة. وبتلك الطريقة لن يكون للأغبياء والمرضى نسلٌ يورثونه تعاستهم وشقاءهم. سيقل عدد البلهاء ومن ثَم يرفع عبء ثقيل عن كاهل الصالحين للإنجاب.

وأضافت أن «المكافأة المالية، ستكون «عقلانية ومفيدة، كما أنها طريق «الخلاص للحضارة الأمريكية». عرضت سانجر أفكارها على مستر س. هارولد سميث (من صحيفة «نيويورك إيفننج وورلد») بخصوص «لجنة الرفاه» بنيويورك، وقالت إنه «لابد من مساعدة الآخرين حتى يستطيعوا مساعدة أنفسهم»: فأى خطة أو برنامج يجعل من هؤلاء الناس «عالة على الإعانات الحكومية والصدقات والأعمال الخيرية، هو برنامج «مقيد للحريات والمسئوليات، وبالتالى لن يكون له «أى قيمة دائمة». وضمنت سانجر بحثاً (وهو ما اسمته «برنامج الرفاه العام») بعنوان «لابد أن نربى عرقاً من الطراز الأول».

طرحت سانجر فى هذا البحث رأيها بضرورة إنشاء عيادات أو مكاتب تنظيم النسل «حيث يتعلم الرجال والنساء علم الإنجاب وعلم تربية الأطفال»، لأن ذلك هو الطريق «لتخليص العرق من آفات الأمراض المعدية والخلل العقلى والفقر ومخالفة القانون والجريمة... نظراً لتناقص أعداد هذه الفئات من البشر بدلاً من توالدها ونموها كالأعشاب الضارة».

ودعا ذلك البرنامج النساء إلى العمل على استشارة تنظيم النسل فى الحالات والمواقف المختلفة التى تتضمن ما يلى:

- إصابة الرجل أو المرأة بمرض «معدٍ» مثل الجنون والبله والصرع والزهرى، الخ.
- ألا يكون الأطفال المواليد «أسوياء» أو فى حالة إصابتهم «بالبله».
- ألا يكون دخل الأب «كافياً... لأن يعول أطفالاً آخرين».

وذكرت سانجر أن «هذه الخطة من شأنها... أن تقلل معدل المواليد بين المرضى والضعفاء والطبقات شديدة الفقر والمناهضة للنظام الاجتماعى القائم وتلك العناصر العاجزة عن التكفل بنفسها، وبالتالى ذلك العبء الذى نضطر جميعاً لتحمله». لقد اعتنقت سانجر يوجينيا مالتوس علانية ودون موارية، تلك العقيدة التى شكلت سلوكها فى السنوات القادمة.

عيادة هارلم

فى عام ١٩٢٩، وقبل عشر سنوات من تأسيس سانجر لمشروعها الزنجى، وضعت الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل حَجر الأساس لإنشاء عيادة فى هارلم، وهو حى بمدينة نيويورك معظم ساكنيه من السود. كان ذلك فى بداية الكساد العظيم الذى كان يعنى مضاعفة البؤس والمعاناة بالنسبة للسود. واجه السود ظروفاً من الكساد الاقتصادى والحرمان أكثر قسوة نظراً لسيادة التمييز العنصرى. ووفقاً لرؤية الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل، شكل حى هارلم البيئة المثالية لهذه «العيادة التجريبية»، التى افتتحت رسمياً فى ٢١ نوفمبر عام ١٩٣٠. وسعى الكثير من السود إلى الهرب من ظروفهم الصعبة وبالتالى لم يدركوا الهدف اليوجينى الخفى من العيادة. اعتمدت العيادة على ما تغدقه عليها المؤسسات الخاصة من أموال لتظل قائمة. بالإضافة إلى اعتبار السود العرق «الأدنى» الذى لا تمثله الطبقة الدنيا بشكل مناسب،



يعتقد تلامذة مالتوس بأن بقاء الحضارة الغربية رهنٌ بقمع وعزل بل وأحياناً التخلص من المعاقين أو غير المؤهلين جسديا و«الفقراء مادياً» والمرضى نفسياً أو روحيا و«الأدنى عرقياً» وغير الأكفاء عقلياً

اتصف السود فى هارلم وفقاً لملفات العيادة المستخدمة لتبرير «عملها» بأنهم:

- معزولون فى منطقة مكتظة بالسكان (٢٢٤.٧٦٠ من ٣٣٠.٠٠٠ من سكان نيويورك من السود كانوا يعيشون فى هارلم فى أواخر العشرينيات والثلاثينيات).
- يشكلون نسبة ١٢٪ من عدد السكان بمدينة نيويورك، إلا أنهم يمثلون ١٨.٤٪ من نسبة البطالة فى مدينة نيويورك.
- يصل معدل وفيات المواليد بينهم إلى ١٠١ حالة لكل ١٠٠٠ حالة ولادة مقارنة بـ ٥٦ حالة لكل ١٠٠٠ حالة ولادة بين البيض.
- يصل معدل الوفاة بينهم بسبب مرض السلِ إلى ٢٣٧ حالة لكل ١٠٠.٠٠٠ نسمة، وسجّل أعلى معدل فى وسط هارلم دون أى منطقة أخرى فى نيويورك.

ورغم أن العيادة كانت تخدم البيض والسود على حد سواء، فإنها «تأسست لصالح الملونين».. هذا ما كتبته سانجر فى رسالة بعثت بها إلى الدكتور دبليو. إيه. بيرجهارت دوبوا، أحد أقطاب السود فى تلك الفترة. وقد عمل الكاتب وعالم الاجتماع دوبوا على تأسيس الاتحاد الوطنى لتقدم الملونين (NAACP) عام ١٩٠٩ لتحسين الظروف المعيشية للأمريكان السود.

ويبدو أن معاناة السود من التمييز والتفرقة بشكل مفرط بما أسهم كثيراً فى محنتهم جاء ليدعم مبرر الحد من نموهم السكانى، ورأى الكثيرون أن الحل يكمن فى تقليل الإنجاب، كما ألمحت سانجر إلى أن حل مشكلتى الفقر والانحطاط يتمثل فى أعداد أقل من السود حيث أقنعت جماعات السود المدنية بهارلم «بفوائد» تنظيم النسل تحت عباءة برنامجى «الصحة الأفضل» (أى الحد من وفيات الأمهات والمواليد وأخذ الوقت الكافى بين إنجاب طفل وآخر) و«تنظيم الأسرة»، وتمكنت سانجر - بالتعاون مع تلك الجماعات وبدعم من صحيفة «أمستردام نيوز» (وهى صحيفة مهمة من صحف السود) - من تأسيس فرع هارلم التابع لمكتب بحوث عيادة تنظيم النسل، وأكدت الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل لمجتمع السود أن تنظيم النسل هو الحل لمحنتهم.

استخدمت سانجر بمهارة فائقة نفوذ السود البارزين فى المجتمع لتوصيل هذه الرسالة إلى الجماهير؛ فقد دعت دوبوا وعدداً من أقطاب مجتمع السود فى هارلم من الأطباء والاخصائيين الاجتماعيين ورجال الدين والصحفيين لتشكيل مجلس استشارى مهمته المساهمة فى توجيه العيادة «حتى يكون العمل فى حقل تنظيم النسل قوة بناءة فى المجتمع». كما أنها كانت على دراية بأهمية وجود المتخصصين من السود فى كلٍ من المجلس الاستشارى والعيادة؛ وذلك لعلمها بأن السود سيشكون بطبيعة الحال فى رغبة البيض فى تقليل عددهم، كما عملت لاحقاً على الاستفادة من هذه المعرفة لتنفيذ مشروعها الزنجى.

بلغت قوة حجة سانجر فى إقناع المجتمع درجة جعلت الكنيسة المعمدانية الأرثوذكسية - وهى أكبر كنائس هارلم - تعقد اجتماعاً فى القداس تتحدث فيه سانجر، إلا أن هذا الاجتماع قوبل بالنقد حيث قام «أحد كبار رجال الدين الذى ينتمى لطائفة أخرى غير المعمدانية»على الأقل بانتقاد سانجر. وتلقى الدكتور آدم كلايتون باول الأب كاهن الكنيسة المعمدانية الأرثوذكسية «نقداً لاذعاً» من قبل ذلك القس (المجهول) الذى «اندهش لسماح الأول باستضافة تلك المرأة البغيضة فى كنيسته».

تنظيم النسل هو الحل

فتحت عيادة هارلم وما تبعها من مناظرة تنظيم النسل آفاق الحوار بين السود حول الوسيلة المثلى لتحسين وضعهم المتردى. فنظر البعض إلى تنظيم النسل كحلٍ عملى قابلٍ للتطبيق، لذا تعنى النسبة العالية من الإنجاب وفقاً لهؤلاء المزيد من الفقر والانحطاط، بينما بدا آخرون شغوفين بالتغيير فى تقبل «منطق» تنظيم النسل، واعتنق القليل فكرة اليوجينيا. وفى عدد شهر يونيو لعام ١٩٣٢ من «دورية تنظيم النسل» المسمى «بالعدد الزنجى»، نُشرت سلسلة من المقالات كتبها عدد من السود حول «فضائل» تنظيم النسل.

وطرح رئيس تحرير العدد المذكور السؤال التالى: «هل ما يريدونه هو الكم أم الكيف بالنسبة لأطفالهم؟ هل يأتون بالأطفال إلى العالم ليجعلوا أصحاب الأعمال والأطباء أكثر ثراء ويوفروا فرص عمل للإخصائيين الاجتماعيين وموظفى السجون، أم أنهم ينجبون أطفالاً ليكونوا دعامة للمجتمع الأمريكى؟»، وجاءت الإجابة أن «معظم)السود(لاسيما النساء سيختارون الكيف... لو عرفوا الطريق إليه».

أشار دوبوا فى مقاله «السود وتنظيم النسل» إلى «صراع المُثُل الحتمى بين هؤلاء الزنوج الساعين إلى تحسين وضعهم الاقتصادى وأولئك الذين يرون من خلال إيمانهم بالدين أن تحديد عدد الأطفال خطيئة». وانتقد دوبوا «جموع الزنوج الجَهلة» الذين يسعون إلى إنجاب الأطفال «بلا مبالاة وبشكل ينذر بكارثة حيث أصبحت هذه الزيادة فى أعدادهم.... تتمثل فى ذلك القسم من السكان الأقل ذكاءً وصلاحيةً للإنجاب، بل والأقل قدرة على تربية الأطفال بشكل صحيح».

نادى دوبوا «باتجاه أكثر ليبرالية» بين كنائس السود، وذكر أنها مفتوحة أمام «الدعاية الذكية من أى نوع»، كما أن على الجمعية الأمريكية لتنظيم النسل وغيرها من الجمعيات إعداد المتحدثين باسمها فى المحافل الكنسية ونشر آرائهم فى صحف الزنوج.

وكتب تشارلز إس. جونسون - وهو أول رئيس زنجى لجامعة فيسك - أن «التفرقة اليوجينية» ضرورية بالنسبة للسود، كما قال إن المعدلات المرتفعة من وفيات الأمهات والمواليد إلى جانب الأمراض كالسل والتيفود والملاريا والأمراض التناسلية المعدية جعلت من إعالة الأسر كبيرة العدد لنفسها أمراً صعباً، وأضاف أن «وضع الزنوج كعمال مهمشين، واقتصارهم على قطاعات الصناعة الأقل أجراً، وضرورة عمالة الأمهات والأطفال لتحسين ميزانيتهم الهزيلة كلها عوامل لا تؤكد على الحاجة إلى تخفيف العبء عن أنفسهم فحسب بل وعن المجتمع الذى يضطر لتوفير الدعم الإضافى لهم على شكل إعانات». عمل جونسون فيما بعد فى المجلس الاستشارى القومى لاتحاد أمريكا لتنظيم النسل الذى أصبح جزءاً لا يتجزأ من المشروع الزنجى.

ووصف الكاتب والتر آيه. تيرينينج إنجاب طفل زنجى فى عالم من الكراهية بأنه أمر «مثير للشفقة»، وكتب فى مقاله «أطفال الرب» قائلاً:

إن ولادة طفل ملوّن ولو كان أبواه قادرين على رعايته بالشكل الكافى أمر مثير للشفقة بسبب المعاملة البعيدة عن مبادئ المسيحية والديموقراطية التى يحتمل أن يتعرض لها على يد الأغلبية من مجتمع البيض، ولا يمكن وصف انعدام اختيار الإنجاب لدى هذه الطبقة من البؤساء بأقل من أنه شىء بربرى.

نظر تيرينينج إلى تنظيم النسل بالنسبة للسود باعتباره «الظرف الأكثر إنسانية، و«الأكثر يوجينية» مما هو الحال بين البيض، وأحس بضرورة نشر معلومات تنظيم النسل أولاً بين السود أكثر من نشرها فى أوساط الطبقة العليا البيضاء. لكن تيرينينج أخفق فى ملاحظة التوجهات الإشكالية وسلوك المجتمع وكيف عملت كل منها على قهر السود، كما أنه لم يقترح أية حلول لرفع الظلم والعنصرية البغيضة التى يعانى منها السود.

ومن المحزن أن تتحقق نبوءة دوبوا حينما قال إن كنائس السود «ستفتح أبوابها أمام الدعاية الذكية»، وتمثل ذلك فى دعوة القسس من السود لسانجر للحديث أثناء اجتماعاتهم المستقلة. كما عُنيت بعض المطبوعات الخاصة بالسود مثل «الأفرو الأمريكى» و«شيكاغو ديفندر» بكتاباتها. وبدلاً من التعرض للأسباب الجوهرية لوفيات الأمهات والمواليد وتفشى الأمراض والفقر والبطالة وغيرها من الأدواء الاجتماعية الأخرى - ليس أقل

منها العنصرية - فإن سانجر اهتمت بتأييد تنظيم النسل. وكان الكثيرون يرون أن من الأفضل للزنجي ألا يولد أصلاً بدلاً من معاناة هذه الحياة القاسية.

وفي هذا السياق، فَتَنَتْ سانجر أبرز زعماء مجتمع السود بخطتها حتى حملتهم على قبولها رغم ما تنطوي عليه من ضرر لهؤلاء القادة. روّجت سانجر لبضاعتها الملفوفة في صناديق أنيقة مكتوب عليها «الصحة الأفضل» و«تنظيم الأسرة». ولا يمكننا بطبيعة الحال إنكار فوائد الصحة الأفضل والمقدرة المالية على تربية الأطفال أو أخذ الوقت الكافي بين إنجاب طفل وآخر، إلا أن حل المشكلات الحقيقية التي تواجه السود لا يكمن في تقليل أعدادهم، بل في مواجهة قوى المجتمع التي تقف حجر عثرة في طريق تقدمهم. ولعل الأهم من ذلك كله ضرورة الانتباه إلى دافع سانجر وراء تأييدها لتنظيم النسل في المجتمع، مع العلم أنه ليس دافعاً نابعاً عن حب الآخرين.

صحة أفضل

لثلاثة عشر مليون نسمة

تمثلت الدعاية للمشروع الزنجي في القول بأن تنظيم النسل يعني صحة أفضل. وبناء على هذه المقدمة، صمم اتحاد أمريكا لتنظيم النسل «برنامجي مسيرات للمشروع الزنجي في الجنوب» لبيان «مدى قدرة تنظيم النسل الخاضع للإشراف الطبي بتكامله مع خدمات الصحة العامة القائمة على تحسين الرفاه العامة للزنوج وتأسيس برنامج توعية لهم في جميع أنحاء الولايات المتحدة».

افتتح اتحاد أمريكا لتنظيم النسل أول عيادة بمركز بيت لحم في مدينة ناشفيل بولاية تينيسي الأمريكية (التي لا يشكل السود فيها سوى ٢٥٪ فقط من عدد السكان) في ١٣ فبراير ١٩٤٠، ولهذا الموقع أهميته خاصةً لقربه من كلية ميهاري الطبية التي دربت أكثر من ٥٠٪ من الأطباء السود في الولايات المتحدة.

كشف تحليل جماعة ناشفيل للدخل أن «دخل أي أسرة - مهما كان حجمها - لا يزيد على ١٥ دولاراً في الأسبوع». ومن الجلي أن الخدمة وصلت إلى فئة الدخل التي صُممت تلك الخدمة من أجلها، مما يشير إلى هدف المشروع. ذكر التقرير أنه ألقى «الضوء على الأمراض الخطيرة وإمكانية معالجتها و... أن ٥٥٪ (٣٥٤ من ٦٣٨) من المرضى الذين عولجوا باستخدام وسائل تنظيم النسل قد استخدموها بشكل دائم وبنجاح». إلا أن ذلك التقرير لم «يذكر أية أرقام محددة... لبيان مدى استفادة المجتمع».

وافتتح اتحاد أمريكا لتنظيم النسل العيادة الثانية في مقاطعة بركلي الريفية بولاية ساوث كارولينا تحت إشراف دكتور روبرت إيه. سيبلز، رئيس لجنة رعاية الأمومة في اتحاد ساوث كارولينا الطبي. وجاء اختيار اتحاد أمريكا لتنظيم النسل لهذا الموقع «نظراً للاستعداد الذي أبدته القيادات في الولاية تجاه التجربة: فساوث كارولينا هي ثاني ولاية أمريكية تجعل من تشجيع المسافة الزمنية الفاصلة بين طفل وآخر جزءاً من برنامجها للصحة العامة بعد إجراء مسح ميداني على وفيات الأمهات بالولاية أوضح أن ٢٥٪ منهن من بين النساء غير المؤهلات جسدياً للحمل». مرة أخرى تخرج لنا الرسالة التالية: تنظيم النسل - في ظل رعاية عادية قبل الولادة - قلل معدل وفيات الأطفال والأطفال.

ورغم أن ٧٠٪ من سكان مقاطعة بركلي من السود، فإن العيادة تعرضت للنقد بسبب انتماء أعضاء هذه العيادة «إلى الأغلبية الساحقة». وأكد سيبلز لكلود بارنيت أن هذا غير صحيح بقوله «ببساطة... قمنا بتقديم يد المساعدة إلى مَنْ كان لديه الرغبة في تلقي مساعدتنا، وهؤلاء غالباً من الزنوج».

وقد استطاعت سانجر بحلول عام ١٩٤٩ دفع أفضل وألمع العناصر بين السود الأمريكان للاقتناع «بفوائد» تنظيم النسل «للحفاظ على الحياة» حيث نجحت نجاحاً مبهراً في إقناع شبكة كاملة من مؤسسات السود الاجتماعية والمهنية والأكاديمية بدعم منظمة تنظيم الإنجاب اليوجينية.

ولم يكن نجاح سانجر في الخداع يعني بأي شكل من الأشكال أن السود كانوا سذجاً، فلاشك في أن السود كانوا يريدون تقليل معدل وفيات الأمهات والمواليد وتحسين الصحة في المجتمع بوجه عام؛ وبالتالي تقبلوا فكرة سانجر تماماً لأنها بدت مبشرة بالرخاء والقبول الاجتماعي، كما أنها استغلت نقاط ضعفهم وجهلهم (بأجندتها المخفاة عمداً) لمصلحتها. وبغض النظر عن تنظيم النسل، لم تقدم سانجر أية حلول طبية أو اجتماعية أخرى لما يعانونه من مشكلات. من المؤكد أن السود لم يكونوا ليقبلوا المشاركة في مشروعها بهذا الشكل إذا فطنوا إلى نواياها الحقيقية. وبالنظر إلى الدور الذي لعبته اليوجينيا في بداية حركة تنظيم النسل - واعتناق سانجر لهذه الأيديولوجية - كان من اللازم التعامل بمزيد من الحرص مع مفهوم تنظيم النسل باعتباره الحل «الوحيد» للمشكلات التي أصابت السود.

العنصرية العلمية

خطا برنامج تنظيم الإنجاب خطوات واسعة لرفض الاعتراف بأصول البرنامج اليوجينية، مُنكِراً بشدة يوجينية سانجر أو عنصريتها على الرغم من الدليل الواضح على العكس. ونظراً لتوقف سانجر عن تحرير «دورية تنظيم النسل» عام ١٩٢٩، حاولت تلك المنظمة أو البرنامج الفصل بينها وبين المقالات اليوجينية والعنصرية التي نشرت بالدورية بعد ذلك التاريخ. إلا أن ملخص إحدى الخطب التي ألقتها سانجر في عام ١٩٣٢ والذي نُشِرَ بالدورية في نفس العام كشف عن ميلها المستمر نحو اليوجينيا.

في مقالها «خطة من أجل السلام»، اقترحت سانجر على الكونجرس إنشاء إدارة خاصة لدراسة المشكلات السكانية وتعيين «برلمان سكاني». أحد أهم أهداف هذا «الكونجرس السكاني» العمل على «رفع مستوى السكان وزيادة الوعي العام لديهم»، ولن يتحقق ذلك إلا بتطبيق «سياسة صارمة ومتشددة من التعقيم والفصل الاجتماعي (بالإضافة إلى تضييق قوانين الهجرة) على تلك الفئة من السكان التي يتسم نسلها بصفات غير مرغوب فيها، أو ممن لديهم القابلية لتوريث مثل تلك الصفات إلى الأجيال القادمة». ويمكننا أن نستنتج أن سانجر بصفتها رئيساً لبرنامج تنظيم الإنجاب - حتى بعد عام ١٩٢٩ - لن تسمح بنشر أي أفكار لا تخضع لتأييدها.

يرى مؤيدو سانجر أنها لم ترغب سوى في توعية السود «بالفوائد الصحية» لتنظيم النسل، غير أنها عدت الناس الذين أرادت «توعيتهم» بين أولئك «غير المؤهلين» للإنجاب ممن ينبغي تحديد نموهم السكاني.

وقد باءت هذه التبريرات بالفشل أيضاً بسبب ما أسماه جرانت «بالعنصرية العلمية»، ويستند هذا الشكل من العنصرية إلى الجينات بدلاً من لون البشرة أو اللغة. ووفقاً لجرانت، «ليست المسألة خاصة بلون البشرة، أو لهجة اللسان، بل بنوع الجينات». وبناء على ذلك، «طالما أن السود واليهود والأمريكيين من أصل أسباني يكشفون عن «مستودع جيني ذي نوعية جيدة» - وطالما أنهم «يتصرفون ويفكرون كالبيض» - عندئذ يمكن اعتبارهم مساوين للعرق الآري. وبما أنهم «أفضل العناصر بين بني عرقهم» كما قالت مارجريت سانجر، يمكننا إذاً (اعتبارهم) مواطنين ذوي أهمية. ومن نفس المنطلق، ينبغي أيضاً على «البيض» الذين يتسمون بأي «خلل جيني» بأن يُخضعوا خصوبتهم «للسيطرة إلى جانب غيرهم من الأعراق «الأدنى وغير المرغوب فيها»».

كتب جرانت - باختصار - أن «العنصرية العلمية نوع من التفرقة العرقية مع تكافؤ الفرص». لذا فأي شخص يعاني من «خلل في مستودعه الجيني» معرضٌ للاتهام، بينما يُقبل أي شخص يملك مستودعاً جينياً واعداً بين أوساط النخبة». ولا تخفى النبرة اليوجينية على أحد، حين علّق جرانت بحق بقوله: «القاعدة الأساسية هي أن برنامج تنظيم الإنجاب نُظِّم بشكل واعٍ - إلى حد ما - لتدعيم وتعزيز التفوق الأبيض... إنه برنامج عنصري صراحةً وضمناً منذ البداية».

وصية سانجر

من المحال فصل ماضي منظمة تنظيم الإنجاب عن حاضرها: فلا تزال سياسة الأكاذيب والدعاية تتسلل إلى مجتمع السود. بل إن السم أشد فتكاً لأن منظمة تنظيم الإنجاب - إلى جانب تنظيم النسل - دعت إلى الإجهاض كحل للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي رُزِئ المجتمع بها. ففي أعقاب إنشاء تلك المنظمة فَقَد مجتمع السود وحده أكثر من ١٢ مليون نسمة، وهذا ما تعكسه سجلات المنظمة نفسها. فعلى سبيل المثال، كشف تقرير عام ١٩٩٢ أن ٢,٢٣٪ من النساء اللاتي أجهضن في الأماكن التابعة للمنظمة من السود - رغم أن السود يمثلون نسبة لا تزيد على ١٣٪ من إجمالي عدد السكان. وفي عام ١٩٩٦، ذكرت شعبة البحوث في منظمة تنظيم الإنجاب أن «السود الذين يشكلون نسبة ١٤٪ من إجمالي عدد السيدات الحوامل، يحتلون نسبة ٣١٪ من كل عدد حالات الإجهاض، بينما تبلغ تلك الحالات نسبة ٦١٪ بين البيض اللاتي يمثلن ٨١٪ من إجمالي عدد السيدات في سن الحمل».

ويذكر القس هنتر من (LEARN) أن «الإجهاض هو السفاح رقم واحد بالنسبة للسود في أمريكا، إذ أننا نفقد من شعبنا ١,٤٥٢ نسمة يومياً، وهذا ليس إلا تطهيراً عرقياً محضاً. في حين يؤكد تأثير (سانجر) وكل الآراء المتجسدة التي طرحتها منظمة تنظيم الإنجاب على مجتمع السود... على أنه لا بأس من تنظيم النسل بهدف تدمير شعبكم. وقد انطلت علينا هذه الأكاذيب وهذه الدعاية».

وصل الأمر ببعض السود بأن جعلوا «حقوق الإجهاض مرادفةً للحقوق المدنية». وعلى هذا يعبر هنتر عن أسفه: «إننا ندمر مصير ومستقبل غيرنا ممن كان لابد أن يكونوا بيننا. من يعرف كم فقدنا من الموسيقيين؟ وكم من القادة العظماء لمجتمع السود فقدنا؟ وكم من العقول العظيمة والمفكرة فقدنا في مجال الاقتصاد؟ وكم من المعلمين الأفاضل؟». ثم استشهد بمثل

من بين أكثر من مائة عيادة لتنظيم الإنجاب مقامة فى المدارس التى افتتحت فى أنحاء أمريكا فى العقد الأخير، لا تقع عيادة واحدة فى المدارس التى يمثل البيض فيها أغلبية ساحقة

افريقى قديم قائلاً: «لا أحد يعرف أى رحم يحمل زعيم القبيلة».

ولاحظ هنتر شخصياً آثار الماضى اليوجينى لمنظمة تنظيم الإنجاب على مجتمع السود اليوم حين قال: «حينما أطوف أرجاء البلاد... لا يمكننى أن أذكر سوى (أننى رأيت) عيادة إجهاض واحدة فى أحد أحياء الأغلبية البيضاء: فأغلبية عيادات الإجهاض توجد فى أحياء السود».

وأشار هنتر إلى الجدل الذى دار منذ سنتين فى ولاية لويزيانا الأمريكية بشأن العيادات الصحية فى المدارس، ولم تخفَ النبرة العنصرية على أحد أثناء ذلك الجدل، وجادل المسئولون فى منطقة باتون روج حول وضع العيادات فى المدارس الثانوية. تمتعت هذه الفكرة مبدئياً بتأييد النائبة السوداء للولاية «شارون ويستون بروم». إلا أنها أعربت فيما بعد عن قلقها بخصوص توفير العيادات لوسائل منع الحمل والاستشارة الطبية بشأن الإجهاض. أوصت بروم بضرورة «أن تشجع العيادات على التقشف والعفة». وحينما علم هنتر برغبة المسئولين فى قصر العيادات على مدارس السود فقط، دعا النائبة السوداء إلى وضع العيادات فى مدارس البيض أيضاً. ويؤكد هنتر أنه بمجرد تقدم بروم بهذا الاقتراح، «سحبت» مقترحات إنشاء العيادات فى المدارس «على الفور».

أشار جرانت إلى نفس اللعبة منذ عشرين عاماً فى كتاباته: «أثناء الثمانينيات حينما تحولت بؤرة اهتمام منظمة تنظيم الإنجاب من العيادات على مستوى المجتمع إلى العيادات المقامة فى المدارس، عادت تلك المنظمة إلى استهداف مناطق الأقليات داخل المدن»، وأضاف قائلاً: «إنه من بين أكثر من مائة عيادة مقامة فى المدارس التى افتتحت فى أنحاء البلاد فى العقد الأخير، لا تقع عيادة واحدة فى المدارس التى يمثل البيض فيها أغلبية ساحقة، ولا تجد عيادة واحدة فى مدارس أحياء الطبقة الوسطى. إنها جميعاً تتركز فى مدارس السود والأقليات العرقية».

وفى عام ١٩٨٧، رفع مجموعة من القساوسة وأولياء الأمور والمعلمين السود قضية ضد مجلس التعليم بشيكاغو. ولم يكتف هؤلاء باتهام عيادات المدارس بالمدينة بمخالفة قوانين الزنى بالولاية فحسب، بل وبممارسة التمييز والتفرقة ضد السود. ادعت القضية أن تلك العيادات ما هى إلا «جهد خبيث ومدبر سلفاً لتدمير نسيج الحياة الأسرية (بين) الآباء والأمهات السود وأبنائهم».

ذكرت إحدى الأمهات فى المجموعة أنها «صدمت» عندما رأت ابنتها بعد عودتها من المدرسة إلى البيت ومعها بعض مطبوعات منظمة تنظيم الإنجاب، وقالت: «لم أكن أدرك مدى عنصرية أولئك الناس حتى قرأت (المعلومات التى تسلمتها ابنتى فى عيادة المدرسة). إنهم أسوأ من عصابات الكلو كلاكس كلان... نظراً لبراعتهم وتطورهم. فهم يخفون تعصبهم الأعمى وراء ثوب أنيق من الإحصائيات والأبحاث الميدانية. لكن بالغوص تحت السطح قليلاً نرى أنه لا يقل قبحاً عن الفصل العنصرى (الأبارتهايد)».

وكشفت رواية أحدث عن توزيع إحدى الجهات التابعة لمنظمة تنظيم الإنجاب للواقى الذكرى على الرجال من سكان أحد أحياء السود الفقيرة فى أكرون بولاية أوهايو. وتسلم هؤلاء السكان «حقيبة متطورة» تضم بين محتوياتها مادة مكتوبة عن الوقاية من الأمراض التى تنتقل عن طريق الجنس، واختبارات أمراض النساء والحمل، وسلسلة مفاتيح تحتوى على واقٍ ذكرى أخضر فاتح وكوبون. ويمكن استبدال هذا الكوبون فى ثلاث عيادات ريفية بولاية أوهايو باثنى عشر واقياً ذكرياً وشهادة بهدية من ماكدونلدز بقيمة خمسة دولارات. وتحتوى كل هذه الأشياء على أرقام تليفونات منظمة تنظيم الإنجاب.

قد تحتج الجهة التابعة لمنظمة تنظيم الإنجاب بأنها تستهدف المناطق ذات معدلات الحمل المرتفعة، إلا أن استجابتهم تفترض سلوكاً تدميرياً من جانب الجماعة المستهدفة. ولطالما أحجمت تلك المنظمة عن تشجيع أو تعزيز العفة أو الابتعاد عن الجنس باعتباره صمام الأمان الوحيد ضد حمل المراهقين

والأمراض التى تنتقل عن طريق ممارسة الجنس، على أساس أنها وسيلة «غير واقعية».

وشنَّ القس ريتشارد ويلتش، رئيس منظمة الحياة الإنسانية فى فرَنت رويال بولاية فرجينيا «هجوماً عنيفاً» على الجهة التابعة لمنظمة تنظيم الإنجاب لاستهدافها أحياء الأقليات من محدودى الدخل بحقائب تنظيم النسل. وقال إن هذا الأمر يكشف عن «العنصرية الكامنة فى التشجيع على الإجهاض ومنع الحمل فى أحياء الأقليات بالدرجة الأولى». ثمَّ انتقد منظمة تنظيم الإنجاب بقوله: «إنها حين انبثقت عن أحلامٍ عنصرية لأمرأة مصرة على تطبيق الإجهاض ومنع الحمل على اليوجينيا والتطهير العرقى، فإنها ظلت متمسكة بنفس الاستراتيجية إلى اليوم».

التخلص من شباك الخداع:

ظل قادة السود فى صمتٍ إزاء مؤامرات مارجريت سانجر الخبيثة ضد مجتمعهم لمدة طويلة للغاية، كما وقفوا صامتين إزاء الآثار المدمرة للإجهاض فى مجتمعهم - رغم اتجاهاتهم نحو الحفاظ على الحياة. ويرى هنتر أن «أغلبية (السود) يؤيدون حق الحياة أكثر من أى شيء آخر. فالسود لم ينشأوا على قتل أطفالهم على الإطلاق، حتى فى عصر العبودية عمل السود جاهدين على التمسك بأطفالهم». بينما ذكرت لافيرن تولبرت، عضو مجلس إدارة منظمة تنظيم الإنجاب السابقة أننا «لا نعزو صمت السود إزاء هذه القضية إلى اللامبالاة، بل إلى جهلهم بالحقيقة. إن القضية هى... توعية شعبنا».

يسعى اليوم عدد متزايد من السود المؤيدين لحق الحياة إلى التخلص من شباك الخداع التى نسجتها سانجر، ويستعين هؤلاء بالحقائق لإلقاء الضوء على الأكاذيب. وليست مسيرة «قوة القرار» إلا نموذجاً واحداً لغرس بذور النشاط المؤيد لحق الحياة. بينما وضع المتظاهرون ١٤٥٢ وردة على سلَّم المحكمة - إحياء لذكرى عدد الأطفال الذين يتم إجهاضهم يومياً من السود - ذكر المتحدث دايمون أوينز: «هذا من شأنه لفت الانتباه إلى مشكلة (الإجهاض) على المستوى القومى، كما أنه يمنح الفرصة للسود للحديث مع مواطنيهم من السود الآخرين، إلا أن ذلك لن يحل كل مشكلاتنا. لكننا لن نحل مشكلاتنا الأخرى بالإجهاض».

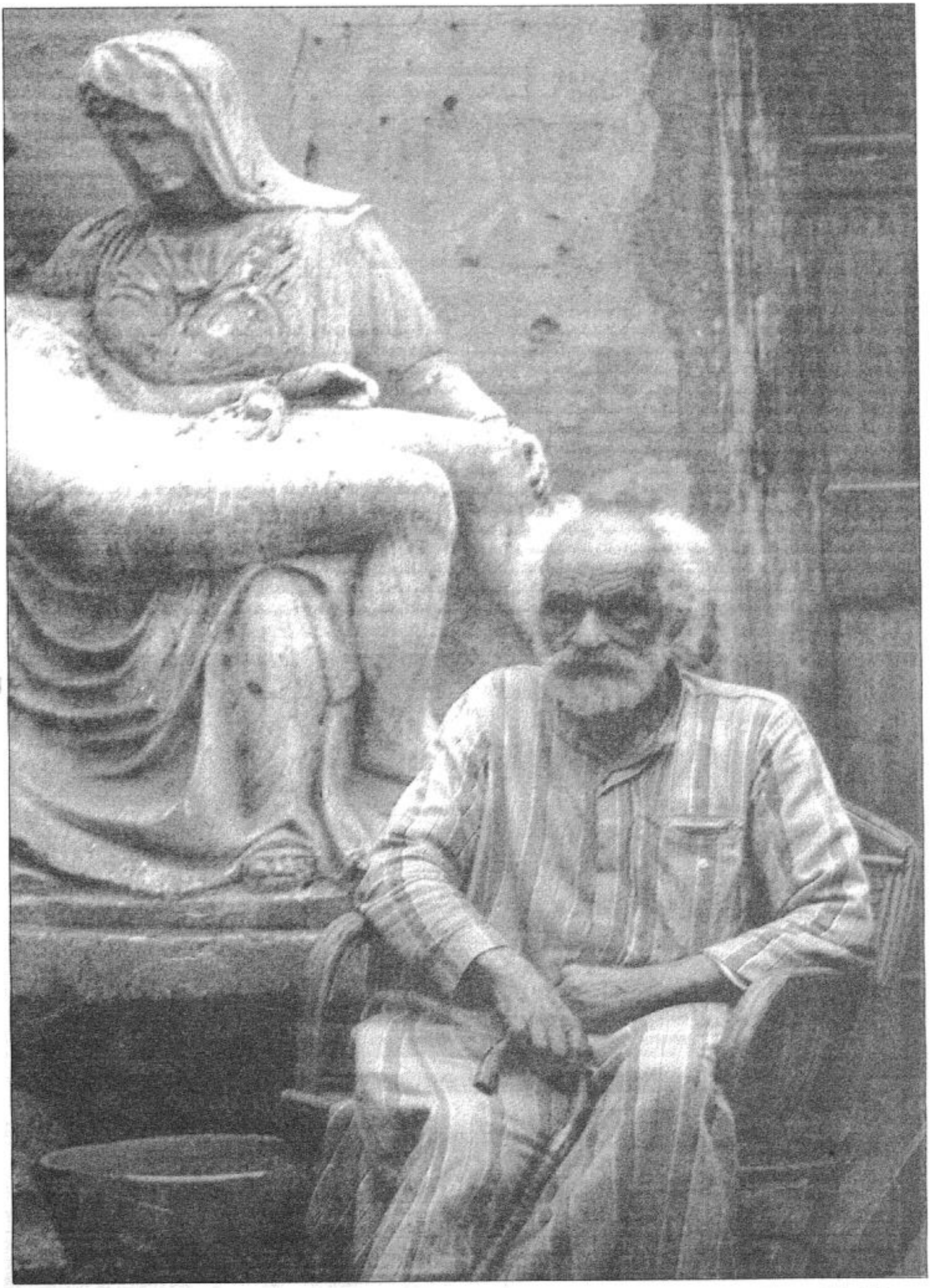
ويتصل مؤيدو حق الحياة من السود أيضاً بإخوانهم المؤدين لهذا الحق من البيض، فجماعة الأمريكان السود من أجل الحياة (BAL) جماعة رفاه اجتماعية تنتمى إلى اللجنة القومية لحق الحياة (NRLC) وهى منظمة تطوعية توجد بواشنطن C.D.. وتشجع منظمة (NRLC) على التواصل بين البيض والسود من ناشطى حق الحياة، ويؤكد إرنست أولهوف، مدير الرفاه الاجتماعية بالمنظمة قائلاً: «هدفنا هو حشد كل الناس من مختلف الأعراق والألوان والأديان للمشاركة فى قضايا حقوق الحياة. ليست جماعة الأمريكان السود من أجل الحياة جماعة مشابهة للمنظمة؛ لذا فإننا نرغب فى مساعدة الأمريكان السود على الاتصال والانخراط عملياً فى الحركة المؤيدة لحق الحياة».

نجد صدى هذا الإحساس عند السيدة بيفرلى لاهاى، مؤسِّس ورئيس جمعية نساء مهتمات من أجل أمريكا، حيث قالت: «مهمتنا هى حماية حق الحياة لكل أفراد الجنس البشرى. وترحب نساء مهتمات من أجل أمريكا بكل النساء والرجال الذين يشاركوننا الرأى، من مختلف الاتجاهات والميول، للانضمام إلينا فى هذا الكفاح».

وتتمتع نساء مهتمات من أجل أمريكا بتاريخ طويل فى محاربة الأجندة الخبيثة لمنظمة تنظيم الإنجاب، فهذا المشروع الزنجى أشبه بركنٍ مظلم، لكن لابد من إلقاء الضوء عليه. لم تَبِعْ مارجريت سانجر إلى الأمريكان السود إلا الوهم. والآن وبعد أن انقشعت غمامة الخداع، فإن بإمكان الأمريكان السود «اختيار الحياة... التى ستحياها الأجيال القادمة». ■

المشروع الزنجى..





الطباخ.. الفنان.. الضحية!

عبد البديع عبد الحى
سيرة حياة غير عادية

مصطفى الرزاز

■■ولد النحات الراحل عبد البديع عبد الحى فى ديروط . المنيا فى ٣٠ يونيو ١٩١٦ ولقى نحبه مقتولاً الثلاثاء السادس من يوليو ٢٠٠٤ وكانت حياته سيرة ذات نوعية فريدة، وقيمة تاريخية تتخطى أهميته الشخصية، إلى كونه شريحة نادرة من الطبقة الفقيرة، شق طريقًا غير اعتيادى، خروجًا عن الطريق المرسوم لحياة من مثله، حيث كان يعمل طباخًا فى مسقط رأسه عند إحدى العائلات، وقد صادفته أحداث عابرة كانت تحدث تكرارًا لمن فى مثل طبقته الاجتماعية ولكنها لم تعبر معه مثلهم، فعندما أخبره الضابط الإنجليزى المسئول عن التجنيد أنه غير لائق للجندية لأن عينيه بهما حول، استنكر فضربه الضابط بالكرباج، فخدش الكبرياء الصعيدى وأصر على قتله، ولكن تخطيطه تبدد نتيجة للاستحكامات الأمنية. وفى طريق العودة إلى السكن حصل على قرن جاموسة فنحته بسكين الطباخ على شكل صورته يصرع الضابط البريطانى وكأنه يستعيد تلقائيًا تقاليد حفر السكاكين الظرانية فى عهود ما قبل الأسرات المصرية التى تصور صاحبها منتصراً يصرع عدوه، ثم يتقدم للمتحف الحربى بالقاهرة عام ١٩٤٢ بعدد من التماثيل التى صنعها حيث يصور فيها نفسه فى ملابس جندية من أسلحة مختلفة، لقد حز فى نفسه كثيراً رفضه فى التجنيد، بعكس اتجاه أبناء جيله إلى الفكاك منه بدفع «البدلية» أو بقطع إصبعه، قبل المتحف هدية عبد البديع مما رفع من معنوياته، وعندئذ مسه هاجس الفن الذى حول حياته على النحو الذى عرفناه بها.

فى عام ١٩٤٤ يقرأ عبد البديع عن مسابقة محمود مختار التى أنشأتها الرائدة النسائية «هدى هانم شعراوى» والمسيو «بول فيس» بعنوان «ست الحسن» فيستخدم عتبة باب رخامية وقطعة مبرد قديم وشاكوش تكسير السكر فى صنع تمثال لفتاة تمشط شعرها، ليفوز بالجائزة الأولى فى المسابقة التى يشارك فيها أهم النحاتين الوطنيين، فيلفت نظر السيدة هدى شعراوى وتلحقه طباخًا فى دائرتها بملوى، وقبلت إهداءه إياها تمثال ست الحسن الفائز، ويحصل على الجائزة الأولى فى النحت فى العام التالى وعلى نفس الجائزة فى ذات المسابقة عام ١٩٤٨ بفضل تميزه فى ترويض الأحجار الصلبة وتعبيره عن الموضوعات البيئية والاجتماعية فى تماثيله.

وعندما عرضت عليه السيدة هدى شعراوى أن تمول منحته ليدرس فى إيطاليا، وعندما عرض عليه الدكتور طه حسين بعد أن تولى وزارة المعارف أن يبعث به إلى فرنسا للدراسة وزيارة المتاحف والمراسم فضل البقاء بمصر وطلب الالتحاق بمرسم الأقصر.

عندما كان فى سن السابعة والعشرين ألحقته السيدة هدى شعراوى بالقسم الحر بمدرسة الفنون الجميلة، ففاز بمنحة وجائزة مرسم الأقصر بين عامى ١٩٤٠ . ١٩٥٠ كان يعمل فى مهنة صب النماذج بينما ينحت وجوهًا مصرية وأطفالاً يلعبون، وطيورًا وحيوانات بيئية . كالبط . والقطط تصارع ثعابين تارة، وتلتهم سمكًا تارة أخرى، فضلاً عن تماثيل لشخوص فلاحية، وعارية فى أوضاع مثالية متكتلة تتبع هيئة الحجر المتاح له، وكأنها نحت بارز متعدد الأوجه، تميزت تلك المنحوتات بالواقعية وتدفق التعبير وقوة الملاحظة والحرص على الصقل التام.

فى عام ١٩٦٢ حصل على جائزة ثالثة فى معرض «الثورة فى عشر سنوات» الذى أقامته جمعية محبى الفنون الجميلة، وفى عام ١٩٧٢ حصل على جائزة الدولة التشجيعية للفنون، ووسام العلوم والفنون، كما منحته أكاديمية الفنون شهادة الجدارة عام ١٩٨٢ وفى عام ٢٠٠٢ تم تكريمه فى الدورة السابعة لسمبوزيوم النحت الدولى بأسوان كما تم إعداد فيلم وثائقى عنه بعنوان «نشيد الحجر».

فى أثناء العمل فى كتلة من البازلت سقطت منه بلطة على ساقه، استدعى الأمر علاجًا طال لثلاث سنوات ومن حينها أصبحت الجلابية هى رداؤه المريح والدائم. كما أن شظايا الجرانيت والبازلت المتناثرة أثناء النحت قد أصابت أسنانه وعينيه، وقد أجرى له الدكتور «على المفتى» عملية ناجحة فى عينيه، ولكن عندما أجرى عملية



الصورة للفنان المصور
رضا سالم

جراحية أخرى لعينيه عام ١٩٩٥ فى ألمانيا تدهور بصره بصورة حادة.

وقد أصبح عبد البديع عبد الحى وجهًا مألوفًا فى الحركة الفنية، يُشاهد فى افتتاح المعارض والندوات وحفلات التكريم، وفى مقر النقابة وموقع الأتيليه وجمعية محبى الفنون الجميلة. وأصبح مقره المتواضع مزارًا للذواقة والمحبين والعظماء ورجال الدولة، الذين رأوا فيه رمزًا وطنيًا للطموح والإصرار والإرادة.

عصر الرعاة المستنيرين:

كان عبد البديع نموذجًا يوضح دور نوعية من الرعاة الوطنيين للفن الذين حفظوا كرامة الفنان وعززوا شموخه، وفتحوا أمامه سبل التقدم والتوهج، كان هؤلاء الرعاة صنفين: الأول عنى بصفة خاصة بتأسيس مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨، ورعاية تلاميذها وبعث المتميزين منهم للدراسة فى أوروبا، مثل الأمير «يوسف كمال» الذى أسس المدرسة فى أحد قصوره فى «درب الجماميز»، وأوقف عليها وعلى البعثات المخصصة لأوائل الأقسام الفنية أراضى وعقارات. ومثل «محمد محمود خليل بك» الذى تبنى اقتناء مجموعة نادرة من فنون القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أعمال التأثيريين خاصة، والذى عمل جاهداً بوصفه رئيساً لمجلس النواب على استصدار القرارات الملكية بتأسيس لجان رعاية الفنون، وتكوين مجموعة قومية من أعمال الفنانين المصريين والأجانب لتكون نواة لمتحف الفن الحديث وتأسيس جمعية محبى الفنون الجميلة التى تكاتف أعضاؤها من الرعاة فى تنمية الحركة الفنية المصرية وإنشاء صالون القاهرة السنوى للفنون.

أما الصنف الثانى من الرعاة فقد كانت دوافعهم وطنية خالصة، معنية بالرموز المعززة لأهداف ثورة ١٩١٩ التى قادها الزعيم «سعد زغلول» ورفاقه، الذين تبنوا مشروع «محمود مختار» لإقامة تمثال نهضة مصر مخالفين هوى القصر والإنجليز والبيروقراطية المصرية، حين تفتق الذهن عن عمل اكتتاب شعبى لجمع القروش والجنيهات لتمويل التمثال، فى مظاهرة سياسية وطنية تكافلية فريدة من نوعها فى تاريخ الفن المصرى الحديث، كما يلتقى سعد زغلول بالفنانين «يوسف كامل» و«راغب عياد» من فنانى جيل الرواد فى مصحة كان يعالج فيها فى مدينة جنيف، وعندما علم بأمر تبادلهما الأدوار فى التدريس مقابل أن يتناوبا البعثة للدراسة فى إيطاليا، قال لهم «لقد أثبتم ما أردت إثباته أفضل منى يا أولادى»، فقد أعطيتم مثلاً على وحدة وتكافل عنصرى الأمة المسلمين والأقباط، وعند عودته إلى مصر تبنى قضيتهم فى البرلمان وألزم الحكومة الصرف على بعثتين لهما.

ومن هذا النوع كانت الزعيمة الوطنية النسائية «هدى هانم شعراوى» التى تبنت الفنان «عبد البديع عبد الحى»، وأسست مصنعاً للخزف لبعث الطراز الوطنى كما فعلت «أمينة هانم إلهامى»، عندما أسست المدرسة الإلهامية لبعث الطراز الفرعونى والإسلامى فى الأثاث والزخارف، وأرسلت البعثات على نفقتها ورعت الفنانين المصريين فى مصر وفى أوروبا أثناء البعثة، وأشركتهم فى التظاهرات والمؤتمرات السياسية والاجتماعية التى كانت تمثل مصر فيها، وتولت رعاية الفنان يوسف كامل الذى شاهده المسيو «بول فيس» يرسم فى الشارع بمنطقة «درب التبانة» فقال له إن السيدة هدى شعراوى تحب أن تتعرف على الفنانين المصريين الشبان، وقدمه إليها وعندما التقت به فى روما أثناء دراسته هناك قام برسم العلم المصرى ذو الهلال والنجمات الثلاثة، وقامت زميلاته بالأكاديمية بتطريزه ليرفع على مقر المؤتمر الذى شاركت فيه فى العاصمة «روما»، ووعدته إن تميز على نظرائه، ليثبت مكانة وكفاءة المصريين، أن ترسله فى منحة للدراسة فى باريس على نفقتها وقد فعلت.

الأمير يوسف كمال ومحمد محمود خليل بك من ناحية، والزعيم سعد زغلول والسيدة هدى شعراوى من ناحية أخرى، يمثلان فقط نماذج دالة من مجتمع أرستقراطى وطنى، يؤمن بمواهب أبنائه ويبذل الجهد والعطاء فى سبيل شق الطريق الصحيح وفتح آفاق المستقبل أمامهم، ولذلك وبالذات شعر عبد البديع عبد الحى، فيما بعد، بأن طبقة الأغنياء وأصحاب القرار قد خذلوه، وتنكروا لمشوار حياته الذى يمثل بالقطع شريحة ذات دلالة عميقة فى التاريخ المصرى الحديث، وعلامة فارقة بين عصرين من الرعاية إلى التنكر للمواهب الوطنية.

سنوات الغضب:

فى الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة من حياته انتابت عبد البديع حالة غضب شديدة، ألحت عليه مشاعر الجحود والإهمال وما ترتب عليها من فاقة وشظف العيش، الأمر الذى يهدد كرامته التى لا تقبل الخدش ولا الإحسان من أحد.

عانى من البيروقراطية الجديدة ومن تجاهل المسئولين فى المحافظة لمكانته وطبيعة عمله، وتسلطهم عليه فى مقره الذى هو نوع من الحكر، يفاجئونه من آن لآخر بفواتير لا قبل له بها واجبة السداد دون جيرانه فى ذات الحكر، فقد جلبت له صورة الصحف ووسائل الإعلام نقمة، إذ سلطت الأعين عليه بين جيرانه البسطاء الذين اعتبروه محظوظًا وصاروا يظنونه مُقترًا على نفسه مع كل هذا العز المتوهم. وضج من الحلول التى وجدتها وزارة الثقافة ملائمة لشكواه، سواء بمنحه التفرغ، أو شراء عدد من أعماله عن طريق المقتنيات، أو تكريمه فى هذا الموقع أو ذاك من وقت لآخر، فقد كانت تلك الحلول فيما يرى نوعاً من العطف وهو لا يتسول، ولذا كان يتقدم لإدارة التفرغ بطلب سنوى ساخر قائلاً «أرجو تجديد تسولى عاماً آخر».

وكان يعانى من روح الشللية والطبقية فى الحركة الفنية التى كان يتصور أن مجموعة من «الحرامية» تسيطر عليها، معبراً عن مرارته من سيطرة «الدكاترة» وأصحاب المناصب، وسياسة توزيع المنح والجوائز والمقتنيات وفقًا للمقامات البيروقراطية والأكاديمية.



وفى زيارة للمتحف الحربى بالقلعة يصرح ساخراً من التماثيل التى عملها الدكاترة موجهاً حديثه لأحد الضباط المسئولين: «أحسن حاجة فى هذا المتحف هى نظافة البلاط».

ويستهجن استنساخ الآثار فى المتاحف متصوراً أنها نوع من التزييف والتزوير، وكان يغضب لإغلاق قاعة عرض كقاعة باب اللوق ويحتج بعنف، وكان يطالب بأن يحضر إليه الوزير بنفسه باعتباره زميلاً قبل أن يكون وزيراً، ومن ثم كان كثيراً ما يهدد بتحطيم كل أعماله ليحولها إلى تراب خشية أن يستنسخوها لأغراض التجارة، وكان يهدد بالانتحار قائلاً: «خايف إيدى تنشل من الرقدة، أنا هنتحر، وهأحرق كل إللى انت شايفه ده وأنا فوق منه». هكذا صرح فى حديث صحفى.

ويقول: «لقد أديت واجبى كفنان منذ عام ١٩٣٤ وحتى الآن، ومع ذلك التقى فى الشارع بمن يحاول أن يمد يده لى بصدقة، أنا مش شحات الواحد تعبان والموضوع كبير ومش هايتحل.. أنا مش عارف بيعملوا معايا كده ليه؟».

المشهد الختامى.. الاغتيال:

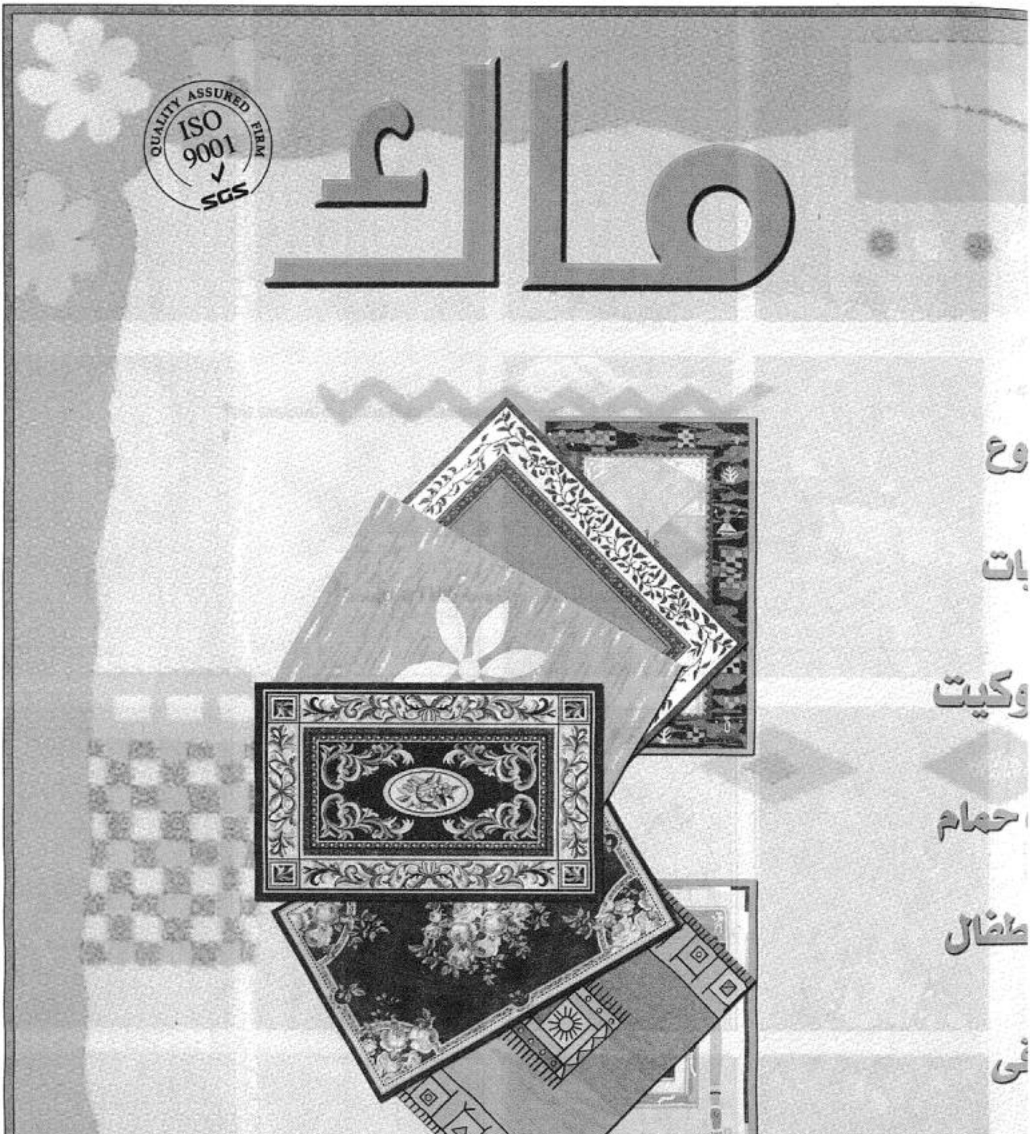
فى منزله ومحترفه الذى عاش فيه سنوات طوالا من التأمل والنحت واستقبال الأحباء بجوار مطحن الدقيق فى خارطة أبو السعود بمصر القديمة وبمقربة من مسجد عمرو بن العاص ومنطقة الفسطاط وهو عبارة عن أرض حكر أقام فيها الفنان مدة طويلة يواجه تهديد المحافظة من آن لآخر بالطرد أو بسداد مبالغ طائلة، المكان عبارة عن ممر طويل وحجرة داخلية مكدسة بالأشياء الحميمة التى جمعها الفنان لعشرات السنين، ونسخ جصية من تماثيله التى أودعت المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة وقوالب صالحة وأخرى تالفة لنماذج يونانية مغطاة بأسمال، إذ كان عبد البديع عبد الحى شغوفًا مثل العديد من الفنانين بتجميع الأشياء وإحاطة نفسه بها مع كتل من الجرانيت والبازلت هنا وهناك.

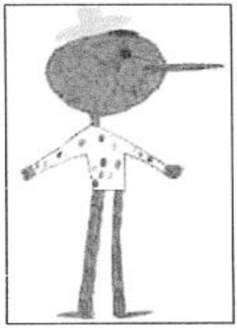
فى الحجرة الداخلية يقبع الفنان فى الركن بجلبابه المخطط بأقلام عريضة زرقاء مكوماً ساقيه محنياً ظهره ثم تقع رأسه المنهكة واهنة البصر موجهاً أذنه نحو القادم، وبمجرد سماع صوته يتعرف عليه مباشرة. ذاكرة سمعية مدهشة. ويهم ناهضاً مستنداً على العكاز محبباً بابتسامة إنسانية رائعة تطل من بين لحيته الكثيفة وشاربه وتجاعيد الصدغين، يهلل ببشاشة ويحيى بكلتا الكفين على يد وكتف الزائر، ومع الجلوس يشيع جو من البشر والدماثة وأكواب الشاى يتخللها نوبات من الشكوى والغضب مما آل إليه الحال بالبلد وبالناس وبالمسئولين وبالحركة الفنية، وتتوالى ذكرياته عن الناس الكاملة، وعن الناس الناقصة، ويصرح لزائره بصراحة وبأدب عن موقعه فى نفسه ورأيه فيه. بدون زعل. فى زياراتى القليلة له فى هذا المحراب الذى كان أحياناً يسميه الخرابة، استمعت إليه وتمسك ببقائى معه، يطلعنى على الجهاز الذى صممه بنفسه، وهو بمثابة كشاف ذى ضوء قوى وعدسة مكبرة مركبتين بعضهما فى البعض تركب على رأسه كسماعة الأذن وفيما رأيت كان أشبه بأدوات التعذيب فى القرون الوسطى، قال هذه هى الآن وسيلتى بعد أن أضاع الأطباء غير المكترثين معظم نور العين. إذ أرى بصعوبة بمعونة هذا الكشاف وتلك العدسة، ولكن ما هى الفائدة؟ لقد وهن ذراعى أيضاً وكفى، وأصبحت أحمل أدوات النحت بصعوبة بالغة، كان شديد القلق عظيم الغضب مما آلت إليه أحواله بعد كفاح طويل جداً، وكان المقر الذى يقيم فيه مفتوحاً طوال الوقت ولا يحميه إلا باب خشبى رمزى هش للغاية، وفى يوم أسود دلف إليه شقيقان التبسهما شيطان الجشع، ووهم الطمع فى ثروة قد تكون مكنونة عند الفنان الذى تتداول سيرته وحواراته شاشات التليفزيون وسماعات الإذاعة والصحف المحلية والعربية، تصورا أن بالمكان ثروة من المال وربما الذهب، فضلاً عن التماثيل القيمة التى سمعا عنها، وحين هم بالتحية رداها بالطعنات الجبانة القاتلة فأردياه قتيلاً كأبطال الملاحم الإغريقية غارقًا فى دمائه.

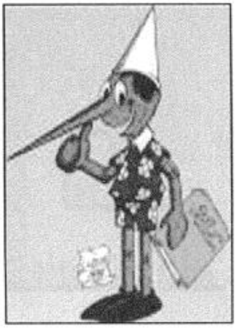


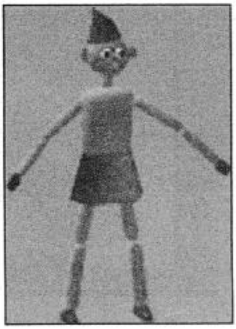
كان قد أصبح وحيداً بعد أن غربت عنه رفيقة حياته منذ أسابيع قليلة، وكانت راعيته وونسه وكانت نموذجه المفضل فى شبابه كفنان.

وبهذه النهاية الملحمية لحياة الفنان عبد البديع عبد الحى اختتمت حياة حافلة وطويت صفحة من تاريخ الإبداع والكفاح والدعاية والتجاهل كأنها شريحة دالة على تاريخ مصر من خلال أحد أبنائها الذين عاشوا تبدل المشاعر وساعات الزهو وساعات الانكسار والغضب والزهد فى الحياة واستهداف اللصوص والقتلة. ■


QUALITY ASSURED FIRM
ISO
9001
SGS
وع
بات
وكيت
حمام
طفال
فى
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر









ماذا نعرف عن

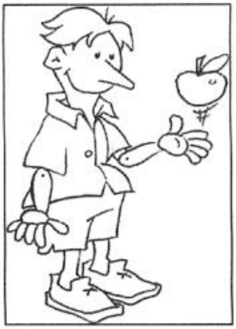
بينوكيو

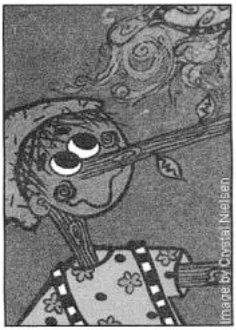
الولد الطيب الشقي؟

أليسون لوري







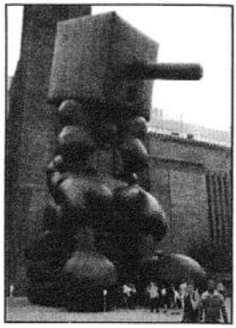


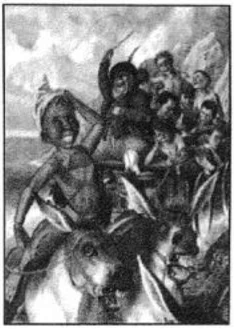




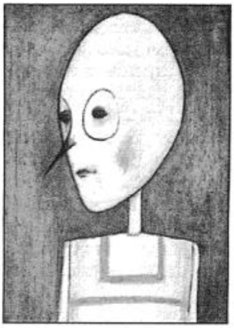




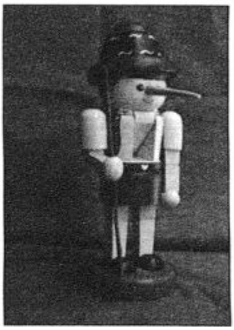














بينوكيو



العديد من الناس لديهم اليوم وهم أنهم يعرفون من هو «بينوكيو»، إنهم يعتقدون أنه دمية خشبية أصبحت صبيا آدمياً وأن سمكة كبيرة ابتلعته وأن أنفه تكبر حين يكذب (وكنتيجة لهذه الواقعة الأخيرة فقد صور السياسيون في الكاريكاتير بأنوف طويلة عندما يكذبون علنا على مدى المائة سنة الماضية - خاصة ريتشارد نيكسون الذى كانت أنفه فى الأصل تشبه أنف بينوكيو).

إن هؤلاء الناس على حق ولكن بشكل محدود فهم يعرفون بينوكيو من نسخة ديزنى المبسطة والانفعالية، أو النسخة المختصرة التى اتفق على أنها أكثر ملاءمة للأطفال. إن الرواية الأصلية التى كتبها كارلو كولودى تحيا الآن فقط فى نسخ أكاديمية أطول وأكثر تعقيداً وإثارة للاهتمام ولكنها أيضاً أكثر قتامة قال عنها الناقد جلوكو كامبون إنها واحدة من الأعمال الأكثر تأثيرا فى الأدب الإيطالى (الآخران كما يرى هما الكوميديا الإلهية لدانتى والمخطوب لمانزونى) فبالنسبة له وللآخرين الذين يعرفون النسخة الأصلية، مغامرات بينوكيو ليست خرافة مسلية وخفيفة بل أمثولة حول الفن والحياة. أنها قصة حول النضوج وبشكل أساسى هى قصة حول أن يكبر المرء فقيراً وإيطالياً.

ولد كارلو كولودى واسمه الحقيقى كارلو لورينزينى فى فلورنسا عام ١٨٢٦ وهو الابن الأول لعائلة من خدم المنازل. عندما تفوق فى المدرسة المحلية دفع صاحب المنزل الذى يعمل لديه والداه تكاليف إتمام دراسته على أمل أن يصبح قسيساً. ولكن هذا لم يحدث. على العكس فبعد تخرج لورينزينى ذهب إلى العمل مع بائع كتب وأصبح فى النهاية صحافيا ليبراليا يتشكك فى التعليم والكنيسة. ففى بينوكيو يخشى كل الأولاد المدرسة والدين يكاد لا يذكر.

نشرت بينوكيو أصلاً على حلقات فى جريدة الأطفال Il giornale per i bambini وظهرت على ثمانية اجزاء بين يوليو وأكتوبر عام ١٨٨١ ثم على أحد عشر جزءاً بين فبراير ١٨٨٢ ويناير ١٨٨٣ وكتبت على غرار روايات التشرد وربما بدافع من ضغوطات ذلك الوقت بعض فصولها أكثر إبداعاً واندماجا فى مجمل العمل. بعض تلك المشاهد حذفت من النسخة الإنجليزية المختصرة. مثل تلك التى يقابل فيها بينوكيو أفعى ضخمة ويقع فى فخ ثم يجبر على الخدمة ككلب حراسة ويركب على ظهر حمامة ويظن البحار العملاق ذو الشعر الأخضر أنه سمكة.

ويحذف من فيلم ديزنى المزيد من القصة ويغيرها جذرياً فيبدوجبيتو والد بينوكيو بالتبنى أنه صانع ألعاب ميسور وتبدو المدينة التى يعيش فيها وكأنها سويسرا أو بفاريا كما تمتلئ ورشته باللعب الموسيقية والساعات، أما فى القصة الأصلية فإنه نحات خشب إيطالى، جبيتو شديد الفقر، عندما يبدأ الفيلم يكون بينوكيو لعبة خشبية بدون حياة ولا توهب لها الحياة إلا عندما تحقق جنية لجبيتو أمنيته فى طفل. أما فى الكتاب فبينوكيو حى منذ البداية، ومع أنه ليس إلا قطعة خشب للنار بدون اسم فى ورشة النجار السيد أنطونى إلا أنه يستطيع الكلام وعندما يضرب السيد أنطونى قطعة الخشب بالفأس فإنها تصرخ «آخ! إنك تؤلمنى!» يرتعب النجار ويعطيها إلى صديقه جبيتو الذى يريد صناعة دمية. وتستمر قطعة الخشب فى التصرفات الشاذة فتسخر من جبيتو وتضرب السيد أنطونى وتتسبب فى مشاجرة بين الأصدقاء القدامى.

وعندما يصل جبيتو إلى منزله يبدأ فى نحت الدمية ولكن ما أن يفرغ من فم بينوكيو حتى يبدأ الأخير فى الضحك من جبيتو وإبراز لسانه له وعندما تظهر له يدان ينزع باروكة جبيتو وعندما يفرغ من صناعة ساقيه يهرب.

منذ البداية نجد أن بينوكيو لكولودى ليس فقط أكثر ذاتية من الولد اللطيف فى الكارتون ولكنه أيضا أقل بساطة بكثير. وهو ليس فقط ساذجاً ولكنه انفعالى وأنانى وعنيف. وبالتعبير اللاهوتى فإنه بدأ حياته فى حالة الخطيئة أما من وجهة النظر النفسية فإنه يمثل الطفل اللاأخلاقى الذاتى دون رقابة على النفس.

وبدون القدرة على السيطرة على انفعالاته يستنفد بينوكيو السيطرة الخارجية فبينما يركض فى الشارع وخلفه جبيتو يوقفه شرطى ويعيده إلى والده بالتبنى وفوراً فى مبادرة يعرفها كل آباء الأطفال الصغار يرتمى بينوكيو على الأرض ويعلن أنه لن يسير بعد ذلك. ويجتمع حشد من الناس حولهم ويبدءون فى لوم جبيتو على جنوح بينوكيو (كما يفعل بعض المتخصصين فى لوم الأطفال فى الوقت الحالى) وفى النهاية يقنعون الشرطى بوضع جبيتو فى الحبس. ويقول كولودى إن القانون دائما غبى وغالبا فاسد وعادة ما يعاقب الضحية وليس المجرم. (فى وقت لاحق من القصة يذهب بينوكيو إلى المحكمة ليشكو أنه تعرض للسرقة ولكن القاضى وهو غوريلا يرسله إلى السجن بدلا من المجرمين ولا يطلق سراحه إلا بعد أن يعترف زوراً بأنه مجرم)

يرجع بينوكيو إلى المنزل بعد الإفراج عنه فيقابل ما عرف الكثير من القراء أنه ضميره أوالأنا العليا الخارجية فى صورة صرصور الليل المتكلم. يوبخ صرصور الليل بينوكيو على هروبه ويحذره من مخاطر البطالة. إن لم يذهب إلى المدرسة فسيتحول إلى حمار عندما يكبر ولكن بينوكيو يرفض أن يستمع إليه ويقول إن العمل الوحيد المناسب له هو «الأكل والشرب والنوم والاستمتاع والحياة كمتشرد من الصباح حتى الليل». وعندما يعلق صرصور الليل بأن: «كل من يتبع هذه المهنة لابد أن ينتهى به الأمر إما فى ملجأ الفقراء أو فى السجن» يغضب بينوكيو ويرميه بمطرقة خشبية فيقتله. ولكنه يظهر ثانية فى القصة أولا كطبيب غامض يرتدى الأسود وأخيراً كشبح.

يظهر ضمير بينوكيو الخارجى فى فيلم ديزنى ولكنه يتم تحويله إلى شخصية فكاهية ويعاد تسميته جيمنى

عن مجلة:
New York Review of Books
ترجمة: نرمين نزار

إن بينوكيو بطاقته ووقاحته وازدرائه للمؤسسات وطيبته الكامنة هوابن العم الإيطالى لتوم سوير. وهو كما الحال مع توم ولد شقى يتحول فى النهاية إلى مواطن صالح

كريكت (فالاسم إشارة أمريكية واضحة للسيد المسيح، ويرتدى جمينى كريكيت قبعة ممثلين الفودفيل ويغنى ويرقص. يكون عتابه مسلياً فى أغلب الوقت ولكن بلا جدوى ويكاد بينوكيو أن لا يستمع إليه ولكنه لا يؤذيه.

ترى بينوكيو عند ديزنى طفل فى حوالى الخامسة أوالسادسة ويبقى بريئاً أو بسيطاً طوال القصة كالطفل المثالى فى الأدب الرومانسى.

إنه خال من الوقاحة أوالخبث وما يوقعه فى مشاكل هوالفضول والملل. أما بطل كولودى فهو أكبر بعدة سنوات يمتلئ عدوانية وبغريزة التمرد، التى لن يتم ترويضها حتى نهاية القصة. وهنا يتذكر شخصية كلاسيكية فى أدب الأطفال الأمريكى فى نهاية القرن التاسع عشر وهوالولد الطيب الشقى. كان أول ظهور مهم لهذه الشخصية فى قصة ولد شقى (١٨٦٩) لتوماس بايلى الدريتش. إن بطل الدريتش الذى رسم على غرار طفولته هوشقى فقط بالمقارنة بزملائه فى المدرسة المتزمتين الذين يفتقدون لروح المغامرة والمرح. فهو وأصدقاؤه يهربون من المدرسة ويقومون بمغامرات ولكنهم لا يذهبون بعيداً. أكتسب الكتاب شعبية كبيرة وقلد عدة مرات بعد ذلك أشهرها «توم سوير» لمارك توين.

إن كان كولودى قد قرأ قصة توم سوير أو لم يقرأها (نشرت لأول مرة عام ١٨٧٦) فإن هناك تشابهاً بين القصتين، فالبطل فى الكتابين يخوض مغامرات يتعلم من أخطائه، ويتصالح مع المجتمع فى نهاية الكتاب. كما هو الحال مع بينوكيو(ولكن على عكس ولد الدريتش الشقى فإن توم سوير منحرف حقاً. إنه يكذب ويسرق ويدخن ويهرب من المدرسة يسبب الفوضى فى الكنيسة يهرب من أولياء أمره ويرتبط بشركاء مريبين. هو يحب الحرية والمتعة ويتوق إلى المغامرة. إنه انفعالى، طائش ومشاغب وفى نفس الوقت فإن توم مثل بينوكيو طيب القلب فى الأساس يتعلم من أخطائه وفى نهاية الكتاب تسامحه وتصالحه عائلته والمجتمع.

إن بينوكيو بطاقته ووقاحته وازدرائه للمؤسسات وطيبته الكامنة هو ابن العم الإيطالى لتوم سوير. وهو كما هو الحال مع توم ولد شقى يتحول فى النهاية إلى مواطن صالح. ولكن عالم بينوكيو أكثر قتامة بكثير من عالم توم فإن العمة بولى ليست غنية بأى حال من الأحوال ولكنها تملك بيتاً بحديقة أما جبيتو والد بينو كيو بالتبنى فإنه فقير جداً ويعيش فى غرفة مظلمة تحت السلم الأمامى لمبنى ودائم القلق على مصدر وجبته التالية.

عالم كولودى أكثر خطورة من بلدة هنيبال فى ميزورى (التى تدور فيها أحداث توم سوير - المترجم) إنه ملىء بالأشخاص الغاضبين المخادعين الذين يريدون استغلالك وسرقتك وحتى قتلك.

عندما يهرب توم سوير وهاك فين من المنزل فإنهم يقابلون شخصيات جيدة وسيئة. مع أن هناك طائرا وسمكة يساعدون بينوكيو فإنه لا يقابل إلا أشخاصا عدوانيين وبالنسبة له فإن مملكة الحيوانات خطرة. إن أهم أعدائه حيوانات، ويوجد مقابل لاثنين منهم فى أعمال توين هؤلاء هم الثعلب والقط - نصابان مدعيان وهما دنيئان وشديدا الشبه بالملك والدوق فى هاكلبرى فين (١٨٨٤) (بما أن بينوكيولم تترجم حتى عام ١٨٩٢ فيبدو أن هذه ليست إلا حالات تكرار شخصيات مألوفة منذ خرافات إيسوب وتكرر ظهورها فى الأدب) يلقى النصابان نهاية سيئة فى كلا الكتابين ولكن فى حين يشفق هاك عليهما فإن بينوكيو يمر بهما فى صمت. فى هذا المجال تقترب القصة من نموذج الحدوتة الشعبية الأوروبية التقليدية التى يندر أن ينصلح فيها حال الشرير ولا تكون هناك حاجة لمسامحته.

فى جزء من توم سوير يهرب توم من المنزل إلى جزيرة جاكسون فى نهر الميسيسبى حيث يستمتع مع أصدقائه دون تدخل من الكبار ومع أنهم يغيبون لأيام معدودة فقط فإن الحنين يغلبهم ويعودون إلى هنيبال حيث يتم استقبالهم كالأبطال، ويبدو أن الدرس المستفاد هنا هو أنه بالإمكان الهروب من المدرسة وإصابة أقربائك بالخوف والقلق ثم تفلت من العقاب.

بينوكيو أيضا يسافر مع أولاد آخرين إلى نوع ما من جنة الأطفال تسمى فن لاند (أرض المرح) حيث لا توجد مدرسة «وتمضى الأيام فى لعب وأوقات سعيدة من الصباح حتى الليل»، ولكن هذه الإجازة تستمر مدة أطول كثيراً من إجازة توم. إنه يعيش فى فن لاند لخمسة أشهر بدون أن يمل منها أو يفتقد جبيتو ولكنه يتحول إلى حمار هو وصديقه المقرب لام بويك كما تنبأ صرصور الليل فيبيعهم سائقو العربيات الأشرار فى الأسواق والملاهى مع زملائهم كما كانوا يريدون حين استدرجوهم إلى فن لاند للكسب من تحولهم الحتمى. يذهب بينوكيو إلى السيرك حيث يجبر على القيام بحيل ويضرب ويجوع وعندما يصاب بالعرج يباع إلى تاجر الجلود الذى يحاول إغراقه.




C. COLLODI

LE

AVVENTURE DI PINOCCHIO

FIRENZE

تصبح هذه الأحداث أمثولة وتحذيراً ويؤكد كلودى على ذلك عندما يعلق أن: «الأولاد السذج يتحولون إلى حمير عند اللعب كل الوقت وعدم الدراسة، أما المغزى (وهوحقيقى اليوم كما كان وقت كلودى) الأولاد الفقراء الذين يتركون المدرسة ويتسكعون يتحولون إلى عمال مستغلين وقد يموتون.

إن تحولات بينوكيو مخيفة ولكنها مثيرة للاهتمام فخلال الكتاب يتحول من مملكة النبات إلى مملكة الحيوان ويصعد تدريجياً فى كل فئة. إن اسمه الذى يعنى بلغة توسكانا القديمة «الصنوبر» يربطه بالنبات. إنه يبدأ حياته كقطعة خشب خالية من الملامح (ربما خشبة صنوبر) ويتحول إلى دمية خشبية وفى النهاية يكتسب الصفات الإنسانية. إنه نفس التحول الذى نراه فى الأطفال الذين يبدءون كمادة هامدة بشكل ما ثم يصبحون كتلا جاهلة وإن كانت محبوبة من الحاجة والطمع ذات تركيز قصير ورغبة فى استكشاف العالم دون أخذ المخاطر فى الاعتبار. فيما بعد يقاومون القيود ويعيشون فى الحاضر يبحثون دوما عن الأكل والمتعة كما الحيوانات.

وبعيداً عن هذه المتوازيات المحتملة، لماذا اختار كلودى أن يكون بطله دمية وليس مجرد ولد شقى؟ ربما لأنه فى المسرح توجد مزايا لما يسميه الدارسون «الأشياء المؤدية» -الدمى، العرائس، الماريونيت، الإنسان الآلى، خيال الظل، والديكورات المتحركة- لا توجد لدى الممثلين من البشر. إن الممثلين لا يكونون مطابقين للأدوار التى يلعبونها ومهما كانت مهاراتهم فى التمثيل فإننا دائما واعون بالشخص الحقيقى القابع تحت التخفى. فى المقابل فإن الدمى يمكنها أن تبدو تجسيداً خالصاً لفرد أو نوع من البشر (لهذا السبب عبر منسق المناظر المسرحى جوردن كريج عن أمله فى أن يتم استبدال جميع الممثلين مستقبلاً بدمى).

يرى بعض القراء أحياناً، خاصة من يفكرون أولاً فى نسخة ديزنى، أن بينوكيو قصة خيالية كلاسيكية. إن كانت كذلك فهى قصة من نوع خاص فى أغلب القصص الخرافية التى يكون فيها البطل رجلا، يترك البطل الشاب عائلته الأصلية ويقوم بمغامرات ثم ينتهى به الأمر بالزواج من أميرة وتكوين عائلة جديدة. على

بينو كيو



النقيض فإن قصة بينوكيو هي مما يسمى قصة طفولة مثل «جاك وشجرة الفاصوليا» أو «هانزل وجريكل» والبطل هنا لا يبدأ عائلة جديدة في المقابل إنه يعود إلى منزله وإلى والد أو والدة محبين. نفس هذا النمط نجده في ثاني أشهر قصص الأطفال الإيطالية الكلاسيكية «غزو الدببة الشهير لصقلية» لدينوجوزاتي حيث تقوم العلاقة المركزية بين أب وابنه أيضاً ويكون أحد أهم أسباب الغزو الذي يقوم به الملك ليانارد هو البحث عن ابنه تومي (مما يثير الانتباه أننا عندما نجد تومي يعمل كبهلوان عند بعض الأشخاص - أي أنه نوع من الدمى).

في العديد من القصص الشعبية يساعد البطل أو البطلة أحد المخلوقات الخارقة مثل قزم أو حيوان متكلم أو امرأة حكيمة أو عرابة. في بينوكيو تلعب الجنية الزرقاء، والتي تتميز بلون شعرها، هذا الدور. أن الشعر الأزرق أوالأخضر من الصفات التقليدية للمخلوقات الخارقة التي تكون خيرة أومحايدة أحياناً مثل الرجل الأخضر أوالأطفال الخضر في الفلكلور البريطاني وفي أحيان أخرى تكون شريرة مثل ذي اللحية الزرقاء. تظهر الجنية الزرقاء في بينوكيو على أشكال كثيرة. فهي أولا - فتاة صغيرة بيضاء الوجه تعلن أنها ميتة. ولكنها سرعان ما تثبت أنها قادرة على إنقاذ بينوكيو من موت وشيك. وتستدعي ثلاثة أطباء لمعالجته. وعندما يفترقون تدعي أنها أخته الكبرى. في جزء لاحق من القصة على هيئة امرأة عاملة صغيرة السن تأخذ بينوكيو إلى منزلها فتطعمه وتعلن أنها ستكون أمه. بعد ذلك نراها على هيئة بجعة بشعر قرمزي وأخيراً تظهر في حلم على هيئة جنية جميلة تحوله إلى طفل بشري.

ولكن يبدو أن كولودي ينفي فكرة أن بينوكيو قد تكون أقصوصة رومانسية منذ بداية الكتاب

«كان يا ما كان هناك... «ملك» سيقول قرائي الصغار فوراً.. لا يا أطفال إنكم مخطئون.. كان يا ما كان قطعة خشب لم تكن قطعة خشب ثمينة ولكنها قطعة خشب عادية أخذت من كومة خشب في الشتاء ووضعت في المدفأة».

بمعنى آخر فإن لهذه القصة أساساً في حقائق الحياة القاسية للطبقة العاملة الإيطالية في آخر القرن التاسع عشر وليس في عالم الخيال. إنه الفقر الذي لا يجعله شيئاً محتملاً إلا الحب والتضحية يبدأ بينوكيو حياته كولد صغير متمرد لا يراعي مشاعر الآخرين وذاتي يعارض الكبار ويتجاهل القوانين فبدلاً من أن يذهب إلى المدرسة مثلا فإنه يبيع الكتاب المدرسي الذي اشتراه له جبيتوليشتري بثمنه تذكرة لمسرح العرائس. وهناك يحتجزه محرك عرائس مخيف ويكاد أن يحرق في نيران المطبخ. إن خلاص بينوكيو الأخير يكمن في استعداده للعمل والتضحية من أجل الآخرين ففي المسرح يهرب من الموت عندما يعرض بشكل عفوي استبداله بدمية أخرى مشئومة فيمس بذلك قلب محرك الدمى لبرهة. وتحوله الأخير نتيجة لقبوله العمل لساعات طويلة في مهنة مرهقة لكسب المال من أجل والده بالتبني جبيتو المريض ووالدته الخرافية الجنية الزرقاء.

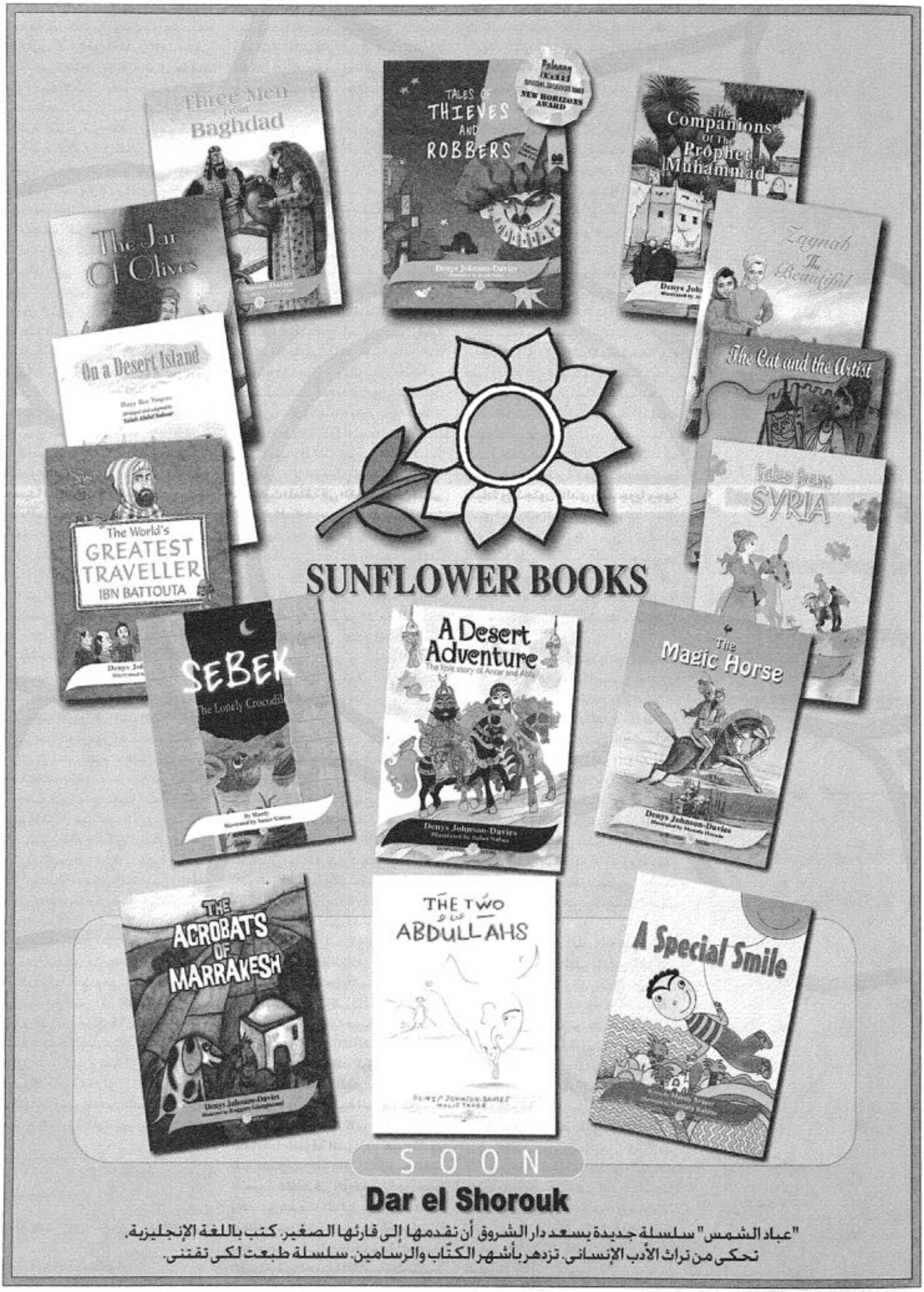
في فيلم ديزني توقع قلة الخبرة والنصائح السيئة بينوكيو في المشاكل وليس الأنانية وعدم الطاعة فإن اثنين من الأشرار هما الثعلب والقط يقودانه إلى مسرح العرائس. بعد أن يعداه - في لمسة هوليوودية - بالشهرة والمال في أغنية يكرر مذهبها: «عظيم أن تكون مشهوراً» (طبعاً قد أصبح بينوكيو مشهوراً نوعاً ما على يد ديزني) كما أنه أصبح ميسوراً في الفيلم. في النسخة الأصلية ينجح بالكاد وعن طريق العمل الجاد في مساندة أباه بالتبني - مع أن الجنية الزرقاء تحول غرفته الرثة إلى كوخ مريح وتمنحه ٤٠ عملة ذهبية. ولكن الأمر الأهم هو أن بينوكيو يصبح Un ragazzino per bane وهي عبارة تحمل معنى مزدوجاً بالإيطالية (ولداً صالحاً، ولداً حقيقياً) كما تشير الناقدة الإيطالية آن لوسن لوكس.

هل سيستمر بينوكيو في أن يكون ولداً صالحاً؟ وإذا حدث هذا فهل سيستمر القراء في الاهتمام به؟ إن الكتاب يتكون من ٣٦ فصلاً ولا يتصرف بينوكيو بشكل جيد إلا في الفصلين الأخيرين إن الانحراف والثورة أكثر إثارة لاهتمام القارئ ومتعة في القراءة من التميز الأخلاقي وكما يقول لويس كانس فإن بينوكيو «محبوب أكثر لجنوحه» وهوفي ذلك يذكرنا بأبطال آخرين من عينة الولد الطيب الشقي في الخيال وفي الحياة الحقيقية. وربما يكون هذا النموذج محبوباً بشكل خاص في إيطاليا. حيث ينظر للرجل البالغ ذي القلب الدافئ والمحب للمغامرة ولقليل الصبر على القوانين الاجتماعية والقيود على أنه ساحر ومغر. إذا بدأ شخص مثل هذا أسفاً (حتى ولو بشكل مؤقت) حقاً على أخطائه فإن أصدقاءه وأقاربه سيسامحونه بشكل متكرر كما هوالحال مع الخاطئين في الكنيسة الكاثوليكية.

إن بينوكيو قصة إيطالية في العديد من النواحي مليئة بالمناظر من شمال إيطاليا وبالمأكولات الإيطالية مثل سمك البربوني في صلصة الطماطم والكرشة بالجبن البراميزان اللذين يأكلهما الثعلب والقط على حساب البطل. وهو أيضا يجسد الاعتقاد الإيطالي بأن للعائلة أهمية مركزية سيمكنك الاستمتاع بوقتك مع الأصدقاء ولكن لا تثق إلا بالأقارب. وأن الآباء الصالحين سيضحون بأنفسهم من أجل أولادهم دون تردد كما يفعل جبيتو حين لا يجد طعاماً بالمنزل سوى ثلاث ثمرات من الكمثرى فيسمح لبينوكيو بالتهامهم بطمع وأنانية (تم إزالة هذا الجزء وأجزاء أخرى من فيلم ديزني). كما سيضحي الأولاد الطيبون من أجل آبائهم كما يفعل بينوكيو عندما يهرب هو ووالده من بطن الحوت كما في قصة يونس ويحمل جبيتو على ظهره حتى يخرجه من البحر.

ويرى بعض النقاد متوازيات أخرى بين بينوكيو والأساطير المسيحية فيعلقون على أن البطل هو ابن بالتبني لنجار يدعى جيوفاني (النطق الإيطالي لاسم يوسف) وإنه يموت ويحيى ثلاث مرات (يموت في إحداهما معلقاً على شجرة). كما ألمح البعض أن الجنية الزرقاء هي نسخة ما من العذراء التي ترتدي الأزرق عادة في الفن - مع أن ملابس العذراء مريم عادة زرقاء سماوية بينما يصف كولودي شعر الجنية بأنه قرمزي.

بالنسبة لبعض القراء فإن بينوكيو ضحية بينما يراه آخرون على أنه بطل ثائر من الطبقة العاملة تتحدى مغامراته القواعد الاجتماعية. ويرى علماء النفس هروبه من الحوت كنوع من إعادة الميلاد ويلمحون أن أنفه الذي يكبر يقول لنا الكذب أمر ذكوري. وكما هو الحال مع العديد من الأعمال العظيمة في أدب الأطفال فإن قصة بينوكيو تخضع لتفسيرات عديدة ومتنوعة وستستمر في ذلك مستقبلاً. ■


Three Men from Baghdad
Tales of Thieves and Robbers
New Horizons Award
The Companions of The Prophet Muhammad
The Jar Of Olives
Zaynab The Beautiful
On a Desert Island
The Cat and the Artist
The World's GREATEST TRAVELLER IBN BATTOUTA
Tales from SYRIA
SUNFLOWER BOOKS
SEBEK The Lonely Crocodil
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
Denys Johnson-Davies
The Magic Horse
Denys Johnson-Davies
THE ACROBATS OF MARRAKESH
Denys Johnson-Davies
THE TWO ABDULLAHS
A Special Smile
SOON
Dar el Shorouk
"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية.
تحكى من تراث الأدب الإنسانى. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكى تقتنى.

جويا رسام الملوك .. ولاعِنُهم أيضا

جيني أجلو

■ ■ تتسم رواية روبرت هيوز لحياة جويا وفنه بأنها مذهلة، ومربكة، وشديدة الخصوصية. ونحن نعلم أن أزمة ما في حياة هيوز كانت وراء سعيه الذي بدأ منذ زمن بعيد لاستكشاف عبقرية جويا المظلمة؛ فقد تعرض لحادث سيارة رهيب تبعته شهور من الألم والعمليات الجراحية. ولكنه أدى كذلك إلى اعتراف عميق، وهو أن «الكاتب الذي لا يعرف الخوف، واليأس، والألم قد يمكنه معرفة جويا المعرفة التامة».

بعبارة أخرى، هذه دراسة للسيرة الذاتية. وهي تبدأ بشباب المؤلف، في أستراليا التي كانت فيها كلمة «محفورات» etchings تعني مستنسخات لوحات نورمان لينزي من النوع الماجن الخفيف المعلقة في صالات الحانات وقاعاتها الخلفية، حيث اشترى هيوز، بالصدفة تقريباً، مستنسخاً للوحة جويا «نوم العقل يجلب المسوخ»، حيث هبط فيها الرجل جالساً على مكتبه بينما البوم الذي ينظر إليه شزراً يحوم حول رأسه.

تحوم «نوم العقل» في عقولنا باعتبارها تقديما شابا لجويا، وبصفتها تجسيداً للألغاز التي يقدمها لنا جميعاً. فهو واقعي يعرف قوة اللاعقلاني، وعالم الأحلام والكوابيس المضاد، والواقع أن تصويره للخرافة والسحر والعفاريت جزء من «الواقعية» الخاصة به. وحين يناقش هيوز المستنسخ الذي نحن بصدده، باعتباره الأشهر من بين caprichos جويا، فهو يحلل موضوع الصورة بحرص، مشيراً إلى كيفية موازنة البوم، رمز الغباء، بالوشق (القط البري) الحذر، وهو المخلوق الذي كانوا يعتقدون أنه «يمكنه الرؤية في أشد الظلام حلكة ويميز على الفور بين الصواب والخطأ». أما المفكر الذي غلبه النعاس فهو جويا نفسه؛ وتقدم له البومة طباشير الفنان.

يضع هيوز حياة جويا العملية بقوة وحيوية داخل صراعات التاريخ والثقافة الأسبانيين. فقد ولد فرانثيسكو دي جويا إي لوثينتيس في قرية صغيرة في عام ١٧٤٦، وكان والده كبير المُذَهِّبين (الذين يطلون بالذهب)، وهو صانع من ثاراجوثا، أما والدته فكانت من الإيدالجو، وهي طبقة النبلاء الدنيا في أسبانيا التي عانى الريف الأسباني من عجرفتها المصحوبة بالفقر. وقد ذهب وهو شاب إلى مدريد للدراسة مع صهر المستقبل فرانثيسكو بايو، وبعد زيارة إيطاليا في عام ١٧٧٠ وجد عملاً مع بايو حيث كان يصمم رسوم كارتون شديدة المرح لستائر داخل القصور الملكية الخاصة بكارلوس الثالث. وكانت موضوعات رسوماته هي التسالي المشهورة، ومسرح الشارع، والموسيقيين، والأسواق التي كان هو نفسه يحبها. كان جويا يعشق حياة الريف، وبالأخص الصيد، وهو الميل الذي كان يشاركه فيه الملك، إلا أنه كان كذلك يجد متعة في المدينة، بمن فيها من ضحايا حب فرنسا من الفتيات الجميلات maja وشركائهن الأقوياء majo. (يرتدي جويا في بورتريه رسمه لنفسه سترة majo قصيرة).

وضع جويا قدميه على أول الطريق. وسرعان ما رسم الملك نفسه، وكذلك عائلته. وكان كارلوس الثالث غليظاً ومستبداً، إلا أنه كان كذلك، إلى حد قليل جداً، ملكاً «ليبرالياً»، وكان معظم رعاة جويا رجالاً ونساء مستنيرين يسعون إلى دفع أسبانيا إلى عصر التنوير الجديد، حيث كانوا يحاولون إصلاح الزراعة، وإدخال الصناعة، والتحايل على رقابة محاكم التفتيش ببناء المكتبات الخاصة وجمع أعمال فولتير وديديرو ومستنسخات هوجارث وورولاندسون وجيلاري. وقد اتسعت رؤية جويا للعالم من خلال هؤلاء. كما تعلم باعتباره فناناً من الأدباء الساخرين الإنجليز الشرسين. إلا أنه تعلم كذلك من لوحات بيلاثكيث المعلقة في القصور، ومن فناني القصور المعاصرين له أنطون مينجز الكلاسيكي الجديد الذي أضفى سمات أخلاقية على أعماله، وتييبولو ذلك العجوز الخيالي. وتوالت عليه التكليفات وتطورت تكنيكاته بسرعة كبيرة. ويكتب هيوز كلاماً مدهشاً عن المتعة الحسية لبورتريهاته الأولى ويقدم لمحات سريعة عن الشخصيات التي رسمها في لوحاته مثل دوقة أوسونا الرائعة، التي لم تخش مناصرة قضايا تتراوح بين سجون النساء وتعليم الأطفال والتطعيم.

كان جويا يكسب مالاً كثيراً، ويشتري العربات السريعة، ويشم النجاح. إلا أن المرض أصابه في عام ١٧٨٢، وكان في السادسة والأربعين، فغادر مدريد إلى الجنوب. وكان من الصعب تحديد مرضه، فربما كان شلل الأطفال أو الالتهاب السحائي، ولكنه ظل شهوراً يعاني من الدوخة والحرارة المرتفعة والعمى الجزئي، وحين عاد كان قد أصابه الصمم التام. وقد عاش في صمت حتى نهاية حياته. وكان الظلام يصعد إلى السطح في صور الغرف الخاصة بمصارعة الثيران (سحر العمر) واللصوص والسجون والمجانين. ومع ذلك فقد استعاد مكانته في عهد الملك الجديد كارلوس الرابع وزوجته ماريا لويسا واستمر في رسم بورتريهاته المتألقة لدوقة ألبا. وعرض جويا أحد تلك البورتريهات، وهو «الدوقة البيضاء»، الذي يشبه لوحات جينزبورو وتظهر فيه الدوقة مرتدية فستاناً شفافاً ومعها كلب صغير، عرضاً عاماً. أما «الدوقة السوداء»، حيث تشير إلى عبارة Slo Goya المكتوبة تحت قدميها، فكانت في الواقع من أجل جويا وحده. ورغم هذا الدليل على انشغاله، يرفض هيوز فكرة وجود علاقة غرامية، وهو مصر على أن «الجميلة العارية» الصريحة و«الجميلة الكاسية» المحتشمة التي رسمها بعد بضع سنوات تشتركان في كتلة من خصلات الشعر السوداء لدى الدوقة القوية. بل إنه يقول إن الجميلة هي عشيقة مانويل جودوي الطموح، وهو الوزير الأول وحبيب الملكة المزعوم.

كان جويا لا يزال قادراً على رسم السعادة، مثل ملائكته الوردية المحلقة في كنيسة القديس أنطوني بمعرض بادوا، إلا أن تشاؤمه كان قد تأصل في ذلك الوقت. ونحن نشعر به شعوراً قوياً في المستنسخات الداكنة الوحشية للوحات Caprichos التي رسمها في ١٧٩٦ . ١٧٩٧ وتنتقد بشدة الزواج القائم على النفاق، والعاهرات المستغلات، والأطباء المزيفين، والخرافة المريعة، وتعذيب محاكم التفتيش، و«الأسطورة السوداء» التي كان جويا يكرهها كراهية «الإنساني سريع الغضب». ولم تكن تلك المستنسخات تُباع منها أعداد كبيرة. ولكنها كانت تُنشر على الأقل، على عكس سلسلة «كوارث الحرب» اليائسة الشجاعة. وقد رسم هذه السلسلة بعد عقدين من الزمان، بعد أن دمر أسبانيا الغزو النابليوني أولاً، ثم حرب شبه الجزيرة التي حارب فيها البريطانيون بقيادة ويلنجتون (الذي رسم جويا وجهه الذي أجهدته الحرب) إلى جانب رجال حرب العصابات المخيفين. وتزايدت الفظائع على الجانبين. وكان جويا يرى، كما تبين لوحة «كوارث»، أنه لا مجد في الحرب؛ فليس هناك سوى أحشاء خارجة، ويتامى، وإعدام بلا محاكمة، واغتصاب، وألم، ودم، ويأس.

ظهرت بارقة أمل لليبراليين الأسبان مع دستور ١٨١٢، الذي احتفى به جويا بلوحة الملائكة فيها تشع ضوءاً. إلا أن هذا البارقة اختفت كذلك. فبعد عامين عاد فرناندو السابع. ولكي يقضي جويا ساعتها على أدنى إشارة إلى التعاون، ألح في طلب رسم اللحظة المجيدة التي هبت فيها مدريد ضد الغزاة. وفي لوحة «الثالث من مايو ١٨٠٨»، يبدو أن الرجل ذا القميص الأبيض الذي يرفع ذراعيه كاشفاً رقبته لفرقة إعدام مجهولة ينذر بكل تلك الصراعات التي ستحدث ويواجه فيها الناس وحشية الحرب الحديثة الميكنة.

كان جويا في ذلك الوقت قد بلغ السبعين تقريباً. في البداية فر إلى منزله الريفي خارج مدريد، الذي كانت تغطي جدرانه «اللوحات السوداء» الكبيرة، وكأنه يعيش في عالم، رفاقه الحقيقيون فيه هم العفاريت، والغوغاء الصارخون، والآباء آكلو لحوم البشر المخيفون. وفي النهاية فر إلى مكان أبعد، حيث غادر بلاده الحبيبة ليعبر الحدود إلى فرنسا التي توفي فيها في عام ١٨٢٨. ولكن إذا كان جويا، كما يبين هيوز في هذه الدراسة الدقيقة والمؤثرة، أسبانياً كأشد ما يكون، حيث عبر الخط الفاصل بين «أسبانيا القديمة» وأحلامها المستنيرة، فإن فنه يعبر كل الحدود؛ حدود الزمان والمكان، والعقل واللاعقل، والحياة البهيجة والموت العنيف. ■

Goya

(جـــويـــا)

Robert Hughes

Knopf Pub. Group, 2003, 448 pp.

ترجمة: أحمد محمود



الماخــا (تفصيل) ^

الثالث من مايو ١٨٠٨ (تفصيل)



■■ الأمر الشائع بين مؤرخى الفلسفة أنها نشأت فى اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد. ففى ذلك التاريخ ظهر فى مدينة ملطية بأيونيا على شاطئ بحر إيجه من آسيا الصغرى (تركيا حاليا) ثلاثة فلاسفة هم طاليس وأناكسمنس وأنكسمندر، وتكونت منهم المدرسة الأولى من الفلاسفة قبل سقراط. وكان اهتمام الفلاسفة الأول منصبا على الطبيعة، أو على مادتها الأساسية (أو عنصرها الأول) التى (أو الذى) تكونت منها (أو منه) سائر العناصر والأشياء. ولذلك وصف فلاسفة أيونيا بأنهم «طبيعيون».

وكانت للفلاسفة قبل سقراط مؤلفات مكتوبة لم يبق منها إلا شذرات ترد على سبيل الاستشهاد فى كتب المتأخرين بداية من أفلاطون وأرسطو (القرن الرابع ق.م.). فيروى عن طاليس أنه قال إن الماء هو أصل الأشياء جميعا؛ وإن الأشياء ملأى بالآلهة، وإن المغنطيس حى أو له «نفس». ويروى عن أناكسمنس أنه قال إن أصل العالم هواء؟

عبدالرشيد الصادق محمودى

آراء حسن طلب تظل فى مأمن من النقد طالما اقتصرت على هذه الطرق المعبدة واكتفت بإيراد الحجج المسفهة لنظرية المعجزة اليونانية. غير أنه بطبيعة الحال لا يكتفى بهذه الحجج السلبية، بل يقدم نظرية إيجابية مضادة، وهى أن الفكر الفلسفى نشأ فى مصر قبل أن ينشأ فى اليونان

رأسهم بيرنت ينكرون أن تكون للفلسفة أصول شرقية أو مصرية، لأنهم يعتقدون أن الفلسفة كما نشأت فى اليونان كانت ذات طابع «علمى» و«عقلانى» و«نظرى خالص»، فى حين كانت المعارف فى الحضارات الشرقية بصفة عامة وفى مصر بصفة خاصة مشوبة بالأساطير والمعتقدات الدينية والمنافع العملية. ولنلاحظ كيف يؤكد بيرنت على «الطابع العلمى» للفلسفة الأيونية وعلى أنها لم تكن مجرد تخمينات، بل كانت شأنها شأن العلوم الوضعية الحديثة تقوم على المشاهدة والتجربة. ولقد كان اليونانيون فى رأيه هم منشئو العلم الوضعى فى الأصل. وكانت الفلسفة الأيونية «علمانية» فيما يدعى.

وهناك نقطة مهمة أخرى ينبغى إبرازها لأنها ليست واضحة تماما فيما يقوله حسن طلب، وهى أن أصحاب هذه النظرية يعتقدون أن الفلسفة اليونانية لم تقطع الصلة بالتراث الأسطورى والدينى فى بلاد الشرق ومصر فقط، بل

الفلسفة

أما أقوال ثالث الأيونيين أنكسمندر فهى تسترعى الانتباه وتثير الخيال. فالمادة الأساسية التى تكونت منها الأشياء ليست ماء ولا هواء ولا أيا من العناصر، بل هى مغايرة لكل شىء وليست لها طبيعة معروفة. لذلك سماها «تو أبيرون» أى اللامحدد أو اللامحدود، ووصفها بأنها لا تفسد ولا تموت، ورأى أنها متحركة ونامية بذاتها. والأغرب من ذلك تلك العملية التى تنشأ بها الأشياء وتفنى. فبفضل الطاقة التى تعتمل فى «اللامحدود» تكونت العناصر عن طريق الانفصال؛ ومن العناصر تكونت الأشياء المألوفة؛ ولكن هذه الأشياء تعود فتفنى فيما نتجت عنه. وذلك أن نشأة أى شىء تنطوى على نوع من العدوان على شىء آخر، ومن ثم يلقى المعتدى عقابه بأن يفنى فيما نشأ عنه. يقول أنكسمندر فى الشذرة الوحيدة المتبقية من كتاباته: «الأشياء تفنى فى تلك الأشياء التى تولدت عنها، وذلك طبقا لما قضى به؛ فهى تعوض أحدها الآخر وتدفع جزاء ما ارتكبت من ظلم طبقا لترتيب الزمان».

وكانت آراء هؤلاء الفلاسفة الأول إيذانا بانطلاق موجة فكرية عارمة. ففى غضون قرنين من الزمان بعد تلك البداية وضعت الفلسفة اليونانية أسس المذاهب الرئيسية من واحدية (تؤمن بالتغير دون ثبات أو بالثبات دون حركة أو تغير) وتعددية وذرية وعقلانية وسفسطائية متشككة نسبية ومثالية إلى آخر القائمة. حتى إذا انتهى الأمر إلى أرسطو بلغت الفلسفة اليونانية أوجها؛ فقد جمع «المعلم الأول» كل الروافد السابقة وألف عن طريق تحليلها ونقدها نسقا شاملا نظم فيه كل المعارف وأسس منها كل العلوم فيما عدا الرياضيات (المنطق والميتافيزيقا والطبيعة والحياة وعلم النفس والأخلاق والسياسة ونقد الخطابة والشعر). ومن ثم كانت الفلسفة بوصفها أم العلوم.

ولقد أثارت نشأة الفلسفة الجدل منذ القدم. فبداية من أفلاطون وأرسطو على الأقل أصبح اليونانيون يدركون ضخامة الظاهرة الجديدة وأهميتها ويحرصون على انتسابها إليهم؛ وظهر القول بأنها كانت يونانية خالصة. وفى العصر الهلنستى ظهر القول بأنها ترجع إلى أصول شرقية. وما زال الجدل مستمرا حتى يومنا هذا. فما هى الحضارة التى يحق لها ادعاء ذلك الشرف العظيم؟

أصل الفلسفة.. حول نشأة الفلسفة فى مصر القديمة وتهافت نظرية المعجزة اليونانية
حسن طلب
القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣

نظرية المعجزة اليونانية

يرى الدكتور حسن طلب - الشاعر المرموق وأستاذ الفلسفة - فى كتابه أصل الفلسفة أن الفلسفة لم تنشأ فى اليونان، بل نشأت فى مصر الفرعونية. وهو يدير فى كتابه نقدا مطولا لما يسمى نظرية المعجزة اليونانية، وهى نظرية يؤمن أصحابها - فيما يقول - بأن الحضارة اليونانية والفلسفة منها خاصة نتاج خالص للعبقرية اليونانية، وإنجاز طارئ غير قابل للرد إلى أصول أخرى سابقة عليه، خاصة الأصول الشرقية، والمصرية منها على نحو أخص.

وللنظرية أنصار كثيرون، ولكن المؤلف يركز نقده على بيرنت فى كتابه عن بواكير الفلسفة اليونانية. ومن المهم فى البداية أن نتبين أمرا لم يوضحه حسن طلب ولا بيرنت، وهو منشأ النظرية وسر تسميتها. وذلك أن صاحب الفكرة الأولى فى النظرية وأول من أطلق عليها ذلك الاسم الذى اشتهرت به هو الفرنسى الشهير إرنست رينان فى «صلاته» ذائعة الصيت على الأكروبول: «... فها هى المعجزة اليونانية قد أتت لتقف أمامى إلى جانب المعجزة اليهودية، وهى شىء لم يوجد إلا مرة واحدة، ولم ير من قبل قط، ولن يرى بعد ذلك أبدا، ولكن آثاره ستبقى إلى الأبد، أو لنقل إنها نوع من الجمال الأبدى الذى لا تعلق به شائبة محلية أو وطنية».

ومعنى ذلك أن فكرة المعجزة اليونانية نشأت فى أحضان الوضعية الفرنسية كما عبر عنها رينان، وهو ما يساعدنا على فهم ما انطوت عليه النظرية من مغالاة فى مناصرة العلم (النزعة العلموية) وتقديس لليونان (مع تداعياته العنصرية). فأصحاب النظرية وعلى قطعتها مع التراث اليونانى المماثل أيضا. فقد كان لدى اليونان تراث حافل بالأساطير والمعتقدات الدينية كما ورد فى هوميروس وهزيود وغيرهما من الشعراء والمفكرين من المفكرين الذين عنوا بأصل العالم وأنساب الآلهة، ولكن الفلسفة اليونانية - كما يدعى أصحاب النظرية - نأت بنفسها عن كل ذلك وتحررت منه تماما. من هنا كان بيرنت يقول: «وفى كل ذلك - أى فى آراء الأيونيين - لم يكن هناك أثر للتأمل اللاهوتى. فقد رأينا أنه كان هناك انقطاع كامل عن الدين الإيجى المبكر، وأن تعدد الآلهة الأوليمبية لم يكن له قط أى سيطرة محكمة على العقلية الأيونية. ومن الخطأ بناء على ذلك أن يبحث عن أصول العلم الأيونى فى الأفكار الأسطورية من أى نوع». بل إنه يدعى فى موضع آخر أن أيونيا كانت بلادا بلا خلفية من التقاليد الموروثة ولا ماض.

وباستطاعتنا إذن أن نفهم فكرة المعجزة كما تستخدم فى هذا السياق. فقد كانت نشأة الفلسفة اليونانية وفقا للنظرية المذكورة خرقا لمجرى الأمور المألوفة ولم يكن لها أصل فى التاريخ؛ فكأنها حدث من خارج التاريخ. وفى هذا الصدد يقول مؤرخ فرنسى فى معرض التعبير عن هذه النظرية: «لم تكن نشأة الفلسفة اليونانية تغيرا فى الاتجاه الفكرى، أو تغيرا عقليا، بل كانت إلهاما حاسما ونهائيا هو: اكتشاف العقل». ويترتب على ذلك أن من العبث البحث فى الماضى عن أصول التفكير العقلانى.

فالفكر الحقيقى لا يمكن أن يكون له أصل إلا ذاته. هو خارج عن التاريخ... ولما كانت الفلسفة مسافرا دون متاع، فمن المفترض أنها تأتى إلى العالم دون ماض، ودون والدين، ودون أسرة: إنها بداية مطلقة».

أما الشواهد على ما فى النظرية من عنصرية وإيمان بالمركزية الأوروبية فهى متعددة. ومن الواضح أن بيرنت لم ينج من هذه التركة الرينانية: فهو يعبر عنها دون التباس. ومن ذلك أنه يبذل قصاراه لكى يثبت أن كل المؤثرات الأجنبية الإيجابية التى ساعدت العبقرية اليونانية على أن تتطور بحرية جاءت من الشمال (لا من الشرق أو الجنوب)، وهى التأثيرات التى حدث من تسرب الخرافة إليهم كما حدث فى مصر وبابل.

ونحن إذن بإزاء نظرية متطرفة. فهى تدعى أنها ذات طابع علمى فى حين أنها تفترض أن الفلسفة نشأت فى فراغ ودون أسباب أو مقدمات، ولأنها تؤمن بتفوق أحد الأجناس على الأجناس الأخرى. وحسن طلب لا يجد صعوبة فى دحضها بمجموعة من الاعتراضات المعقولة والمقبولة. فهو يفترض عن حق أن الفلسفة لا يمكن أن تكون قد نشأت فى فراغ. وهو يرى صراحة وعن وجه حق أن الفلسفة من حيث هى تفكير نظرى لا بد كانت متصلة بما سبقها من أساطير وأفكار دينية واهتمامات عملية، وأنها كانت استمرارا لذلك كله. وهو يرفض ما تنطوى عليه النظرية من أفكار عنصرية.

ساحة المعركة الحقيقية

وآراء حسن طلب تظل فى مأمن من النقد طالما اقتصرت على هذه الطرق المعبدة واكتفت بإيراد الحجج المسفهة لنظرية المعجزة اليونانية. غير أنه بطبيعة الحال لا يكتفى بهذه الحجج السلبية، بل يقدم نظرية إيجابية مضادة، وهى أن الفكر الفلسفى نشأ فى مصر قبل أن ينشأ فى اليونان، وأنه انتشر - كما انتشر غيره من مظاهر الحضارة - إلى اليونان. وهو يرى أن هذا الانتشار كانت له معابر؛ فقد انتقل التأثير المصرى عن طريق كريت، وآسيا الصغرى، والعبرانيين، ووقع على اليونان مباشرة. وبالإضافة إلى هذه الآراء الأنثروبولوجية والتاريخية يقدم المؤلف دراستين إحداهما عن ارتباط الفلسفة بالأساطير والمعتقدات الدينية، والأخرى تقارن بين الفكر المصرى والفكر اليونانى فى مجال القيم الدينية والأخلاقية والجمالية، وذلك لتثبت أن الأصول المصرية كان لها ما يشبهها ويتفرع عنها فى اليونان.

وسوف أرجئ مناقشة هذه الحجج إلى موضع آخر من المقالة لأننى ألاحظ منذ الآن أن المؤلف فى كل حجاجه قد أغفل إيراد الحجة الحاسمة التى تقضى على أسطورة المعجزة اليونانية قضاء مبرما، وهى أن نصوص الفلاسفة الأيونيين التى تستند إليها تكذبها. وذلك أن أقوال طاليس عن العالم المليء بالآلهة وأقوال أنكسمندر عن العدالة التى تعاقب الكائنات الطبيعية على ما ارتكبت من ظلم لا يمكن أن تكون علمية ولا بد أنها مشوبة بالأساطير والعقائد الدينية. وسوف نفصل القول فى هذه الفكرة فيما يلى. ولكن من الغريب أن مؤلف أصل الفلسفة يتجاهل تماما موضوع البحث الأساسى، وهو أصول الفلسفة اليونانية كما ظهرت فى أيونيا فى القرن السادس قبل الميلاد، وكما عبر عنها الفلاسفة اليونانيون الأول فى نصوصهم المتبقية. كيف كانت علاقة أولئك الفلاسفة بالتراث الدينى والأسطورى السابق؟ هل من الصحيح أن آراءهم منقطعة الصلة بهذا التراث أم كانت بمعنى ما استمرارا له؟ هل كانت تلك الآراء «علمية»، وبأى معنى؟

وحقيقة الأمر أن هذه الآراء ذات طابع إشكالى واضح. فهم يصنفون بوصفهم فلاسفة «طبيعيين» أو «ماديين» أو «علماء» أو آباء للعلم. ولكن من الواضح أنهم كانوا يستندون إلى تراث من الأساطير والمعتقدات الدينية. ونحن إذن بإزاء نقطة مفصلية فى تاريخ الفكر: نقطة التحول

فرعونيا!





من الأسطورة إلى الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة. وعلى هذه النقطة ينبغى أن ينصب البحث أولا لكى يحدد مدى إسهام مصر - إذا كان لها أى إسهام - فى ذلك التحول. هل تضمن التراث الدينى والأسطورى الذى استند إليه أولئك الفلاسفة عناصر مصرية؟ هل كانت المصادر التى تأثر بها هؤلاء الفلاسفة عند تحولهم إلى التفكير الفلسفى بالمعنى الدقيق للكلمة مصرية؟ هل ساعدت مصر على ذلك التحول؟

غير اننا نبحث عبثا فى كتاب حسن طلب عن أى جهد مركز على هذه الساحة: فهو لا يناقش الفلاسفة الأوائل فى نصوصهم، ولا يناقش نشأة الفلسفة اليونانية كما وقعت فى سياقها التاريخى، وهو لا يناقش تأثير مصر - إذا كان لها تأثير - على هؤلاء الفلاسفة الرواد. ولكننا نراه بدلا من ذلك يوسع نطاق البحث ويتناول قضايا عامة ليس لها صلة مباشرة بالموضوع المحدد. فهو يستعين بالنظريات الأنثروبولوجية عن الانتشار الثقافى، والنظريات التاريخية عن المعابر التى انتقلت عن طريقها المؤثرات المصرية إلى اليونان؛ ويتناول بصفة عامة العلاقة بين الأسطورة والفلسفة: ويقارن بصفة عامة بين القيم المصرية وبين مثيلاتها فى اليونان. ولكن ذلك كله لا يمس صميم الموضوع، ولا يمكن أن يثبت على نحو قاطع أن الفلسفة اليونانية نشأت أصلا فى مصر أو كانت لها أصول مصرية أو أنها تأثرت بفلسفة مصرية أو حتى بأساطير مصرية. وأقصى ما يمكن إثباته هو أن من المحتمل أن تكون بعض الأفكار المصرية قد انتقلت إلى اليونان وأثرت فيها على نحو أو آخر.

إن إيثار مؤلف أصول الفلسفة للتحرك على نطاق واسع بدلا من مواجهة الموضوع فى نطاقه الطبيعى المحدود قد ترتب عليه ترك ساحة المعركة الحقيقية مفتوحة لنظريات منافسة ليس لديه رد عليها. فقد استند أصحاب هذه النظريات إلى تحليل دقيق ودراسة شاملة لنصوص الفلاسفة المعنيين فى سياقها التاريخى؛ وتمكنوا بناء على ذلك من نقض النظرية المتطرفة بأدلة قاطعة ومن سد الطريق أمام نظرية المؤلف فيما يتعلق بالأصول المصرية للفلسفة.

نظرية الأصول اليونانية

قلنا إن نظرية المعجزة اليونانية نظرية متطرفة. وهى رغم كثرة أشياعها لم تكن موضع إجماع بين المؤرخين الغربيين. وقد تعرضت للنقد - على الأقل منذ أن عرضها بيرنت. وهناك فيما أعلم بديلان عنها. وأول البديلين نظرية ترمى إلى أن تثبت أن الفلسفة اليونانية الناشئة كانت بالفعل امتدادا لتراث من الأساطير والمعتقدات الدينية والممارسات الاجتماعية ولكن هذا التراث كان يونانيا على سبيل الحصر او فى المقام الأول. ويترتب على ذلك أن الفلسفة ترجع فى نهاية المطاف إلى أصول يونانية وليست شرقية ولا مصرية. وسوف أسمى هذه النظرية نظرية الأصول اليونانية على أن يفهم من هذا الأصول الأسطورية والدينية وما إلى ذلك من تقاليد سابقة على الفلسفة.

ومن الغريب أن مؤلف أصل الفلسفة يغفل ذكر هذه النظرية المعتدلة رغم أنها معروضة فى بعض مراجعه. فهو يشير إلى دراسة كورنفورد التى عنوانها من الدين إلى الفلسفة.٣ ولكنه لا يشير إلى ما هو واضح ومشهور، وهو أن كورنفورد هو المفند الأول والأعظم لنظرية المعجزة اليونانية. ورغم أن كورنفورد لا يذكر النظرية بالاسم بل ولا يشير إلى بيرنت إلا على نحو عارض، فإنه لا يدع مجالا للشك فى أنه يعمل على تقويض آراء الرجل من أساسها. فهو ينص على أن الفلسفة لم تنشأ فى اليونان من فراغ. ولا ينبغى لنا - فيما يقول - أن نتخيل أن طاليس أو أنكسمندر كانا مثل آدم يوم خلق لأول مرة دون تقاليد يستند إليها ودون مخطط موروث للأشياء، وأنه كان يفتح عينيه البريئتين على عالم من الانطباعات الحسية التى لم تنسق بعد فى أى بنية من المفاهيم. ولم تكن نشأة الفلسفة فى رأى كورنفورد عن طريق القطيعة مع التراث الأسطورى والدينى السابق، بل كانت تفترضه وتعتمد عليه. فالدين والفلسفة - كما يقول - ليسا مجالين متميزين للفكر بينهما نوع من حرب الحدود. ومن الممكن النظر إليهما بالأحرى بوصفهما مرحلتين متعاقبتين أو طريقتين من طرق التعبير عن مشاعر الإنسان ومعتقداته عن العالم.

وتطبيقا لهذه المبادئ يثبت كورنفورد أن أقوال أنكسمندر تنطوى على بنية عميقة من المفاهيم تتمثل فى الإيمان بأن العالم يخضع لنظام شامل لا ينفصل فيه شىء عن أصله ويصبح مستقلا إلا عن طريق السطو والعدوان، وأن المعتدى لا بد أن يدفع تعويضا عما ارتكب من ظلم بحيث يفنى فيما نشأ عنه. وهو يعلق على قول أنكسمندر «كاتا تو كريون» (أى طبقا لما قضى به، أو القضاء باختصار) فيقول إن الفكرة تجمع بين مفهومى «القدر» و«الحق»، وأنها القوة التى تقضى بما لا بد أن يكون (بحكم الواقع) وبما ينبغى أن يكون. ويرى من ثم أن الفكرة ذات طابع أخلاقى. وهو يرجع الفكرة إلى جذورها فى الأساطير اليونانية كما ترد فى هوميروس وهزيود، وإلى فكرة «المصير» (مويرا). فرغم أن آلهة الأوليمب خالدة وقادرة على خرق قوانين الطبيعة، فإنها ليست قديمة قدم العالم وليست قادرة على كل شىء لأنها محدودة بالمصير الذى ليس من صنعها ولا تستطيع أن تقف فى وجهه.

ويرى كورنفورد أن تلك البنية كانت راسخة متحكمة فى معتقدات اليونان عن آلهة الأوليمب. وهو يستخلص من ثم أن آراء أنكسمندر عن طبيعة العالم ونظامه لم تكن إلا صياغة جديدة بعبارات عقلانية لوجهة نظر للعالم سابقة على التفكير العلمى.

ولا يكتفى كورنفورد بتعقب الأفكار اليونانية الأولى إلى أصولها الأسطورية والدينية، بل ينتقل إلى مستوى أعمق من التقصى فيرى أن تلك البنية من المفاهيم هى من قبيل التصورات الجماعية - بالمعنى الذى يريده دوركايم - لدى اليونان القدماء. وهى تصورات عميقة الجذور مستقلة عن إرادة الأفراد تورث لهم وتتحكم فى كل ما أنتج اليونان من فكر بمختلف أشكاله.

النظرية الاستشراقية

وهناك نظرية أخرى منافسة لنظرية حسن طلب، سأسميها نظرية الاستشراقيين أو نظرية الأصول الشرقية، وهى النظرية التى يرى أصحابها أن الفلسفة اليونانية ترجع إلى أصول شرقية. والواقع أن كورنفورد يترك الباب مواربا لمثل هذه النظرية. فهو يلاحظ - كما سأبين فيما بعد - وجود أوجه شبه عديدة بين الأساطير اليونانية والأساطير الشرقية، دون أن يجزم بوجود علاقة من التأثير والتأثر. أما الاستشراقيون فيتعمقون فى البحث شرقا؛ ولعلهم يجزمون بأن التأثير الشرقى قد وقع بالفعل؛ بل ان بعضهم يجزم بأنه وقع على الفلاسفة اليونانيين أنفسهم.

ويشير بيرنت إلى أنه وجد لهذه النظرية منذ عصر البطالمة أنصار يحاولون على نحو متعسف أن يرجعوا الفلسفة اليونانية إلى مصادر مصرية ويهودية. ويقال إن بعض الباحثين الألمان فى القرن التاسع عشر قد حاول أن يقيم علاقات مباشرة بين الفلسفات اليونانية قبل سقراط وبين الحضارات الشرقية: بين فيثاغورث والصين، وبين الإلياتيين والهند؛ وبين أمبدوقليس ومصر؛ وبين هرقليطس وزرادشت؛ وبين أنكساجوراس وبنى إسرائيل.

ولكننى لن أتوقف طويلا عند هذه الآراء المتطرفة. وسأكتفى بالإشارة إلى نظرية استشراقية معاصرة لأنها بدورها

أثارت نشأة الفلسفة الجدل منذ القدم. فبداية من أفلاطون وأرسطو على الأقل أصبح اليونانيون يدركون ضخامة الظاهرة الجديدة وأهميتها ويحرصون على انتسابها إليهم؛ وظهر القول بأنها كانت يونانية خالصة. وفى العصر الهلنستى ظهر القول بأنها ترجع إلى أصول شرقية

كان المصريون القدماء يعتقدون أن بداية العالم المطلقة شىء لا يمكن فهمه أو تعريفه؛ فهو نوع من الخواء أو العماء أو لنقل العدم. وقد ظهر الوجود فى أولى تجلياته على شكل ماء، محيط أزلى كان الإله الخالق مستقرا فيه مغمورا فى حالة من الكمون

تتميز بالاعتدال وتتخذ نقطة انطلاقها من نصوص الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط. والنظرية التى أعنيها لمستشرق بريطانى يدعى إم. إل. وست له كتاب يضم مجموعة من الدراسات عن بواكير الفلسفة اليونانية والشرق. وجدير بالذكر أن وست لم ينشر بحوثه إلا بعد أن اتقن الهيروغليفية والعبرية والأفستية والبهلوية والسنسكريتية وغيرها من اللغات ذات الأهمية العارضة - على حد تعبيره. وقد رأى أن يدرس هذه اللغات لأنه أراد أن يقرأ النصوص الأصلية فى الحضارات المختلفة وأن يقارن بينها. وهو يتوصل إلى بعض النتائج المثيرة. ومثال ذلك أنه يعتقد نتيجة للمقارنة أن مؤثرات فارسية قد وقعت على أنكسمندر، ويرى مثلا أن فكرة «الأنوار اللامحدودة» التى ترد فى أحد النصوص البهلوية المقدسة ما يقابل فكرة أنكسمندر عن «اللامحدود».

غير أن النتائج التى توصل إليها هذا الباحث الشجاع ليست فى صالح حسن طلب. فهو أى وست لا يرجع المؤثرات إلى مصر فقط، ولكنه يرجعها إلى عدة مصادر أخرى شرقية، وأهمها - حسب رأيه - مصادر فارسية. وهو يرى فى نهاية المطاف أن أفكار الفلاسفة الذين درسهم تختلف عن الأفكار الدينية والأسطورية الشرقية التى تأثرت بها ويسلم لهؤلاء الفلاسفة بالطابع «العلمى» لآرائهم. وكأنه يريد أن يقول: ليس هناك انقطاع كامل بين الأفكار الدينية والأسطورية الشرقية من ناحية وبين الأفكار الفلسفية اليونانية من ناحية أخرى. ولكن الفلسفة اليونانية الأولى تمكنت من تحويل تلك المواد الشرقية وفقا لمنطقها «العلمى» أو «العقلانى» كما حدث فى حالة المواد الأسطورية والدينية اليونانية. وبهذا المعنى تظل الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة صناعة يونانية فى نظر هذا المستشرق.

لقد قصّر حسن طلب عندما أغفل ذكر هاتين النظريتين المعتدلتين: نظرية الأصول اليونانية ونظرية الأصول الشرقية المتعددة. وهو يكتب كما لو كانت ساحة النقاش قد خلت إلا من النظرية المتطرفة - نظرية المعجزة اليونانية - التى تفترض أن الفلسفة اليونانية نشأت دون أصول على الإطلاق، وعلى نظريته التى هى بدورها متطرفة لأنها تفترض - دون دعم من دراسة النصوص ذات الصلة- أن الفلسفة اليونانية ترجع إلى أصول مصرية على سبيل الحصر.

ولو أننا تمعنا فى الأمر قليلا لبدا لنا أن مؤلف أصل الفلسفة كان مضطرا من الناحية المنطقية إلى تحاشى النصوص ذات الصلة وإهمال النظريتين المعتدلتين اللتين تقومان على دراسة هذه النصوص، وذلك أن السير فى هذا الطريق ينتهى إلى سد الباب تماما أو بصفة جزئية أمام التأثير المصرى. فالنظرية الأولى لا تورد لهذا التأثير ذكرا؛ أما النظرية الثانية فتعده على أفضل تقدير رافدا من بين عدة روافد شرقية أثرت على الفلسفة اليونانية على نحو مباشر أو غير مباشر دون أن ينال ذلك من تجديدها وأصالتها. والدرس الرئيسى الذى يمكن أو يجب استخلاصه من دراسة النصوص كما أجريت حتى الآن هو أن الفلسفة اليونانية - وقد ثبت أنها تستند إلى أصول أسطورية يونانية وغير يونانية - قد نجحت فى استيعاب كل ذلك وطبعه بطابعها الأصيل. ولم يبق أمام حسن طلب إذن إلا أن يلجأ إلى حجج عامة فضفاضة مستمدة من الأنثروبولوجيا والتاريخ وإلى آراء عامة عن صلة الفلسفة بالأسطورة والدين ومقارنات عامة تظهر أوجه شبه بين الفكر المصرى والفكر اليونانى.

ويبدو فى ظل الأوضاع المعرفية التى أشرنا إليها أن أقصى ما يمكن لنظريات حسن طلب أن تفضى إليه هو أن من المحتمل أن تكون الحضارة المصرية قد أسهمت مع حضارات شرقية أخرى فى نشأة الفلسفة اليونانية دون أن يقلل هذا الإسهام من جدة هذه الفلسفة من حيث هى فلسفة.

فلنأخذ مثلا أقواله فى العلاقة بين الفلسفة والأساطير بصفة عامة. لقد أصبح من الواضح أن القضية لا يمكن أن تحسم عن طريق نقاش نظرى عام، وذلك لأن العلاقة كما يتبين من دراسة النصوص المعنية ذات طابع إشكالى وما زالت موضع خلاف بين الباحثين.

أما المقارنات التى يعقدها صاحب أصل الفلسفة بين الفكر المصرى والفكر اليونانى فى مجال القيم، فإنها بدورها لا يمكن أن تفضى إلى نتائج حاسمة. فوجود أوجه التشابه بين طرفى المقارنة لا يثبت بالضرورة أن ثمة علاقة من التأثير (المصرى) والتأثر (اليونانى). يصدق هذا بصفة خاصة على النزعات الميتافيزيقية والمادية والمثالية والارتيابية التى يرى المؤلف أنها وجدت أصلا فى مصر ونشأت لها فروع فى اليونان. فقد يقال إن اليونانيين قد تأثروا فى هذه المجالات بحضارات أخرى، أو أنها نشأت لديهم على نحو مستقل لأنها خليقة بأن توجد فى أى حضارة لها حظ من التفكير.

التشابه المراوغ

للتدليل على أن الاعتماد على التشابه لا يمكن أن يؤدى إلى نتائج حاسمة يمكننا أن ننظر فى تلك المقارنة المهمة التى يعقدها المؤلف بين مفهوم «الماعت» (أى العدل) المصرى وبين ما يناظره فى الفكر اليونانى. وترجع هذه الأهمية إلى أن التشابه بين طرفى المقارنة يبدو صارخا فضلا عن أن من الممكن توثيقه بالنصوص. فمفهوم «الماعت» المصرى يقابله ويناظره على نحو لافت للنظر مفهوما «العدل» (ديكيه) لدى الفلاسفة اليونانيين و«القدر» أو «النصيب» (مويرا) فى الأساطير اليونانية. وذلك أن فكرة «الماعت» المصرية كما يبين المؤلف تلعب دورا جوهريا ومتشعبا فى الحياة الدينية والأخلاقية المصرية القديمة، ولها تاريخ طويل ومدلولات متعددة. فهى قد تعنى النظام والتوازن الكونى، كما قد تعنى العدالة أو الحق أو سواء السبيل أو نقيض الباطل بالمعنى الخلقى أو النظام الخلقى أو القومى إلى غير ذلك من الدلالات. وهو محق تماما عندما يشير إلى ما يناظر مفهوم «الماعت» لدى اليونان: لدى شعراء مثل هوميروس وهزيود، ولدى فلاسفة مثل أفلاطون. بل وينبغى أن نضيف إلى هذه القائمة بعض الفلاسفة الطبيعيين قبل سقراط، وعلى رأسهم أنكسمندر. فالنص الذى استشهدنا به من أنكسمندر وشرحه كورنفورد يتضمن معنى موروثا للعدل (بوصفه دفع تعويض)، كما يتضمن فكرة العدل بوصفه مرادفا للنظام الكونى. وهذه بدورها فكرة مركبة، فعبارة «وفقا لما هو مقضى» (كاتا تو كريون) تعنى وفقا للنظام القائم (ما هو ضرورى بحكم الطبيعة) ووفقا لما تمليه الأخلاق (وفقا لما ينبغى أن يكون). وغنى عن الذكر أن فكرة العدل تكتسب لدى أفلاطون وأرسطو معانى أخرى تناسب المجالات الدينية والسياسية والقانونية والأخلاقية الفردية.

وقد يغرينا هذا التشابه كما أغرى مؤلف أصل الفلسفة بأن نستنتج أن اليونانيين لا بد قد نقلوا مفهومهم عن العدل بمعانيه المتعددة أو فى بعض معانيه عن المصريين. ولكن كل ذلك يتحول إلى سراب إذا تذكرنا ما أوضحه كورنفورد نفسه من أن فى الحضارات الهندية والصينية والفارسية مفاهيم مماثلة.

الجوانب الإيجابية

غير أننى لا أنكر أهمية البحوث الفضفاضة التى يتسع فيها نطاق الاهتمام على نحو ما فعل صاحب أصل الفلسفة. فهو - بصرف النظر عن تطرفه فى الدفاع عن الإسهام المصرى - يدخل فى نطاق البحوث الاستشراقية التى راجت مؤخرا - مثل كتاب أثينا السوداء - والتى تشمل مختلف جوانب الحضارات المدروسة وتستعين بعلوم الأنثروبولوجيا والتاريخ والآثار ومقارنة الأساطير والأديان. وصحيح أن هذه البحوث لا تستطيع بحكم اتساع نطاقها أن تفضى إلى نتائج حاسمة فيما يتعلق بنشأة الفلسفة ولا أن تنال من أصالة الفلسفة اليونانية، ولكنها قد تستطيع أن تثبت أن الحضارات غير اليونانية قد حققت «معجزات» أخرى - فى مجال العلوم مثلا - وبذلك تساهم فى مقاومة النعرات الأوروبية. بل إن من

ليس هناك انقطاع كامل بين الأفكار الدينية والأسطورية الشرقية من ناحية وبين الأفكار الفلسفية اليونانية من ناحية أخرى. ولكن الفلسفة اليونانية الأولى تمكنت من تحويل تلك المواد الشرقية وفقا لمنطقها «العلمى» أو «العقلانى» كما حدث فى حالة المواد الأسطورية والدينية اليونانية



الفلسفة فرعونيا

الممكن أن يقال إن النتائج المحتملة التى تتوصل إليها فى المجال الضيق للفلسفة لا تخلو من قيمة لأنها قد تحفز على إجراء مزيد من البحوث طلبا لدرجة أكبر من اليقين. وينبغى أن نتذكر فى هذا الصدد أن باب الاجتهاد لم يغلق؛ فدراسة تاريخ العلوم والأساطير والفلسفات فى الحضارات الشرقية- ومن بينها مصر - ما زال يتقدم ويزدهر.

التحول من الأسطورة إلى الفلسفة

كان المصريون القدماء يعتقدون أن بداية العالم المطلقة شىء لا يمكن فهمه أو تعريفه؛ فهو نوع من الخواء أو العماء أو لنقل العدم. وقد ظهر الوجود فى أولى تجلياته على شكل ماء: محيط أزلى كان الإله الخالق مستقرا فيه مغمورا فى حالة من الكمون. فلما أفاق الإله أو ظهر بعد كمون لم يجد شيئا ثابتا يقف عليه أو يجلس إلى أن وجد تلا أو زهرة لوتس أو بيضة. ومن ثم بدأ الإله الخالق بتكوين الأشياء بخلق آلهة أخرى مساعدة.

إن هذا المشهد الأول فى تاريخ الكون يذكرنا بإلحاح بأقوال الفلاسفة الأيونيين: المادة الأولى التى هى أصل كل الأشياء؛ والماء فى حالة طاليس وعالمه المليء بالآلهة أيضا؛ و«اللامحدود» فى حالة أنكسمندر. العنصر المشترك بين المشهد المصرى والمشهد اليونانى هو التفكر فى بدء الوجود بعد أن لم يكن (بعد العدم). وهو أيضا الحرص على أن تكون المادة الأولى قريبة من العدم وإن كانت خصبة غنية بإمكانيات النشوء. ومن ثم كانت تلك المادة السائلة (السابقة على المواد الصلبة) التى هى الماء. ونحن نرى الإمعان فى هذا الحرص فى افتراض أناكسمنس للهواء الذى هو مادة ألطف من الماء (وأقرب إلى نقطة البدء المطلقة) وأغنى بالإمكانيات، وفى افتراض أنكسمندر للامحدود المفعم بالحركة، فهو أحرى بأن يكون أصل كل العناصر والأشياء المعروفة لأنه مختلف عنها وأقرب إلى الأساس أو البداية المطلقة (التى هى العدم).

فنفترض إذن على سبيل الجدال أن فلاسفة أيونيا قد استندوا إلى قصة التكوين المصرية (وغيرها من قصص التكوين الأخرى فى الحضارات الشرقية القديمة التى تعد الماء هو المادة الأولى للخلق). عندئذ يمكننا أن نقول إن الفلسفة تستعير من الأسطورة الاهتمام بالمسائل الأساسية التى تشغل الإنسان: الوجود والعدم والإلوهية. (ومن الممكن أن نستطرد فنضيف إلى القائمة مسائل أساسية أخرى مثل وجود الإنسان فى الكون وحياته وموته وواجباته ومسئولياته).

وقبل أن ننتقل إلى أوجه الاختلاف بين الأسطورة المصرية والفلسفة اليونانية لنلاحظ مدى رقى التصور المصرى من الناحية الميتافيزيقية؛ فهو لا يبدأ بالماء بوصفه المادة الأولى قبل أن يلقى نظرة على العدم، وكأنه يتضمن التساؤل: كيف كان وجود بعد أن لم يكن ثمة شىء؟

ولكن مشهد التكوين المصرى لا يلبث أن يكشف عن طابعه الأسطورى. يحدث هذا عند نقطة الإله الذى يظهر بعد كمون. وبداية من هذه النقطة نرى أننا بإزاء قصة تروى عن الإله وأعماله كما تتعاقب فى الزمان. وكذلك كانت الأساطير اليونانية تعنى بأنساب الآلهة وتسلسل سلالاتهم وأعمالهم. أما فى حالة الفلسفة الأيونية، فقد اختفى طابع القص المتسلسل وانتهى الاهتمام بالأحداث التى وقعت للآلهة. بل لقد بدأ زوال الآلهة الأسطورية من الصورة. فآلهة طاليس التى تملأ العالم حسب قوله لا دور لها إلا بوصفها قوة مجردة تمثل حركة الطبيعة أو نموها أو حياتها. وهى إذن تسهم فى الهم الأساسى للفلسفة الأيونية وهو تفسير نشأة الأشياء بناء على خواصها الذاتية.

وأقول «بدأ زوال الآلهة الأسطورية من الصورة» لأنها لم تزل تماما فى حالة طاليس، وبقى منها شىء. ولكنها أزيلت تماما فى حالة أنكسمندر: فأصل الأشياء هنا يتضمن مبدأ الحركة فى ذاته. ومن الملاحظ أيضا - كما رأى كورنفورد - أن أنكسمندر قد استأصل زيوس وصحبه من آلهة الأوليمب عندما استعاد فكرة القدر (مويرا) القديمة: فالقدر وفقا لهذه الفكرة الأسطورية يعلو حكمه إرادة الآلهة. ومن الممكن بناء على ذلك أن نقول على سبيل الإجمال إن الإسهام «العلمى» و«العقلانى» فى الفلسفة الأيونية يتمثل فى أنها سعت إلى تكوين تصور للطبيعة بوصفها نظاما قائما بذاته له خواصه وخاضع لضروراته الذاتية. وهو إسهام علمى وعقلانى لأنه يقترب من فكرة الطبيعة بوصفها نظاما خاضعا للسببية والقوانين العامة ويمكن للإنسان فهمه بقواه العادية.

والواقع أن القرآن الكريم حقق إنجازا مشابها من وجوه ومختلفا من وجوه أخرى فى مجال العمل على إزالة الأساطير وتمهيد الطريق للفكر الفلسفى عندما دفع بفكرة التوحيد إلى أوجها. فقد قضى على تعدد الآلهة (الشرك) وفصل فصلا حاسما بين الله وبين الطبيعة، وجعل من الطبيعة نظاما مستقلا عن إرادة الإنسان لأنه يجرى على سنن ثابتة. ولم يكن القرآن بطبيعة الحال كتابا فى الفلسفة، ولكن علم الكلام والفلسفة الإسلاميين ما كان يمكن أن تقوم لهما قائمة بدون ذلك الإنجاز. بل وما كان للفلسفة اليونانية أن تؤثر فى مفكرى الإسلام - وقد كان تأثيرها عليهم ضخما بلا شك - لولا أن وجدت لديهم تربة ثقافية موالمة. وبفضل القرآن أساسا استطاع العرب أن يمتلكوا علوم اليونان.

لقد أصاب هيجل عندما رأى أن اليونانيين قد تلقوا البدايات الأساسية لديانتهم وثقافتهم من آسيا وسوريا ومصر؛ وإن كانت التعديلات التى أدخلوها على هذه الموارد تخولهم الحق فى أن تكون ملكا لهم

ولكن ليكن لذلك حديث آخر. ولنعد الآن إلى الإنجاز اليونانى. لقد أصاب هيجل عندما رأى أن اليونانيين قد تلقوا البدايات الأساسية لديانتهم وثقافتهم من آسيا وسوريا ومصر: وإن كانت التعديلات التى أدخلوها على هذه الموارد تخولهم الحق فى أن تكون ملكا لهم. فهل يعنى ذلك أنه ينبغى عند دراسة الفلسفة اليونانية أن نهمل دراسة تلك البدايات؟ هنا أعتقد أن هيجل قد أخطأ - بل لعله ناقض نفسه - عندما اعتقد بناء على رأيه ذاك أن من الممكن فهم ما حققه اليونانيون بمعزل عن الحضارات الأخرى. فحقيقة الأمر أننا لا نستطيع فهم الفلسفة اليونانية فهما كاملا أو أن نقدرها حق قدرها إلا إذا رأينا كيف غيرت ما استعارت وكيف جعلته ملكا له. ومن المؤسف أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك فى جميع الحالات لا لأن اليونانيين قد محوا الكثير بفضل جهودهم الإبداعية فقط، بل لأن تقلبات الزمان وكوارثه قد أتت على الكثير أيضا. وينبغى أن نقول بالإضافة إلى ذلك: «ربما كان الزمان ما زال يخفى الكثير». فالنتائج التى توصلنا إليها هنا قائمة فى ظل الشواهد المتاحة. وليس من المحال أن تكشف جهود الاستشراقيين وعلماء المصريات عن مفاجآت تغير من كل ذلك وتقلب كل الموازين. أقول ذلك وفى ذهنى ما حدث وما يحدث من تقدم فى هذه الدراسات مما يضيق عنه المقام هنا.

والغريب أن حسن طلب يدرك على نحو ما أن ثمة فارقا بين الأسطورة والفلسفة. فهو يتحدث عن «الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة»، ولكنه يمتنع عن تحديد ما يريده بذلك ليظل الأمر غامضا وتبقى الحدود غائمة. فهو يقر لليونانيين «بإضافاتهم وتطويراتهم العظيمة» وبأنهم «أقاموا صرحا ممردا» على الأسس التى استعاروها. وفى رأيى أن «الإضافة» كلمة تنطوى على تقتير وتتنافر مع الاعتراف بالصرح الممرد. والعدل يقتضى أن نقول إن تلك الحركة الفكرية التى انتهت إلى تخليص مفهوم الطبيعة من الأساطير وتأسيس العلوم التى كانت متاحة لعقل الإنسان آنذاك لم تكن مجرد إضافة إلى ما سبقها. بل كانت نقلة نوعية أو طفرة أو معجزة إذا شئت، لا بمعنى أنها لم ترتكز على مقدمات وسوابق، بل بمعنى أنها كانت إبداعا أصيلا وفذا. ■

أبحاث الفضاء

أم

مرضى الأرض؟!

■■ منذ تأسيس الإدارة القومية لأبحاث الطيران والفضاء (ناسا) والجزء الأكبر من مواردها يذهب إلى إرسال الرجال والنساء إلى الفضاء. وفى الرابع عشر من يناير من العام الحالى، أعلن الرئيس بوش عن «رؤية جديدة لاستكشاف الفضاء» تزيد من كثافة تركيز ناسا على رحلات الفضاء المأهولة، التى تحمل رواد فضاء على متنها. وسوف تكتمل المحطة الفضائية الدولية، التى يجرى إنشاؤها منذ ١٩٩٨، بحلول عام ٢٠٠١، وسوف تظل فى الخدمة حتى عام ٢٠١٦، حيث تركز الأنشطة الأمريكية من الآن فصاعداً على الدراسات الخاصة بالآثار طويلة المدى لرحلات الفضاء على رواد الفضاء. وسوف تستمر سفينة الفضاء المسماة مكوك الفضاء فى الطيران حتى عام ٢٠١٠، وستظل تستخدم لصيانة المحطة الفضائية. وحينذاك سوف يستعاض عن المكوك بمركبة فضاء مأهولة جديدة ينتهى صنعها واختبارها بحلول عام ٢٠٠٨، وفيما بين ٢٠١٥ و٢٠٢٠ سوف تستخدم مركبة الفضاء الجديدة لإرسال رواد الفضاء إلى القمر، حيث سيعيشون ويعملون لفترات متزايدة. وساعتها سنكون مستعدين للخطوة التالية، وهى المهمة البشرية إلى المريخ.

مهمة ستكون باهظة التكاليف. ورغم عدم تحديد الرئيس التكلفة التقديرية، إلا أن جون ماكين رئيس لجنة التجارة والعلوم والنقل بمجلس الشيوخ أشار إلى أن المبادرة الجديدة سوف تتكلف ما بين ١٧٠ مليار دولار و٦٠٠ مليار دولار. وطبقاً لما جاء فى نشرات ناسا، فالمقصود بمبلغ المائة وسبعين مليار دولار أن يكفى ناسا حتى عام ٢٠٢٠ فقط، وهو لا يشمل تكلفة مهمة المريخ نفسها. وبعد إعلان الرئيس بوش الأب عن مبادرة مشابهة فى عام ١٩٨٩، قدرت ناسا تكلفة إرسال رواد فضاء إلى القمر والمريخ بأنها إما ٤٧١ مليار دولار أو ٥٤١ مليار دولار بقيمة ١٩٩١، حسب طريقة الحساب. ومهما كان تقدير ناسا لتكلفة المبادرة الجديدة، فمن المتوقع أن تتعدى التكلفة ما هو محدد، مثلما يحدث فى كثير من الأحيان بالنسبة لبرامج ناسا. (فى عام ١٩٨٤ قدرت ناسا أنها سوف تتكلف ٨ مليارات دولار لوضع المحطة الفضائية الدولية فى مدارها، إلا أنها لم تحسب تكلفة استخدامها. وقد اطلعت على أرقام خاصة بتكلفتها تتراوح بين ٢٥ مليار دولار و٦٠ مليار دولار، ومازال هناك وقت طويل حتى تكتمل المحطة). دعونا لا نساوم على مائة مليون دولار أكثر أو أقل؛ ذلك أننى أقدر تكلفة مبادرة الرئيس الجديدة بحوالى تريليون دولار.

ولنقارن هذا بمبلغ ٨٢٠ مليون دولار الذى تكلفه إرسال كل من الإنسان الآلى «سبيريت» والإنسان الآلى «أوبورتونيتى» مؤخراً إلى المريخ، وهو ما يساوى واحد على ألف من تكلفة مبادرة الرئيس. فوجود بشر ضمن أية مهمة فضائية يجعل التكلفة حتماً أعلى بكثير جداً. فالبشر بحاجة إلى هواء وماء وطعام. ولا بد من حمايتهم من الأشعة الكونية، التى يحمينا منها ونحن هنا الغلاف الجوى للأرض. كما أن رواد الفضاء أثناء الرحلة إلى المريخ سيكونون بعيدين عن المدى الوقائى لمجال الأرض المغناطيسى، وبذلك سيكون من اللازم حمايتهم من الجزيئات المشحونة التى ترسلها الشمس أثناء الاندلاعات الشمسية. وعلى عكس الإنسان الآلى، سوف يرغب رواد الفضاء فى العودة إلى الأرض. وعلاوة على ذلك، فإنه لا يمكن التغاضى عن فقدان رواد الفضاء مثلما يحدث فى حال ضياع الإنسان الآلى. ولذلك سوف تتسبب أية خسائر عند استخدام مركبة الفضاء الجديدة فى تعطيل البرنامج بصورة مكلفة، كما حدث بعد الحادثين المأساويين للمكوك «تشالنجر» فى عام ١٩٨٦ والمكوك «كولومبيا» فى فبراير ٢٠٠٣.

وهكذا تحتم علينا مبادرة الرئيس الجديدة أن نطرح مرة أخرى السؤال الموجود معنا منذ مغامرات الفضاء الأولى. وهو ما هى قيمة إرسال كائنات بشرية إلى الفضاء؟ وهناك صراع خطير حول هذه النقطة. فعلماء الفلك وغيرهم من العلماء عموماً يشكُّون فى قيمة رحلات الفضاء المأهولة، وكثيراً ما يعربون عن استيائهم من الطريقة التى تتعارض بها مع البحث العلمى. بينما عادة ما يرى مديرو ناسا ورواد الفضاء ومقاولو الفضاء والساسة رحلات الفضاء المأهولة على أنها رائعة. وقد أوضح مكتب ناسا لعلوم الفضاء أن «الهدف الأساسى لرؤية الرئيس هو تقدم المصالح العلمية والأمنية والاقتصادية الأمريكية من خلال برامج استكشاف الفضاء النشطة». ولذلك فلننظر إلى الطريقة التى تطور بها رحلات الفضاء المأهولة تلك المصالح.



أحمد اللباد

يتذكر الكثير من الأمريكيين ما شعرنا به من قلق على الأمن القومى الأمريكى على نطاق واسع حين أطلق السوفييت القمر الصناعى غير المأهول سبوتنك فى أكتوبر من عام ١٩٥٧. وأثير ذلك القلق بشكل أكبر فى عام ١٩٦١ حين انطلق رائدا الفضاء السوفييتيان يورى جاجارين وغيرمان تيتوف إلى الفضاء. ودارت مركبة تيتوف سبع عشرة دورة حول الأرض، مرت فى ثلاث منها فوق الولايات المتحدة لأول مرة. ووصف توم وولف رد الفعل الأمريكى فى كتابه The Right Stuff «الشىء الصحيح»:

مرة أخرى، وفى أنحاء البلاد كافة، بدا الساسة والصحافيون على قدر كبير من الفزع والانزعاج، وعُرضت الرؤية المخيفة، وهى افتراض أن رائد الفضاء مسلح بقنابل هيدروجينية يلقيها حين يمر فوقنا، كأنه الإله ثور يلقى بالصواعق.... وساعتها سوف تختفى توليدو من على وجه الأرض.... وكنساس سيتى.... وليو...

وكما اتضح، فقد كا...

ستيفن واينبرج

بترتيب خاص مع:
نيويورك ريفيو أوف بوكس

ترجمة: أحمد محمود



للقدرة على إرسال صواريخ إلى الفضاء أهمية عسكرية ضخمة. إذ حلت الصواريخ الباليستية التى تسافر فوق الغلاف الجوى للأرض تقريباً محل القاذفات باعتبارها الوسيلة المفضلة لحمل الأسلحة النووية الأمريكية أو السوفيتية إلى أرض الخصم. وحتى فى الحروب غير النووية التى تدور رحاها الآن، تقوم الأقمار الصناعية التى تلف حول الأرض بدور مهم فى المراقبة والاتصالات والملاحة. إلا أن هذه الأسلحة والأقمار الصناعية غير مأهولة. ولا يمكن إسقاط القنابل من الأقمار الصناعية على سطح الأرض؛ فما أن يوضع شىء فى مدار فوق الغلاف الجوى للأرض حتى يبقى فى مداره ما لم يدفعه صاروخ لأسفل. وحسب علمى، فلم يحدث قط منذ رحلة تيتوف حتى وقتنا هذا أن أعطى إرسال أشخاص إلى الفضاء أية دولة أدنى قدر من التميز العسكرى.

إنى أقول هذا بالرغم من حقيقة أن بعض الأقمار الصناعية العسكرية الذى وضعها فى مدارها هو مكوك الفضاء. وهذا يمكن أن يتم وبنفس القدر من الجودة وبتكلفة أقل بكثير بواسطة الصواريخ غير المأهولة. وكان المأمول هو أنه بما أن المكوك يستخدم مراراً، فسوف يقلل من تكلفة وضع الأقمار الصناعية فى مدارها. ولكن بينما يكلف استخدام صاروخ غير مأهول لوضع قمر صناعى فى مداره حوالى ٣ آلاف دولار لكل رطل، فإن تكلفة ذلك باستخدام المكوك تبلغ ١٠ آلاف دولار لكل رطل. وأشار عالم الفيزياء روبرت بارك إلى أنه بهذا المعدل، فإنه حتى إذا أمكن تحويل الرصاص إلى ذهب فى المدار، فلن يكون من المجزى إرسال هذا الرصاص بالمكوك. وكان يمكن لبارك أن يضيف أنه فى هذه الحالة ربما ترسل ناسا قوالب الرصاص على متن المكوك بأى حال من الأحوال، ثم تستشهد بالذهب فى النشرات الصحفية كدليل على قيمة المكوك. ولا يبدو أن هناك ما يدعو إلى استخدام المكوك لوضع بعض الأقمار الصناعية العسكرية فى مدارها، إلا إذا كانت ناسا بحاجة إلى طريقة لتبرير وجود المكوك. وكانت ناسا قد أوضحت فى عهد حكومة كارتر لنائب مستشار الأمن القومى أنه ما لم يفرض الرئيس كارتر مهام الأقمار الصناعية العسكرية على متن مكوك الفضاء فسوف يكون الرئيس مسئولاً عن القضاء على برنامج المكوك، ذلك أن المكوك لن يمكنه البقاء إذا كان لابد من تحميل المستخدمين التجاريين التكلفة الحقيقية لرحلات الفضاء.

تنطبق ملاحظات مماثلة على الفوائد الاقتصادية للسفر إلى الفضاء، وما من شك فيما للأقمار الصناعية التى تدور حول الأرض من قيمة عظيمة. فتلك منها ما يمسح سطح الأرض كى يقدم لنا معلومات عن الطقس والمناخ والتغير المناخى من كل الأنواع، وكذلك التحذيرات من الحشود العسكرية وإطلاق الصواريخ. وتبث الأقمار الصناعية البرامج التلفزيونية والاتصالات التليفونية وراء الأفق. ويعتمد النظام الكونى لتحديد المواقع، الذى يحسب مواقع السيارات والسفن والطائرات وكذلك الصواريخ، على توقيت الإشارات الصادرة عن الأقمار الصناعية. ولكن هذه أقمار غير مأهولة، ويمكن وضعها فى مدارها بأرخص التكاليف باستعمال الصواريخ غير المأهولة.

ومن الصعب التفكير فى فائدة اقتصادية مباشرة يمكن الحصول عليها بإرسال الناس إلى الفضاء. وهناك جهد متصل لزرع بلورات معينة فى الجاذبية صفر تقريباً على قمر صناعى يدور حول الأرض مثل المحطة الفضائية الدولية، أو صنع رقائق من أشباه الموصلات فائقة النقاء فى الفراغ التام تقريباً نتيجة لإنشاء المحطة الفضائية. وكان الرئيس ريجان قد وافق فى الأصل على المحطة الفضائية أملاً فى أن تحقق فائدة فى نهاية الأمر. ولم تتحقق أية فائدة اقتصادية من هذا، ومن الواضح أن الحكمة كانت تقتضى التخلى عن هذه البرامج فى خطط الرئيس الجديدة الخاصة بالمحطة الفضائية.

وفى الفترة الأخيرة، كان هناك كلام عن إرسال رواد فضاء هليوم ٣ النظائرى الخفيف من على القمر، حيث اختزن عبر مليارات السنين من تعرض سطح القمر للريح الشمسية. والمهم هو أن التفاعلات الحرارية النووية المألوفة بشكل أكبر التى تستخدم نظائر الهيدروجين كوقود تنتج عنها أعداد كبيرة من النيوترونات التى قد تضر بالمواد المحيطة وتجعلها مشعة، بينما ينتج عن التفاعلات الحرارية النووية التى تشمل الهيليوم ٣ عدد أقل من النيوترونات، ومن ثم يكون الفاقد الإشعاعى أقل. وقد يسمح كذلك المفاعل الحرارى النووى الذى يستخدم الهليوم ٣ بتحويل أكثر كفاءة للطاقة النووية إلى كهرباء، إذا استطعنا جعله يعمل.

ومن المؤسف أن هذا مجرد احتمال. فأحد الأشياء التى تجعل صنع الطاقة الحرارية النووية شديد الصعوبة هو ضرورة تسخين الوقود إلى درجة شديدة الارتفاع كى تصطدم النويات ببعضها بالسرعة الكافية للتغلب على القوى المنفرة بين الشحنات الكهربية التى تحملها النويات. وتحتوى نويات الهليوم ضعف الشحنة الكهربية الموجودة فى نويات الهيدروجين، وبذلك تكون درجة الحرارة اللازمة لإنتاج التفاعلات الحرارية النووية المتضمنة للهليوم ٣ ونظائر الهيدروجين أعلى بكثير من الحرارة اللازمة للتفاعلات المتضمنة لنظائر الهيدروجين وحدها. وحتى الآن لم يتمكن أحد من إحداث تفاعل حرارى نووى ذاتى الاستدامة ومفيد باستخدام نظائر الهيدروجين. وإلى أن يحدث ذلك، لا يبدو أن هناك أهمية كبيرة لتحمل تكلفة كبيرة على القمر لاستخراج وقود سوف يجعل استخدامه توليد الطاقة الحرارية النووية أكثر صعوبة.

وفى كلمته التى ألقاها فى الرابع عشر من يناير، أكد الرئيس بوش على أن برنامج الفضاء يحدث «تقدماً تكنولوجياً أفاد البشرية جمعاء». صحيح أن السعى لتحقيق مهمة ملحة مثل وضع بشر على القمر يمكن أن تحقق فوائد غير مباشرة فى هيئة تكنولوجيات جديدة، غير أنى أظن أنه فى هذه النقطة كذلك ربما تكون المهام غير المأهولة أكثر إنتاجية. وفى محاولة للتفكير فى بعض النتائج الفرعية المستقبلية للمهام الفضائية التى قد تفيد البشرية بالفعل، أجد أنه من الصعب أن يطلعوا علينا بأى شىء يبشر بقدر أكبر من الخير يزيد على تجربة تصميم إنسان آلى لازم لمهام الفضاء غير المأهولة. ذلك أن هذه التجربة تساعدنا فى بناء إنسان آلى يمكن أن يوفر على البشر عناء الأعمال الخطرة والمتعبة هنا على الأرض. وإذا كانت المفاجآت ممكنة الحدوث دائماً، فأنا لا أرى كيف ينتج أى شىء ذو قيمة مساوية عن ابتكار التقنيات اللازمة للحفاظ على حياة الناس أثناء المهام الفضائية.

لقد أكد الرئيس بوش فى عرضه لمبادرة الفضاء الخاصة به أهمية الحصول على المعرفة العلمية. وربما يتخيل بعض من يقرأ كلمته رواد الفضاء على متن المكوك أو المحطة الفضائية وهم ينظرون إلى الكواكب والنجوم من خلال التلسكوبات، أو يتجولون على القمر أو المريخ ويقومون باكتشافات تتعلق بالمجموعة الشمسية. إلا أن الأمر لا يجرى بهذه الصورة.

لا شك فى أن المراصد الموجودة فى الفضاء أدت إلى حدوث زيادة ضخمة فى المعرفة الفلكية. وإذا أخذنا مثالاً واحداً فقط، نجد أنه فى أوائل التسعينيات قامت الأجهزة الموجودة على القمر الصناعى مستكشف خلفية الموجات القصيرة الكونية Cosmic Microwave Background Explorer بعمل قياسات لخلفية ضعيفة من تشوش راديوى قصير الموجة اكتشف فى عام ١٩٦٥. وهذا الإشعاع باق منذ زمن كان الكون فيه لا يزيد عمره على أربعة آلاف سنة. وأظهرت المادة الجديدة أن كثافة هذا الإشعاع بأطوال موجات مختلفة كانت هى فقط ما تصدره المادة شبه المعتمة عند درجة حرارة ٢,٧٢٥ مئوية فوق الصفر المطلق. وكانت

يكلف استخدام صاروخ غير مأهول لوضع قمر صناعى فى مداره حوالى ٣ آلاف دولار لكل رطل، فإن تكلفة ذلك باستخدام المكوك تبلغ ١٠ آلاف دولار لكل رطل



تلك هى المرة الأولى فى تاريخ علم الكون التى قيس فيها أى شىء بأربعة أرقام مهمة. والأهم من ذلك أنه اتضح أن كثافة هذا الإشعاع ليست موحدة توحداً كاملاً، بل هى مكتلة تكتلاً طفيفاً. فالكثافة المرصودة تختلف من جزء لآخر من السماء بحوالى جزء واحد من المائة ألف بالنسبة لاتجاهات تفصلها بضع درجات من القوس. وهذا القدر من التكتل هو ما كان متوقعاً على وجه التحديد، على فرض أن هذه الفروق فى خلفية الموجات القصيرة الكونية نشأت عن التقلبات الكمية فى التوزيع المكانى للطاقة فى الكون شديد القدم، وهى التقلبات التى أدت فى النهاية إلى ظهور تركيزات من المادة، المجرات وحشود المجرات، التى يراها علماء الفلك فى أنحاء الكون.

وأعقب ذلك عقد من أعمال الرصد شديد الدقة لخلفية الموجات القصيرة الكونية من على قمم الجبال والبالونات والقطب الجنوبى، ولكن الأثر المشوه للغلاف الجوى للأرض يحد من الدقة الى يمكن الحصول عليها بقياسات ولو من على أكبر ارتفاع يمكن أن تصل إليه البالونات. وأخيراً حققت تلك الدراسات تقدماً ضخماً فى عام ٢٠٠٢ بواسطة مهمة فضائية جديدة رائعة، وهى مسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة Wilkinson Microwave Anisotropy Probe. وبعد الدوران مراراً حول الأرض لحشد السرعة، سافر هذا المسبار إلى نقطة فى الفضاء تُعرف بـ L٢، تقع على بعد حوالى مليون ميل عن الأرض (أربع أضعاف المسافة التى بين الأرض والقمر)، فى الاتجاه المقابل للشمس. وأى شىء يوضع فى L٢ يدور حول الشمس بنفس السرعة اللازمة لبقائه فى L٢. وهناك، فى الفضاء البارد الهادئ الذى بين الكواكب، كان من الممكن عمل مخطط لتكتل خلفية إشعاع الموجات القصيرة الكونية بمستوى غير مسبوق من الدقة. وأكدت مقارنة هذه القياسات بالنظرية أفكارنا العامة بشأن ظهور التقلبات فى الكون شديد القدم، وأظهرت أن الكون حالياً يتكون من حوالى ٤ بالمائة من الذرات العادية، وحوالى ٢٣ بالمائة من المادة المظلمة ذات الطابع الغريب التى لا تتفاعل مع الإشعاع، والباقى بعض من «الطاقة المظلمة» الغامضة ذات الضغط السلبى، كما حددت عمر الكون فيما يتراوح بين ١٣,٥ و ١٣,٩ مليار سنة.

إنه بحث مثير يحق لناسا أن تفخر به. وقد جعلت الأبحاث التى من هذا النوع من عصرنا هذا عصراً ذهبياً لعلم الكون. ولكن لا مستكشف خلفية الموجات القصيرة الكونية أو مسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة يحمل على متنه رواد فضاء. فلم تكن هناك حاجة إلى بشر. بل على العكس من ذلك، فقد كانوا سيحدثون أخطاء فى هذه القياسات من خلال حركاتهم وحرارة أجسامهم، إلى جانب تلك الزيادة الكبيرة فى تكاليف هاتين المهمتين. وينطبق الشىء نفسه على كل مرصد من المراصد الفضائية التى وسعت معرفتنا بالكون من خلال رصد الأشعة فوق البنفسجية، أو الأشعة تحت الحمراء، أو أشعة جاما الآتية من خارج الغلاف الجوى للأرض. وقد وضع المكوك بعض تلك المراصد فى مداره، بينما حملت صواريخ غير مأهولة غيرها (بما فى ذلك مستكشف خلفية الموجات القصيرة الكونية ومسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة)، وهو ما كان يمكن أن يحدث فى كل المهام.

ويعد التلسكوب الفضائى هابل حالة خاصة. ذلك أن هابل، مثله مثل كل المراصد الدوارة، يعمل عن طريق التحكم من بعد، ودون أن يسافر معه أحد. ولكن على عكس تلك المراصد الأخرى، فإن هابل لم يطلقه المكوك فحسب، بل قام رواد فضاء جاء بهم المكوك بعمل الصيانة له مرات عديدة. وأسهم هابل إسهاماً عظيماً فى علم الفلك، وهو الإسهام التى يتجاوز مجرد التقاط صور ملونة رائعة للكواكب والسُدُم. والأمر الأعظم هو أن هابل نفذ بالتنسيق مع المراصد الموجودة على الأرض برنامجاً لقياس المسافات والسرعات الخاصة بالمجرات البعيدة. وفى عام ١٩٩٨ أظهرت تلك القياسات أن تمدد الكون لا يحد من سرعته التجاذب المتبادل الخاص بمادته، كما كان يُظن، بل إنه يتسارع، الأمر الذى يُفترض أنه رد فعل للتنافر بين المادة والمادة المضادة الخاص بالطاقة المظلمة التى ذكرتها من قبل. وربما منح هابل ناسا أقوى حجة للقيمة العلمية لرحلات الفضاء المأهولة.

ولكن تلسكوب هابل الفضائى، شأنه شأن المراصد الفلكية الأخرى، كان يمكن أن تحمله الصواريخ غير المأهولة. وكان سيكفى رواد الفضاء خطر رحلات المكوك، وكان سيصبح أرخص كلفة. وقدر ريكاردو جياكونى، المدير السابق لمعهد علوم التلكسويات، أنه باستخدام الصواريخ غير المأهولة بدلاً من مكوك الفضاء، كان يمكننا إرسال هابل بدون زيادة التكلفة الإجمالية للمهمة. وحينذاك ما كان ليصبح من الضرورى إجراء أعمال صيانة لهابل؛ ذلك أنه حين نكتشف عيوباً فى التصميم أو أن أجزاء قد بليت، كان يمكننا إرسال هابل آخر.

فماذا عن التجارب العلمية التى قام بها علماء الفضاء على مكوك الفضاء أو المحطة الفضائية؟ طلبت مؤخراً الاطلاع على قائمة بالتجارب التى كلفت بها ناسا رواد الفضاء على متن مكوك الفضاء كولومبيا أثناء دخوله الغلاف الجوى للأرض. ومن المحزن القول بأنها ليست قائمة رائعة من التجارب. فقد كان نصفها تقريباً يتعلق بأثر البيئة الفضائية على رواد الفضاء. وهذا على الأقل نوع من العلوم لا يمكن عمله بدون وجود رواد الفضاء، إلا أنه لا أهمية له ما لم يكن هناك تخطيط لوضع البشر فى الفضاء لفترات طويلة لسبب آخر.

وكان جزء كبير من النصف الآخر من تجارب مكوك الفضاء كولومبيا يتعامل مع نمو البلورات وتدفق السوائل عند الجاذبية صفر تقريباً، وهى بدائل ناسا القديمة التى لم تلق الضوء على القضايا الأساسية للعلم ولم تؤد إلى تطبيقات عملية. ومن الخطر دائماً بالنسبة للعالم فى أحد المجالات أن يحاول الحكم على قيمة العمل الذى قام به الاختصاصيون فى المجالات الأخرى، ولكنى أظن أننى كنت سأعرف إذا كان هناك بالفعل ما ينتج عن تلك التجارب أم لا، غير أنى لم أسمع. وجزء كبير من البرنامج «العلمى» الذى يكلف به رواد الفضاء على متن مكوك الفضاء والمحطة الفضائية له نكهة المشروعات التى يجرى عملها من أجل مسابقات المواهب العلمية فى المدارس الثانوية. فقد يبدو جزء من العمل لافتاً للانتباه، إلا أننا لا نرى سبباً فى أن يقوم به بشر. فعلى السبيل المثال، كانت هناك تجربة واحدة فحسب على كولومبيا مخصصة لعلم الفلك، وهى قياس مفيد للفروق فى الطاقة الصادرة عن الشمس. وأبلغنى الباحث الرئيسى أن التدخل الوحيد من رواد الفضاء عبارة عن تشغيل الجهاز وغلقه.

لابد أن نسأل ونحن ننظر إلى المستقبل عن العمل العلمى الذى يمكن أن يقوم به رواد الفضاء على المريخ. إن بإمكانهم التجول والنظر إلى طبوغرافيا الكوكب وإجراء بعض التجارب على الصخور، بينما يبحثون عما يدل على الماء أو الحياة. ولكن هذا كله يمكن أن يقوم به الإنسان الآلى. كما يمكنهم جلب عينات من الصخور، كتلك التى أتى بها رواد أبوللو من على القمر. غير أن هذا كذلك يمكن أن يقوم به الإنسان الآلى. وكانت عينات صخور القمر قد جاءت بها إلى الأرض كذلك مهام قمرية سوفيتية غير مأهولة. ويقال أحياناً إن العيب الكبير فى استخدام الإنسان الآلى فى مهام إلى المريخ هو أنه يتحكم فيه أشخاص على الأرض مع الانتظار فترة طويلة (أربع دقائق على الأقل) كى تسافر الإشارات الرايودية من الأرض إلى المريخ. وسوف تكون هذه فى الواقع مشكلة خطيرة فى حال إرسال الإنسان الآلى إلى المريخ كى يلعب التنس مع أهل المريخ، إلا أن ليس هناك

ما العمل الذى يقوم به رواد الفضاء على المريخ. إن بإمكانهم النظر إلى طبوغرافيا الكوكب وإجراء التجارب على الصخور، بحثا عن الماء أو الحياة. ولكن هذا يمكن أن يقوم به الإنسان الآلى



الكثير مما يحدث هناك الآن، ولا أرى سببًا فى عدم ترك الإنسان الآلى كى يعمل بتدخل من الأرض عند اقتضاء الحاجة. وأية ميزة هامشية قد يتمتع بها رواد الفضاء على الإنسان الآلى فى استكشاف المريخ سوف تقضى عليها إلى حد كبير التكلفة الضخمة للمهام المأهولة. ذلك أنه يمكننا بتكلفة وضع بضعة أشخاص فى موقع واحد على المريخ أن يكون لدينا عدد من الإنسان الآلى لدراسة الكثير من المواقع المختلفة على الكوكب كله.

يفهم الكثير من العلماء وبعض مديرى ناسا كل هذا فهمًا جيدًا. وقد قيل لى مرارًا إنه لابد من الدفاع علنًا عن برامج رحلات الفضاء المأهولة بأى حال من الأحوال، لأن الناخبين ونوابهم المنتخبين لا يأبهون إلا بدراما البشر فى الفضاء. (ذكرنى ريتشارد جاروين بمثل رواد الفضاء القديم No bucks without Buck Rogers (لا دولارات بدون باك روجرز). والمأمول هو أنه فى الوقت الذى تنفق فيه أموال كثيرة على رحلات الفضاء المأهولة، فإن القليل من المال يوجه صوب العلم الحقيقى. وأظن أن هذا الموقف ينطوى على الإضرار بالذات. فحين تقع ناسا فى مشاكل، فإن أول من يحتمل التضحية به أولاً هو العلم. وبعد أن دفعت ناسا ببرنامج أبوللو إلى النقطة التى توقف عندها الناس عن مشاهدة الهبوط على القمر على شاشات التلفزيون، ألغت أبوللو ١٨ و١٩، وهما المهمتان اللتان كانتا مخصصتين على وجه التحديد للبحث العلمى.

صحيح أن الإدارة تتوقع حدوث زيادة قدرها ٥ بالمائة سنويًا فى ميزانية ناسا للسنوات الثلاث المقبلة. ولكن حتى الآن مازال التمويل كما هو بالنسبة للتلسكوب الفضائى الكبير التالى، بينما تجرى زيادته بالنسبة لبعض البرامج العلمية الأخرى، ومنها مهام الإنسان الآلى إلى الكواكب وأقمارها. إلا أننا نرى ضررا يلحق بالبرامج غير المرتبطة باستكشاف المجموعة الشمسية، وخاصة بالبحث فى علم الكون. صحيح أن دراسة أصل الكواكب أمر مهم، ولكنه ليس أهم من دراسة أصل الكون.

بعد يومين من تقديم الرئيس بوش لمبادرته الخاصة بالفضاء، أعلنت ناسا أن المهمة المكوكية التى كانت تعتزم إرسالها لصيانة هابل فى عام ٢٠٠٦ سوف تلغى. وكانت تلك المهمة ستتولى استبدال الجيروسكوبات والبطاريات اللازمة لإطالة عمر هابل حتى العقد المقبل، وكانت ستضع جهازين جديدين (صنعا بالفعل وتكلفا ١٦٧ مليون دولار) لزيادة قدرات هابل. وكان أحد هذين الجهازين سيسمح لهابل بمسح السماء بالأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية، كى يكشف الكثير عن تكوين أقدم النجوم والمجرات. وكان الجهاز الثانى عبارة عن مرسمة طيف spectrograph تعمل بالأشعة فوق البنفسجية، وكان سيقوم باستكشاف مادة ما بين المجرات فى الكون القديم. وكان هابل سيحقق باستخدامه الأجهزة القديمة تقدمًا كبيرًا فى برنامج قياس مسافات المجرات وسرعاتها، حيث يحدد تفاصيل الطاقة المظلمة التى تسرع اتساع الكون. إلا أنه بدلاً من ذلك سوف يتوقف عن العمل بعد حوالى ثلاث سنوات، حين لا يكون بمقدور جيروسكوبات هابل توجيهه بدقة. وسوف يجعلنا هذا بدون تليسكوب فضائى حتى عام ٢٠١١ على الأقل. وأخيرًا، فإنه قبل أن ينزل سحب الغلاف الجوى للأرض عند أعلى نقطة له التليسكوب هابل، سوف يرسل صاروخ غير مأهول إلى هابل لإخراجه من المدار وإيداعه المحيط دون أن يحدث أى ضرر. وسوف يكون جزء من زيادة إنفاق ناسا على العلوم عبارة عن ٣٠٠ مليون دولار لتدمير هابل.

والسبب المعلن لإنهاء ناسا مهمة هابل، فى الوقت الذى يستمر فيه العمل على المحطة الفضائية، هو أن صعود المكوك إلى هابل أخطر من صعوده إلى المحطة الفضائية. وعلى سبيل الافتراض، فإنه إذا اكتشف رواد الفضاء على المكوك أن ضررًا ما قد أصاب ألواح الحماية الخاصة بالمكوك أثناء الإطلاق، فسوف يمكنهم البقاء فى المحطة الفضائية انتظارًا للإنقاذ، بينما لن يكون ذلك ممكنًا أثناء المهمة المتجهة إلى هابل. إلا أن هناك أخطارًا أخرى كثيرة يتعرض لها رواد الفضاء، سواء أكان المكوك متوجهًا إلى المحطة الفضائية أو إلى التليسكوب الفضائى هابل. ومن بين هذه الأخطار حدوث انفجار أثناء الإطلاق، كذلك الذى دمر المكوك تشالنجر فى عام ١٩٨٦. وحمل موقع صحيفة «نيويورك تايمز» على الإنترنت تقريرًا من مهندس مجهول الاسم من ناسا يتحدى إعلان ناسا أن رحلة المكوك إلى هابل سوف تكون أكثر خطورة من الرحلة إلى المحطة الفضائية. ويشير هذا المهندس أو المهندسة إلى أن المكوك سوف يكون أقل تعرضًا للنيازك الدقيقة والحطام المدارى عند ارتفاع هابل مما هو عليه الحال عند ارتفاع المحطة الفضائية المنخفض.

وحتى إذا أخذنا فى اعتبارنا احتمال الضرر الذى يصيب ألواح الحماية، فربما لا يكون هناك فرق كبير فى مخاطر الذهاب إلى هابل أو المحطة الفضائية. وقد ناقش مجلس تحقيقات حادث كولومبيا مشكلة السلامة هذه، إلا أنه أوصى بخلق ناسا للقدرة على إصلاح ألواح المكوك فى الفضاء، سواء أكان راسيا فى المحطة الفضائية أم لا، ولم ينته إلى أنه لابد من التخلى عن هابل. ولكى تكون متأكدين بالقدر المعقول من إنقاذ رواد الفضاء، حتى إذا اتضح أن الضرر الذى لحق بالمكوك لا يمكن إصلاحه فى الفضاء، يمكن الترتيب بقدر من التكلفة الإضافية أنه حين يصعد مكوك لصيانة هابل يكون هناك مكوك آخر فى وضع الاستعداد على الأرض. وعلى سبيل المثال، يمكن التخطيط لمهمة صيانة هابل قبيل

سوف يؤثر إرســـال بشر إلى القمــر والمريخ باهـظ التكلفـة سلبًا على الدعـم المنـاسب للرعـايـة الصحيـة، والأمـن القومى، والتعـليم وغيـــر ذلك من المصـالح العـامة

إحدى مهام صيانة المحطة الفضائية المخطط لها. واستجابة لضغط من الكونجرس والمجتمع العلمى، وافقت ناسا على إعادة النظر فى هذا القرار. وليس لدى ما يكفى من العلم عن مسائل السلامة للحكم على هذا المسألة بنفسى، غير أننى أشارك شكًا واسع الانتشار فى أنه يجرى التضحية بهابل لتوفير التمويل لمبادرة الرئيس، وخاصة لكى لحفظ كل الرحلات على جدول المكوك المحدود لغرض واحد هو نقل رواد الفضاء إلى المحطة الفضائية والعودة بهم منها.

ربما يعود السبب فى اجتذاب قرار هابل اهتمامًا عامًا كبيرًا إلى توقيت هذا القرار، غير أن هناك قرارات صدرت مؤخرًا عن ناسا لا علاقة لها بالسلامة، وهى بذلك تقدم أدلة أكثر وضوحًا على استعداد ناسا والإدارة الأمريكية للتضحية بالعلم توفيرًا للمال من أجل رحلات الفضاء المأهولة. وفى يناير من عام ٢٠٠٣، وبعد سنوات من اتخاذ العلماء قرارات صعبة بشأن أولويات الإدارة القومية للطيران والفضاء، أعلنت ناسا مبادرة جديدة تسمى «ما بعد أينشتاين» لبحث بعض الظواهر الأكثر غرابة التى تنبأت بها نظرية النسبية العامة لأينشتاين. وتشمل هذه المبادرة قمرًا صناعيًا (يجرى صنعه بالاشتراك مع وزارة الطاقة) يمكن أن يطل على عدد أكبر من المجرات من على مسافات كبيرة بغرض الكشف عن طبيعة الطاقة المظلمة من خلال اكتشاف إذا ما كانت كثافتها تتغير مع اتساع الكون أم لا. وعلى نفس القدر من الأهمية بالنسبة لعلم الكون، سوف يكون هناك مسبار آخر يدرس استقطاب خلفية الموجات القصيرة الكونية لاكتشاف الآثار غير المباشرة لموجات الجاذبية الصادرة عن الكون القديم. (الصلة التى تربط موجات الجاذبية بالجاذبية العادية هى نفسها التى تربط الموجات الضوئية بالمجالات الكهربية والضوئية؛ فهى ذبذبات كافية لنفسها فى المجال المغناطيسى تولد خلال الفضاء الخالى بسرعة الضوء.)

ويشمل «ما بعد أينشتاين» كذلك قمرًا آخر مخصص للبحث عن الثقوب السوداء، إلى جانب منشأتين كبيرتين أخريين إحداهما منظومة تليسكوبات تعمل بالأشعة السينية تسمى «الكوكبة إكس» Constellation-X يمكنها رصد المادة الساقطة داخل الثقوب السوداء،



والأخرى تسمى «ليسا» LISA أو الهوائى مقياس التداخل الفضائى الذى يعمل بالليزر. وسوف يتكون هذا «الهوائى» من ثلاث مركبات فضاء غير مأهولة تدور حول الشمس يفصل بين كل منها حوالى ثلاثة ملايين ميل. وسوف تُقاس التغيرات التى تطرأ على المسافات التى بين المركبات الفضائية الثلاث باستمرار بدقة تقل عن واحد على المليون من البوصة عن طريق تجميع أشعة الليزر المارة بينها. وسوف يمكن لهذه القياسات فائقة الدقة الكشف عن وجود موجات الجاذبية المارة خلال المجموعة الشمسية. وسوف يكون لدى ليسا ما يكفى من الحساسية للكشف عن موجات الجاذبية الصادرة عن النجوم التى تتحطم أثناء سقوطها داخل الثقوب السوداء أو عن الثقوب السوداء وهى تندمج فى بعضها، وهى الأحداث التى لا يمكن رؤيتها بالتليسكوبات العادية. ولدى ناسا برنامج آخر قليل التكلفة إلى حد كبير يسمى «إكسبلورر» Explorer يدعم المراصد الصغيرة والمتوسطة مثل «مستكشف الخلفية الكونية»، و«مسبار ويلكنسون اللاتناحى للموجات القصيرة».

ومما يؤسف له أن مكتب علوم الفضاء التابع لناسا يعلن الآن أن برنامجى ما بعد أينشتاين وإكسبلورر، لا يدعمان أهداف رؤية الرئيس الخاصة باستكشاف الفضاء دعماً واضحاً، ولذلك فقد جرى تخفيض تمويلهما بصورة كبيرة. كما أُرجئ تمويل مهام أينشتاين الصغيرة الثلاث خمس سنوات، وأُجّل «ليسا» عاماً أو أكثر، وسوف يُختصر مجال إكسبلورر خلال السنوات الخمس المقبلة، ولن يكون هناك تفكير فى مقترحات جديدة لمهام إكسبلورر لمدة عام أو عامين. وأى من هذه الأضرار لا سبيل إلى إصلاحه، غير أن الإنفاق على «الرؤية الجديدة» الخاصة بالرئيس قد بدأ بالفعل. وينذر هذا التأجيل، إلى جانب وقف صيانة هابل، باستيعاب مهام القمر والمريخ المزيد والمزيد من المال، وبأن العصر الذهبى لعلم الكون سوف يقضى عليه من أجل تزويدنا بمشهد أشخاص يذهبون إلى الفضاء ليس لأى سبب بعينه.

حين ينفد ما لدى المدافعين عن الرحلات المأهولة من حجج خاصة بمساهمتها فى «المصالح العلمية والأمنية والاقتصادية»، فإنهم يستعينون بروح الاستكشاف والحديث عن «درب أوريجون» (بوش الأب) أو ليويس و كلارك (بوش الابن). وكشأن كثيرين غيرى، فأنا لست محصناً ضد إثارة رؤية رواد الفضاء يسيرون على المريخ أو القمر. فقد مشينا مراراً على المريخ فى قراءتنا؛ مع دانتى وبياتريس أثناء زيارة كوكب الشهداء والأبطال، ومع سكان الأرض عند راى برابرى وهم يعثرون على آثار وأشباح حضارة المريخ المختفية، ومنذ فترة أقرب مع رواد كيم ستانلى روبنسون الذين يحولون المريخ إلى وطن جديد للبشر. وآمل أن يسير الرجال والنساء على سطح المريخ. ولكن قبل أن يحدث ذلك، لابد أن نشعر بالرضا.

وأحد شروط ذلك هو أنه لابد أن يكون هناك ما يفعله الناس على المريخ ولا يمكن أن يفعله الإنسان الآلى. فإذا سافر بضعة رواد فضاء إلى المريخ وغرسوا العلم ونظروا إلى الصخور وضربوا بضع كرات جولف، ومن ثم عادوا، فسوف تكون تلك لحظة مثيرة فى البداية، ولكن بعد ذلك، حين لا يحدث ما يزيد كثيراً عن هذا، سوف يتبقى لنا إحساس مرير بخيبة الأمل، تماماً مثلما حدث بعد انتهاء مهام أبوللو. وربما يحدث بعد إرسال المزيد من الإنسان الآلى إلى مواقع مختلفة على المريخ أن نجد ما يشجع على الدعوة إلى الدراسة المباشرة التى يقوم به بشر. وإلى أن يحين ذلك، فليس هناك ما يدعو إلى ذهاب بشر إلى هذا الكوكب.

الشرط الضرورى الآخر هو حدوث إعادة توجيه للتفكير الأمريكى بشأن الإنفاق الحكومى. ويبدو أن هناك انطباعاً عاماً بأن الإنفاق الحكومى يضر الاقتصاد بسحبه أموالاً من القطاع الخاص، وهو ما يوجب الإبقاء عليه دائماً فى حده الأدنى. ومادام الجمهور يفكر فى الإنفاق الحكومى على أنه يتطفل على الاقتصاد الخاص، فإنه على عكس ما يسمى دائماً بـ«العلم الكبير». التليسكوبات التى تدور فى الفضاء، ومُسرِّعات الجسيمات، ومشروعات الجينوم. سوف يؤثر إرسال بشر إلى القمر والمريخ باهظ التكلفة سلباً على الدعم المناسب للرعاية الصحية، والأمن القومى، والتعليم وغير ذلك من المصالح العامة، بينما بدأ بالفعل فى التأثير سلباً على الإنفاق على العلوم.

كانت دراستى هى الفيزياء، ولذلك فإنى أتردد فى إطلاق تصريحات بشأن الاقتصاد. ولكن يتضح لى أن إنفاق الحكومة دولاراً واحداً على المنافع العامة يؤثر على النشاط الاقتصادى والتوظيف إجمالاً، بنفس الطريقة التى تخفض بها الحكومة الضرائب بمقدار دولار واحد فينفق حينئذ على المنافع الخاصة. فالفرق الأساسى هو نوع المنافع التى يحققها الاقتصاد: هل هى عامة أم خاصة. وليست مسألة نوع المنافع التى نحتاجها أكثر من غيرها مسألة خاصة بالعلوم الاقتصادية وإنما بالأحكام القيمية التى يمكن أن يصدرها أى شخص. وفى رأيى أن أسوأ مشكلة تواجه مجتمعنا ليست هى أن هناك ندرة فى المنافع الخاصة. المأكل أو الملبس أو السيارات الرياضية أو الإلكترونيات الاستهلاكية. بل هى وجود مرضى لا يحصلون على الرعاية الصحية، ومدمنى مخدرات لا يدخلون فى برامج إعادة التأهيل، وموانئ معرضة للهجمات الإرهابية، وموارد غير كافية للتعامل مع أفغانستان والعراق، وأطفال أمريكيين يتيمون. وقد قال جستيس هولمز: «الضرائب هى ما ندفعه للحصول على مجتمع متحضر»، ولكن مادام المجتمع على هذا القدر الشديد من البُغض لدفع الضرائب، فسوف تكون هناك أموال أقل سواء لتخفيف تلك المشاكل المجتمعية أو القيام بأبحاث علمية حقيقية إن نحن أنفقنا مئات المليارات من الدولارات على إرسال بشر إلى الفضاء.

أخذت فيما سبق مبادرة الرئيس الفضائية مأخذ الجد. وقد تكون تلك هى غلطتى. فقبل الإعلان عن «الرؤية الجديدة»، واجهت الحكومة خطر حدوث ضرر سياسى نتيجة لحادث مكوكى مدمر جديد مثل كارثة كولومبيا منذ أقل من سنة. ويمكن الحد من هذه المشكلة بإلغاء رحلات المكوك قبل انتخابات الرئاسة لعام ٢٠٠٤، والسماح بما يكفى فقط من الرحلات بعد ذلك لبناء المحطة الفضائية. وتشكل المحطة الفضائية مشكلة أخرى؛ فلم يعد هناك من يثيره ما أصبح «ديك رومى مدارى كبير». وبينما تحول التعهدات تجاه المقاولين المحليين والشركاء الدوليين دون التخلص منها على الفور، فلابد من خفض تكاليفها الجامحة. إلا أن مجرد خفض نفقات المكوك والمحطة الفضائية سوف يكون أمراً غاية فى السلبية، ولا يتماشى بحال من الأحوال مع ما قد يكون متوقعاً من «رؤية الرئيس». ولذلك فلنعد إلى القمر وإلى المريخ! فمعظم هذه المهام غير المأهولة سوف يحين وقتها بعد ترك الرئيس لمنصبه فى عام ٢٠٠٥ أو ٢٠٠٩، ويمكن تغطية النفقات الزائدة قبل ذلك بشكل جزئى عن طريق خفض نفقات أشياء أخرى لم يهتم بها أحد فى البيت الأبيض بحال من الأحوال، مثل البحث عن الثقوب السوداء وعلم الكون. ومن الذى سيهتم بعد انتهاء فترة الرئيس؟ فإذا لم يكن الرؤساء القادمون غير مستعدين لتمويل هذه المبادرة، فحينئذ سيكونون هم من يتحمل وصمة الرؤية المحدودة. ولذلك فإننا إذا نظرنا إلى الجانب المشرق، فإنه بدلاً من إنفاق ما يقرب من تريليون دولار على المهام المأهولة المتجهة إلى القمر والمريخ، فقد ينتهى بنا الحال إلى إنفاق جزء يسير فقط من هذا على لا شىء بالمرة. ■

أسوأ مشكلة تواجه المجتمع الأمريكى ليست هى أن هناك ندرة فى المنافع الخاصة. المأكل أو الملبس أو السيارات الرياضية أو الإلكترونيات الاستهلاكية. بل هى وجود مرضى لا يحصلون على الرعاية الصحية

"الأنفلونزا الكبرى" أخطر

ويليام ماكنيل

قبل أيام، أعلن علماء أمريكيون وصينيون أن سلالة «مخيفة» من الفيروس المسبب لمرض «أنفلونزا الطيور» القاتل للإنسان، تمر حاليًا بطفرة ويمكن أن تتفشى بين البشر ما لم يتم السيطرة عليها حيث ظهرت إصابة بين «البط» ويجب التحرك الفعلى لمنع انتقالها إلى الدجاج. وفى اليوم الأول من يوليو «تموز» هذا العام أعلن فى فيتنام أن نحو ٤٥٠٠ دجاجة نفقت «خلال الأشهر الثلاثة الماضية» بسبب وباء أنفلونزا الطيور. وهذا المقال يلخص القصة الملحمية التى كتبها جون بارى عن هذا الوباء، عندما تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ واستحق أن يوصف بأنه الوباء الأكثر فتكًا فى التاريخ.

(المحـــرر)

[١]

■■ رواية «جون بارى» عن وباء الأنفلونزا الذى تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩، وقتل من البشر أكثر مما قتلتهم بنادق وحراب الحرب العالمية الأولى، رواية رائعة مفعمة بالحياة زاخرة بالمعلومات ويتعين أن تثير اهتمامًا غير عادى فى عام ظهور نوع فتاك من «أنفلونزا الطيور» ينتقل إلى البشر ويتفشى فى شرق آسيا وقد يكون على وشك اجتياح العالم على نطاق واسع كما فعل سلفه «وباء ١٩١٨». فى ذلك العام، لم يكن أحد يعرف سبب الوباء، الأمر الذى أدى إلى فشل جهود إيجاد الدواء. أما اليوم فإن المشتغلين بالطب، وكذلك هيئات الصحة العامة، فى وضع استعداد أفضل كثيرًا عما كان عليه الحال عام ١٩١٨. إنهم يعرفون الآن طرق تحصين الإنسان ضد فيروس الأنفلونزا. رغم ذلك، ومع كل الخبرات والمهارات المتراكمة، يظل الشك قائمًا فى قدرة المؤسسة العلاجية المعاصرة على تقديم المصل الضرورى، فى التوقيت الصحيح، وبالقدر الكافى، لإحباط زحف أمراض وموت مشابه لما حدث قبل ٨٦ عامًا.

يروى «بارى» قصة الوباء فى فصول تبحر عبر أزمنة بعيدة وقريبة، وتفاصيل مثيرة لذكريات بداية تفشى الأنفلونزا فى ولايات أمريكية. يتعرض للمحاولات المعملية والجهود الحثيثة، وإن فشلت، لمجموعة من الأطباء الأمريكيين سعت إلى العثور على الجرثومة المسببة للمرض، بهدف إيجاد المصل المضاد للوباء الذى خمد فى نهاية المطاف وانحسر نتيجة عوامل خاصة بالدورة الطبيعية للجرثومة وتطورها، والعلاقة الأزلية ما بين الكائنات الحية والبيئة وارتفاع مستويات المقاومة داخل خلايا الدم عند الإنسان، والتغير المهم المفاجئ للمورثات، والذى يجرد الفيروس من خاصيته المميتة.

خمد الوباء لأسباب لم تكن مفهومة زمن تفشيه، ودون أى تدخل طبى يعترض عملية التفاعل الطبيعى بين الفيروس الطفيلى وجسم الإنسان. لكن رواية «بارى» تستفيد من الاكتشافات العلمية اللاحقة، وتستند إلى فهمه المتجدد المثير للإعجاب والذى يضفى تفردًا وهيبة، على الصور التى يرسمها لـ «ديناميكية العدوى والوباء، ووظيفة الفيروس ومحاولة الأطباء ومسئولى الصحة العامة مواجهة الخراب والتعامل مع الموقف. يرصد «بارى» الأخطاء ويبدى تقديره لـ «الجهد» ويعيد بناء دورة العدوى وطبيعة الوباء فى ضوء مستويات الفهم العلمى الحالية، ويقول إنه احتاج لكى ينجز كتاب «الإنفلونزا الكبرى» إلى ٧ سنوات، وهى ضعف الفترة التى توقعها لإنجازه، وإن بعض أسباب «التأخير» تعود إلى توسعه فى فصول الكتاب عندما قرر دراسة الأوضاع المؤسفة لصناعة الدواء الأمريكية قبل العام ١٩١٨ كى يتوصل إلى فهم أفضل للموقف الذى كان على العلماء والأطباء مواجهته عندما تفشى وباء الإنفلونزا فى ذلك العام. ويشير بارى إلى سبب آخر يكمن فى صعوبة الحصول على مادة مفيدة عن الوباء ويقول: «كان من السهل تتبع حكايات الموت. لكن اهتمامى الأكبر انصب على حكايات أولئك الذين حاولوا ممارسة بعض سيطرة على الأحداث. وكل من فعل ذلك كان فى عجلة من أمره، وفى حالة ارتباك شديدة إلى درجة أن أحدًا لم ينتبه إلى ضرورة تدوين الأحداث وحفظها فى سجلات».

السجلات هى، بلا شك، أول ما ينهار تحت وطأة تفشى الوباء. وظنى إن عاملًا آخر له تأثيره فى هذا السياق ويتمثل فى وجود أسباب خاصة تدفع الذين نجوا من الوباء إلى قمع ذكريات معاناتهم. وهذا العامل يفسر، فى اعتقادى، ندرة الأرقام فى الذاكرتين العامة والخاصة عن وباء إنفلونزا عام ١٩١٨، رغم ضخامة الإحصاء الذى سجل حوالى ٦٧٥ ألف حالة وفاة فى الولايات المتحدة، وما بين ٢٠ إلى ٥٠ مليون حالة حول العالم، معظمها فى الأسابيع الاثنى عشر الأخيرة لعام ١٩١٨. إن كل من عاش تلك الأسابيع الأخيرة، وإلى أن دار الوباء دورته، خاض تجربة الخوف من الموت أو من السقوط مريضًا، أو عانى معاناة حادة مع المرض. لقد كنت من هؤلاء الناجين لكننى لا أتذكر شيئًا إذ كان عمرى وقتها ١٣ شهرًا عندما سقطت أمى صريعة المرض فى شيكاغو. كانت حاملًا فى شقيقتى التى وضعتها فى الرابع عشر من ديسمبر ١٩١٨، قبل موعد ولادتها بأسابيع. أصيبت، ووالدى، بالأنفلونزا، وكان والدى خريجًا جامعيًا مفلسًا وجد نفسه، وأمى، وحيدان فى مدينة مشلولة وبلا أقرباء أو عون خارجى. لم يسجل والدى معاناتهما فى كتاب. ولم أسمعهما يتحدثان، فيما بعد، عما تبقى لديهما من ذكريات. بدت التجربة الأكثر رعبًا فى حياتهما وكأنها تعرضت لمحو ذاتى منظم لكى يبقى ما جرى بالفعل، وصراعهما من أجل البقاء، مجهولًا بالنسبة لى. لكننى علمت من كتاب «بارى» أن وباء الإنفلونزا كان أقل فتكًا فى شيكاغو مع حلول شهر ديسمبر عام ١٩١٨، عما كان عليه بداية تفشيه داخل معسكرات الجيش بالساحل الشرقى والمدن القريبة. «أصيب الشرق والجنوب بالوباء مبكرًا وبقوة أعنف من تلك التى أصابت الساحل الغربى.. وفى وسط البلاد كانت المعاناة قليلة». وهذا يفسر لى نجاة والدتى، وكذلك شقيقتى، رغم أن الأشهر الستة الأولى من عمرها كانت محفوفة بالمخاطر. وعندما لجأت أسرتى خلال الصيف إلى مسقط رأس أبى فى مزرعته بكندا، أنقذت الشمس المشرقة، ورعاية جدتى، أمى وشقيقتى من أهوال شهر ديسمبر. انزوت الأهوال بعيدًا فى زوايا النسيان وبقيت النهايات السعيدة تعاد وتروى دون ذكر لتفاصيل آلام الوحدة والخوف واليأس والمعاناة.

لدى كل من عانى وشفى من وباء الأنفلونزا ذكريات مشابهة مقموعة. ويرى «بارى» أن كتاب الصحافة والدراما فى العشرينيات لم يذكروا إلا القليل عن معاناة البشر أيام الوباء. وأذكر أن الشخص الوحيد الذى تحدث معى عنه، فى المحيط الذى تربيت فيه، كان صبيًا

الرسالة الواضحة هى أن عودة
انتشار الموت بفعل الأنفلونزا
لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة،
ورغم كثرة المنظمات العالمية
المنوط بها مقاومة الأوبئة

The Great Influenza: The Epic Story of the Deadliest Plague in History

الأنفلونزا الكبرى: القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكًا فى التاريخ

John M. Barry
Viking Books, 2004, 560pp

المصدر:
The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

سلاح دمار شامل

القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكا فى التاريخ

مات والده فى معسكر للجيش. وما نقلته إليه أمه لم يكن فيه الكثير عن وباء الأنفلونزا بقدر ما فيه عن الحرب التى اعتبرتها سبب وفاة زوجها. الجديد عند «باري» هو عثوره على ما يشبه رواية يوميات تسجل حالة الإصابة بالوباء فى كتاب بعنوان «فرس شاحب.. فارس شاحب» نشرته «كاترين آن بورتر» عام ١٩٣٩، وكانت نفسها ضحية المرض. وينقل «باري» عن «بورتر» قولها: «...راحت تغرق وتغرق فى ظلمات عميقة. رقدت كحجرة فى قاع الحياة مدركة أنها لم تعد ترى أو تسمع أو تتكلم. لم تعد تشعر بأعضاء جسدها. انسحبت إلى نقطة بعيدة عن اهتمامات البشر ولم تتبين سوى لحظة احتراق وحشية فى بؤرة من كينونتها لعلها شكلت الدافع الوحيد وراء إرادة عنيدة لكى تقاوم الانهيار دون حراك أو مساعدة أو خطة...». هذه المشاعر تبدو زائفة بالنسبة لى فقد أصبت، فى الخمسينيات، بالتهاب رئوى (وهو القاتل الفعلى لمعظم ضحايا وباء الأنفلونزا). وربما شعرت وقتها بـ «قاع ظلمات وانسحابات» بورتر. لكننى لم أشعر بتلك «الإرادة المشتعلة» للحياة. فى المقابل، وبفضل «البنسلين» أصابنى الشحوب ورقدت فى حالة إغماء وصحوت فى اليوم التالى خائر القوى بدرجة لم أعرفها من قبل.

آلام الحمى تعقبها حالة إغماء، وبعدها إما أن نشفى أو نموت. وأظن أن هذا هو ما خبره معظم ضحايا وباء الأنفلونزا ما بين عامى ١٩١٨ - ١٩١٩. لا يوجد الكثير لكى يقال ويذكر. ولا يقول كتاب «باري» الكثير عن كيف كان الحال عند الإصابة بالأنفلونزا الوبائية فى تلك الفترة. لكنه، وبصياغات أدبية غير عادية، وبراعة مثيرة للإعجاب فى عرضه لكل جديد فى علم الأوبئة، يقوم بعملية تنشيط قوية للذاكرة المعاصرة فى وقت قويت فيه التهديدات من أشكال جديدة لفيروس أنفلونزا مميت ظهر ويثير قلق المختصين والعامة على نطاق واسع.

[٢]

يعد وباء الأنفلونزا من أخطر الأوبئة التى تهدد البشرية. وتكمن خطورته فى أن الفيروس المسبب له يكون فى حالة تغير مستمرة خلال انتقاله ما بين الطيور والخنازير والكائنات الحية. وكل موسم جديد من مواسم «الأنفلونزا» يحمل تحديات جديدة للمختصين الذين عليهم أن يحددوا، وعلى وجه الدقة، نوع سلالة الفيروس التى يمكن استخدامها لإعداد المصل المضاد الملائم، وكذلك تحديد نوع الجرعات التى يمكن لملايين الأطفال والمسنين تعاطيها لمنع العدوى. ومواجهة هذه التحديات لا تزيل التهديد الذى يظل قائماً ويتمثل فى أن كل نوع يظهر فجأة من فيروسات الأنفلونزا يكون على درجة من الاختلاف عن ما قبله، تجعله قادراً على مقاومة المصل وكل المضادات الحيوية المتراكمة داخل أنظمة التحصين عند الطيور والخنازير والبشر.

وتتميز الفيروسات، كشأن كل الكائنات الحية، بقدرة على التحول والتغير واستمرار افتراسها. بلا رحمة. لخلايا أجسادنا. ونحن. كبشر. لدينا قدرات فريدة تمكننا من مقاومة أشكال هائلة لأنواع أخرى من فيروسات الأنفلونزا، إضافة إلى قدرة على استفزاز مصادر الطاقة الكامنة داخلنا. ونجد. فى المقابل. أن فيروس الأنفلونزا مقيد، بشكل محدود، ويعتمد. كما أشرنا. على إمكانية التحول المفاجئ والناجح إلى طفيل يصيب الطيور (المصدر الأساسى لتغذية الفيروس) كما يصيب مختلف الثدييات مثل الخنازير والبشر بالدرجة الأولى. هكذا يقدم «باري» فى كتابه، أكثر التفسيرات وضوحاً لكيفية تمكن نوع بعينه من فيروس الأنفلونزا من اختراق الخلايا البشرية والتكاثر داخلها، وخلال ما يقرب من عشر ساعات، إلى آلاف الفيروسات المنبعثة من الخلية الميتة والمستعدة القادرة على تكرار الدورة المميتة.

أوضح باري كيفية تغير الفيروس عبر ما يسمى بـ «تحول الجسم المضاد» وبصياغات دقيقة ومحكمة وأسلوب بسيط يسهل فهمه. فالسرعة التى تتكاثر بها فيروسات الأنفلونزا وتنتشر بنجاح داخل أجسادنا هى التى تزيد من وطأة المرض وشدته. ورغم قدرة الأجسام المضادة، داخل الجسد البشرى، على كبح هذا التكاثر، إلا أن نوعاً ثانوياً من البكتيريا يغزو الحنجرة والرئة ويتكاثر ويكون القاتل الفعلى لمعظم ضحايا الأنفلونزا.



يسوق «باري» فى كتابه ملاحظات كثيرة وجيهة حول انعكاسات سلبية لحالة التعبئة الأمريكية النشطة فى الحرب العالمية الأولى، على وباء عام ١٩١٨. فى مقدمة هذه الملاحظات أن الآلاف من الجنود الصغار كانوا أكثر عرضة للعدوى عندما فرضت التعبئة للحرب تكدسهم بالآلاف داخل معسكرات ضيقة وعشوائية. هذه الحقيقة كانت معروفة لمجموعة صغيرة من الأطباء الذين تتبع «باري» تاريخهم المهنى مثل ويليام هنرى ويلش، سيمون فيلكستر، ويليام كراوفورد جورجاس، ويليام بارك، أوزوالد أفيرى، وبول لويس. بعض هؤلاء، وخاصة جورجاس، وويلش، وفيلكستر، كانوا فى وضع سمح لأصواتهم المحذرة بأن تصل إلى القيادات لكن ضرورات الحرب، الحقيقية أو المبالغ فيها، أدت إلى تجاهل جهودهم الرامية إلى عزل ومحاصرة المرض الوبائى فى بداية تفشيه. وتفيد إعادة ترتيب الإحصاءات بأن عدد الجنود الذين لاقوا حتفهم بسبب العدوى أكثر من عدد هؤلاء الذين قتلتهم إصابات الجروح. كما أن الأمصال المضادة لأمراض مثل التفوئيد والكوليرا، والتى جاءت ثمرة تطورات علم الجراثيم عام ١٩١٧، هى التى ساعدت على نجاة ملايين البشر داخل الخنادق على الجبهة الفرنسية، فى وقت كان فيه الجنود الروس يموتون بالتيفوس وأوبئة مماثلة، على الجبهة الشرقية لتلك الحرب البعيدة كان الطبيب جراح كراوفورد جورجاس يعرف ذلك جيداً عندما عين برتبة جنرال بالجيش الأمريكى بعد أن ذاع صيته لنجاحه فى

السيطرة على وباء الحمى الصفراء فى هافانا ومنطقة القنال (فى كوبا). لقد عمل جورجاس على إنتاج وتخزين كميات كبيرة من الأمصال والمضادات الحيوية والمحاليل. رغم ذلك، وعندما تفشى وباء الحصبة فى ولايتى جورجيا وتكساس ما بين سبتمبر ١٩١٧ ومارس ١٩١٨, تبين أن استعداداته لم تكن كافية وتسجل الإحصاءات ٥ آلاف و٧٤١ حالة وفاة بالحصبة فى معسكرات الجيش الموبوءة. لكن هذا الرقم سرعان ما تضاءل امام أرقام ضحايا هجوم الأنفلونزا الذى بدأ فى الشهر الذى خمد فيه وباء الحصبة. ففى مارس ١٩١٨ بدأ وباء الأنفلونزا يتفشى فى معسكر «فنستون» بولاية كنساس. كانت الوفيات قليلة فى البداية، ولم يبدأ الاهتمام الواسع المشوب بالخوف إلا فى شهر يوليو عندما حصدت موجة ثانية من الوباء المزيد من الأرواح مع ظهور أعراض حادة تشير إلى أنها أنفلونزا غير عادية، وتزامن تفشيها فى كل من برست بفرنسا، فرى بورت بسيراليون، وبوسطن ماستشوستس. وسرعان ما راح ينتشر فى أنحاء العالم تحمله السفن والطرق الحديدية ليصل ذروته فى سبتمبر وأكتوبر ثم يبدأ فى الانحسار تدريجياً بعد توهجات متواترة.

يُرجع جديد الأبحاث نشأة وباء أنفلونزا عام ١٩١٨ داخل الولايات المتحدة على الأقل، إلى سلالة خبيثة لفيروس أصاب بعض أهالى ريف كنساس فى فبراير من ذلك العام، وأن العدوى انتقلت إلى معسكر «هاكسل» بواسطة ثلاثة رجال طُلبوا لأداء الخدمة العسكرية فى ذلك الشهر وقبل بداية موسم الحصاد فى كنساس. ونحن نعرف أن نشأة وباء أنفلونزا الطيور الجديد وتفشيه (بداية العام الجارى) كانت فى ريف شرق أسيا. ففى الريف يعيش الإنسان عادة على قرب شديد من الطيور والخنازير.

المصدر الأكيد للوباء القديم (١٩١٨) لم يتحدد بعد. لكن «بارى» ركز انتباهه على سلسلة أحداث مترابطة ومنتقاة عن مسار الوباء وانتشاره فى الولايات المتحدة وبعض أجزاء من العالم. وقد لوحظت أهم إصابات الوباء مع نهاية أغسطس وخلال الأيام الأولى من سبتمبر فى معسكر ديفنس بولاية ماستشوسيتس حيث تكدس ما يقرب من ٤٥ ألف رجل فى المعسكرات العشوائية وسجلت أيام الذروة ما يقرب من ألف و٥٤٣ إصابة، وحوالى ٢٠٠ حالة وفاة كل يوم. كان الأطباء والممرضات الأكثر عرضة للعدوى، وسقط العديد منهم بين مرضى وموتى، وسرعان ما انهار مستشفى المعسكر وأعلن المتحدث الرسمى له، يوم ٢١ سبتمبر، أنه لن يُسمح بدخول المزيد من المرضى مهما كانت حالاتهم. كادت الرعاية الصحية تنعدم تماماً إلى أن ظهر الدكتور ويليام هنرى ويلش على مسرح الأحداث باعتباره «البطل الأمريكى» الرئيسى الذى أنشأ مختبراً علمياً للدواء، على الطريقة الألمانية، ووصفه بارى فى كتابه بأنه «زعيم الحركة التى أوجدت أكبر مؤسسة علمية للدواء، وربما أعظم مؤسسة علمية فى العالم كله». وقت ظهور الدكتور ويلش كان أكثر من ستة آلاف جندى قد حشروا داخل المستشفى صمم لاستيعاب ما لا يزيد على ٢٥٠٠ مريض. واختفت المرضات وتزايدت المخاطر مع تزايد الأمراض. أنوف وآذان نازفة، وجوه زرقاء، ورئات محطمة بصور غير معهودة، جنباً إلى جنب مع جثث الموتى المتراكمة كالحبال والأخشاب». هذه الصور الدامية اقنعت ويلش ورفاقه بأن «هذا لابد أن يكون نوع جديد من العدوى أو الطاعون». لكن ويلش، وبعض العلماء، سرعان ما تخلوا عن هذا الاعتقاد وتوصلوا إلى أن سبب الوباء يكمن فى نوع خبيث جديد من الأنفلونزا مركب من «تشكيلة» من الأوبئة الأخرى. ويبقى السؤال يبحث عن إجابة محددة: ما هو سبب وباء الأنفلونزا؟

أوضحت أبحاث حديثة، فى مجالات وباء السل وأوبئة بكتيرية أخرى، أن معرفة الوباء تتطلب أخذ مسحات من الأغشية المخاطية للمرضى والموتى، ثم محاولة إنماء البكتيريا العالقة بتلك المسحات فى المختبرات على أمل تحديد هوية الكائن الحى المسئول، أو المسبب للمرض. وتستند هذه النظرية إلى فرضية أن كائناً شديد الدقة، متناهى الصغر، لا يرى إلا تحت المجهر ويدعى «الفيروس المترشح»، ربما يكون مسبب المرض. وكان الدكتور لويس، أهم أبطال رواية «بارى» ميالاً إلى هذه النظرية خاصة وقد أثبت من قبل أن فيروساً مشابهاً يكمن وراء «شلل الأطفال». لكن تسمية المسبب غير المرئى باسم جديد دون تحديده، تعد أمراً شديد الشبه بأن نرجع سبب مرض ما إلى «بخار عفن منبعث من مستنقعات»! وهذا هو ما فعله أكثر أطباء أوروبا إطلاعاً، فيما قبل الثمانينيات، عندما أثبت الطبيب الألمانى روبرت كوتش، نظرية «الجرثوم المنافس»، وأعلن أن أنواعاً محددة من البكتيريا الدقيقة التى يمكن رؤيتها تحت المجهر، هى التى تتسبب فى وبائى السل والكوليرا. تمكن كوتش من تطوير طرق إنماء هذه البكتيريا فى معمله ثم قتلها وإعداد أمصال مضادة. ولا يمكن لهذه الخطوات أن تتم طالما بقيت الفيروسات غير مرئية. لهذا لم يكن أمام أطباء وعلماء عام ١٩١٨ إلا تركيز جهودهم الساعية إلى إيجاد علاج لوباء الإنفلونزا، على ضرورة اكتشاف البكتيريا العضوية المسئولة عن الوباء. وفى ألمانيا، عندما تفشى نوع بسيط من وباء الأنفلونزا، أعلن طبيب محترم يدعى ريتشارد بفيفر أنه اكتشف نوع جديد من هذه البكتيريا قال إنها تنمو داخل حناجر المرضى وتسبب ما أسماه بـ «الأنفلونزا البكتيرية». ويبدو أن الدكتور بفيفر ظن أن موقعه كمدير لمعهد برلين للأمراض الوبائية سيجعل «اكتشافه» جديراً بالتصديق. إذ أن العثور على تلك البكتيريا الجديدة فى حناجر المصابين بالأنفلونزا كان أمراً شديد الصعوبة. إضافة إلى فشل د. بفيفر فى إيجاد الوسائل المعملية الكفيلة بإنماء هذه البكتيريا ومحاولة إعداد أمصال مضادة للمرض.



ومن المؤكد ـ علمياً ـ أن ما حدث عام ١٩١٨ هو أن مجموعة متنوعة من البكتيريا غزت حناجر ورئات الأشخاص الذين تحللت أو دمرت أغشيتهم المخاطية نتيجة إصابتهم بفيروس الأنفلونزا الخبيث. هذا الفيروس الذى أحكم سيطرته وأحدث تلفيات وردود افعال لأنظمة المناعة داخل جسم الإنسان، وغمر الرئة بخلايا ونفايات فيروسية. هذه هى الأسباب المرجحة وراء معظم الوفيات. أما بكتيريا الدكتور بفيفر فقد ظلت غير واضحة إلى أن تحسنت وسائل الفحص المعملى وتم اكتشافها فى مسحات أغشية مخاطية، الأمر الذى دفع د. بول لويس إلى التخلى عن فكرة وجود فيروس واحد وراء العدوى واللحاق بالفريق الذى يعتقد أن بكتيريا د. بفيفر هى المسبب للمرض. لكن هذا الاعتقاد انتهى بإعداد مصل يستفيد من جثث الموتى لكنه عديم الجدوى فى مكافحة الأنفلونزا. عدم فاعلية هذا اللقاح، وكل جهد بذل فى إطار نظرية بفيفر، أنعش من جديد نظرية الفيروس الواحد إلى أن جاءت الأربعينيات بالمجهر الإلكترونى القادر على أن يجعل الفيروس مرئياً وأصبح من الممكن تمييز مختلف الفيروسات ودراسة سلوكها. لقد كان على الفهم المعاصر لفيروس الأنفلونزا، وقدراتنا الحالية على إعداد المصل المضاد، أن ينتظر اختراع المجهر الإلكترونى. ويقودنا الحديث إلى جهد مواز بذل ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ وكان أكثر نجاحاً فى إيجاد المصل المضاد للالتهاب الرئوى رغم أن فاعلية هذا المصل كانت مقصورة على التعامل مع بعض سلالات الجراثيم التى تصيب الرئة، وأدت صعوبة تصنيعه إلى إنتاج كميات ضئيلة منه لم تكن متوفرة إلا قبل النهاية «الطبيعية» للوباء. رغم ذلك، وكما يقول «بارى» فى كتابه، تبين أن تلك الأبحاث والتجارب التى أجراها د. أوزوالد حول جراثيم الرئة هى التى قادت عام ١٩٤٣ إلى الاكتشافات الأولية

للحمض النووى DNA فى التركيب الوراثى.

حكايات «بارى» عن بكتيريا الدكتور بفييفر وجهوده المعملية لإيجاد علاج للإنفلونزا، حكايات زاخرة بالمعلومات وتنويرية يرويها بإعجاب ويضفى أبعاداً درامية فى تناول كل جهد لكل عالم أو طبيب من أبطال روايته. رغم ذلك يعانى كتابه من أوجه نقص تجعل روايته عن وباء الإنفلونزا غير شاملة، ركز بارى على ما حدث داخل الولايات المتحدة لكنه لم يخبرنا. عملياً. إلا بما حدث فى مكانين فقط بـ الموقف الكارثى فى معسكر ديفنس بولاية ماستشوستس والذى اقترن برواية أطول عن ما حدث فى فلاديلفيا. قفز بارى فوق مدن أخرى مثل نيويورك وبوسطن حيث كان للوباء القدر نفسه من الشلل والفتك.

أما إشاراته إلى تفشى الوباء فى اجزاء أخرى من البلاد فقد جاءت متناثرة وشحيحة. ولم يقل «بارى» شيئاً عن أوروبا. وما قاله. بالفعل. حفل بمغالطات ناجمة عن رغبته فى التعظيم من خطر الإنفلونزا. يقول. على سبيل المثال. إن الهجوم الألمانى فى ربيع عام ١٩١٨ ربما يكون توقف بسبب تفشى الإنفلونزا وأن «القائد الألمانى» لودندورف نفسه «لام الوباء الذى أفقده المبادءة»، ثم يتراجع قائلاً إن لودندورف ربما يكون اتخذ من سقوط جنود الحلفاء مرضى بالإنفلونزا ذريعة أو حجة لوقف الهجوم.

وفى السياق نفسه يأتى قول «بارى» أن هجمة إنفلونزا فى عام ١٩٢٠ «أضعفت عقل وجسد الرئيس ويلسون إلى درجة دفعته إلى إنهاء صراعه مع كليمنصو ولويد جورج حول شروط معاهدة فرساى للسلام».

هكذا يُحمل بارى الإنفلونزا مسئولية قرارات سياسية وحربية من المؤكد أنها تأثرت باعتبارات أخرى أكثر إلحاحاً. كذلك عانى كتاب بارى من قصور ملحوظ فى تصويره لمدى وحجم تفشى الوباء فى بقية أنحاء العالم. جملتان فقط هما كل ما كرسه للصين، البلد الأكثر تعداداً فى السكان، تلتهما صفحة من الوصف المبالغ فيه عن الوباء فى الهند: «لم يكن هناك إلا الموت فى شبه القارة الهندية، القطارات تغادر حاملة الأحياء وتعود كل يوم محملة بالموتى والموت». وفى تصوير آخر مفعم بالدراما يقول «اندفع الفيروس بعنف مخترقاً السنغال، سيراليون، إسبانيا، وسويسرا، مخلفاً الدمار الحاد وفارضاً ضريبة موت زادت فى بعض المناطق عن ١٥٪ من إجمالى عدد السكان». معلومات مبهمة عشوائية وتكاد تكون بلا معنى.

يضاف إلى ذلك أن بارى يتمسك بمجموعة من المشتغلين بالطب كأبطال لروايته رغم أن تجاربهم المعملية لم تخرج بشىء يذكر لمقاومة الإنفلونزا. ويبدو أن النجاحات اللاحقة فى اكتشاف الفيروس جعلت بارى لا ينظر إلى جهود أخرى، غير فعالة أيضاً، وإن كانت مريحة ومساعدة، بذلها آخرون فى مواجهة المرض وللحد من الوباء. لقد قلل من شأن أطباء فعلوا ما يفعله أمثالهم من مهنيين عبر قرون مضت: تقديم علاجات غير مفيدة. لكنهم. ومع ذلك. أكدوا للناس أن شيئاً ما يحدث وأن أطباء «بارى» ليسوا أفضل منهم.

يعرب «بارى» عن أسفه للسياسة الحكومية والإعلامية التى حاولت التقليل من حقيقة الوباء، أو إنكارها. وينقل. بسخرية. عن مفوض الصحة العامة قوله: «إن من واجبنا إبعاد الخوف عن الناس، فالقلق يفتك بأعداد أكثر من تلك التى يفتك بها الوباء». وهذه مجرد أكاذيب أو أنصاف حقائق صممت لطمأنة الناس، وقد تكون سمحت للمجتمع الأمريكى بالاستمرار فى أداء وظائفه قبل وبعد تفشى الوباء، وحافظت على «السلوك العادى» فى العديد من القرى والمدن. ومن المهم ملاحظة أن اقتصاد المجتمع الأمريكى فى عام ١٩١٨ كان يقوم ويعتمد على تدفق السلع والخدمات عبر البلاد. وكل إعاقة لحركة التدفق هذه تعد تهديداً للحياة. فلا توجد مدينة تستطيع أن تحيا دون إمدادات متواصلة من الغذاء والسلع الضرورية الأخرى. وقد زاد المجهود الحربى من قابلية هذه الأوضاع للانكسار بأن حشد ملايين الجنود فى معسكرات جيش عشوائية. وكان من الضرورى الحفاظ على «روتين» عمل يومى. وربما يكون الإنكار الرسمى لاقتراب الوباء القاتل من هذه المدينة أو تلك قد ساعد فى تحقيق الأهداف المرجوة. لكن «بارى» يظن أن مثل هذه السياسات الرسمية أوجدت عدم الثقة. وفى المقابل لا تذكر فصول الكتاب شيئاً عن دور رجال الدين والجهد المنوط عادة بالقساوسة ورؤساء الكنائس لطمأنة رعاياهم وقت الأزمات. ومن المؤكد أن هؤلاء جابوا البلاد ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ لتقديم العون التقليدى عبر إقامة الصلوات والاحتشاد وأداء شعائر وطقوس وخدمات دفن الموتى. هذه الجهود لم تقدم الدواء لكنها طمأنت الخائفين وساهمت فى الحفاظ على تماسك المجتمع الأمريكى، ولو لبعض الوقت.

لقد شيد بارى نصاً شديد البراعة يبدأ وينتهى بلقطات فوتوغرافية للدكتور بول لويس وهو يتحدى المرض الجديد داخل مستشفى فلاديلفيا عام ,١٩١٨ ثم وهو يعانى سكرات الموت بالحمى الصفراء عام ١٩٢٩ فى البرازيل.



جعل «بارى» من الدكتور لويس النموذج والرمز للجهود «غير المجدية» التى حاولت إيجاد علاج للوباء فى المختبرات العلمية. وصفه بأنه «أذكى من عرفهم» لكنه، وفى كل مرة يتحدث فيها عنه كان يكرر وصفه بالعبارة نفسها التى بدت وكأنها شعار أو «موتيفة» لشركة لإنتاج الأفلام. وفى السياق نفسه صاغ العناوين الرئيسية لفصول كتابه وكأنها ترديدات «كورس» فى فرقة إنشاد: «هذه أنفلونزا.. مجرد أنفلونزا»، «الحرب هناك والوباء هنا»، و«لم يكن هناك وقت»، لكن هذه الصور البلاغية أضفت ظلالاً شبه ملحمية على النص. ولعل هذا هو سبب اختيار «بارى» للعنوان الفرعى لكتابه: «القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكاً فى التاريخ». ولأن هذه العبارات توحى بالملحمية وتكرسها نرى «بارى» قد أكثر من اللجوء إليها فساوى بذلك. فى كتابه. ما بين الأبطال والمخادعين. وهنا قد تكمن حقيقة الأنفلونزا ذاتها: فوباء عام ١٩١٨ قتل من البشر أكثر من الذين قتلهم أى وباء سابق. لكن «حجم الفتك» وفداحته كان بسبب كثافة بشرية مكنت الفيروس من العثور على من يتغذى بهم. وفى النتائج النهائية فإن هذا الوباء يكاد يكون من الأوبئة العادية إذا ما قورن بـ «الموت الأسود» الذى تفشى فى أوروبا وآسيا فى القرن الرابع عشر، أو الطاعون الذى تلاه. فكلاهما كان له التأثير الأبقى والأقوى على المجتمعات البشرية، وحصد من الناس حصة أكبر مما حصدها وباء أنفلونزا عام ١٩١٨ . ١٩١٩.

وطوال فصول كتابه يريدنا «بارى» أن نرتجف من الموت والمعاناة وأن نُعجب بأبطاله فى المختبرات العلمية ونستهين بشأن هؤلاء الذين حاولوا تهدئة الأمور وطمأنة الناس بالكلمات والعلاجات غير الكافية وقد يؤخذ عليه أنه بدا فى بعض الفصول كمحرر إعلانات يريد أن يملأ شاشات التلفاز بالمبالغات والإثارة. لكن فهمه الموسوعى لعلم الأوبئة المعاصر، وتفسيره البارع لكيفية عمل الفيروس داخل جسم الإنسان، يطغيان على بعض صياغاته التى جنحت إلى المغالاة.

ويبقى النص رسالة واضحة تجعل كتابة الكتاب الأكثر جدارة بالقراءة.. ذلك أن عودة انتشار الموت بفعل الأنفلونزا لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة، ورغم كثرة المنظمات العالمية المنوط بها مقاومة الأوبئة. ■

تعمد «وجهات نظر» إلى فتح نوافذ نقدية على أعمال أدبية غاب عنها الضوء لأسباب بعضها مفهوم. أملاً فى أن تتسع دائرة الاهتمام والتى تحدد بدورها دائرة التلقى والجمهور، لتصبح أكثر رحابة وسعة. وتصبح معها الأرض أكثر خصبًا ونماءً.

أشجان العاشق

حلمى محمد القاعود

■ ■ «أشجان العاشق» هى الرواية الأخيرة فى ثلاثية العشق التى كتبها «على أبو المكارم» على مدى سنوات مضت، استغرقت نحو خمسة عشر عامًا بدأت مع مطلع عقد التسعينيات فى القرن العشرين. كانت الرواية الأولى «الموت عشقًا»، والثانية «العاشق ينتظر»، وقد تناولتهما فى دراسة أخرى مع التركيز على الثانية التى تعرض للفساد الثقافى الذى يعيشه المجتمع، ومع أن الأولى ركزت على الفساد السياسى ومقاومة المجتمع له، فإن الرواية الأخيرة فى الثلاثية تعرض لما يمكن أن نسميه تجليات الاستبداد على قطاعات الشعب المختلفة، مع إضافة عنصر الهيمنة الأمريكية وتجلياتها العنصرية الاستعلائية.

ولا ريب أن استخدام مفردة «العاشق» فى عناوين الروايات الثلاث، لم يأت اعتباطًا، ولكن دلالته لا تخفى على القارئ الواعى، فالعشق هنا، ليس الغرام الذى يكون بين المرأة والرجل، ولكنه غرام من نوع آخر، يتوحد مع الوطن وهويته وتراثه وحاضره ومستقبله. إنه عشق الصوفية للذات الإلهية، حيث لا يشغلهم عن حبه شاغل، ولا يبعدهم عنه طارئ من الطوارئ، إنه حب دائم ومستمر إلى ما شاء الله.. وفى إهدائه للرواية الأخيرة: «إلى حبيبتى: غيرى على السلوان قادر»، نجد تأكيدًا على هذا الحب الذى لا يبلى بفعل الحوادث والأحزان والأشجان.. بل إن الفقرات الثلاث التى يصدر بها المؤلف الرواية تصب فى هذا السياق مصحوبة بالدعوة إلى حماية الوطن أو الحبيبة، والمقاومة مهما كانت التضحيات، فالحب يفرض المقاومة والتضحيات معًا.

إن الفقرة الأولى من فقرات المقدمة، تأتى فى إطار أقرب إلى السريالية، ولكنه يستدعى الهمجية الوحشية للمستعمرين الذين قصفوا هيروشيما بالقنابل الذرية، وقصفوا «البصرة» باليورانيوم المنضب، واحتلوها ووصلوا إلى كرسى الرشيد فى بغداد وجلسوا عليه، وتقدم لنا الفقرة أداء شعريًا جميلاً ينقل نصًا من نقش جدارى فى المعرض الدائم لمركز الزراعة التاريخى فى هيروشيما/ البصرة، عن احتراق «اللوحة الحجرية، لفيكاى الكبير، والنص يبشر بالثورة والتمرد ونشر ألحان حمراء تقضى على العفن والظلم والصمت.

فى الفقرة الثانية ذات الإيقاع الموسيقى والأداء الشعرى يستدعى الكاتب زارادشت/ فيتنام، وجيفارا، بوصفهما من أبرز رموز المقاومة والمواجهة مع الهمجية الوحشية الاستعمارية، ويبشر بالمولود المنتظر الذى سيأتى ويتوجع، ويبكى ويفزع: «قطعًا هو آت، رأيته فى هدأة الموت يغنى فى عين الإعصار، يخرج منها عملاقًا يتحدر، شبابًا يتفجر، يقبل، يتكلم، يتعلم، يكمل الحرف الناقص، يصحح لفظ الجملة، يمنحها المعنى الكامل، يزيل ضباب الصورة بضربة رأس ذات أصابع بشرية».

تأمل حديث الكاتب عن الجملة والكلمة والحرف، ودلالة ذلك فيما يرمز إليه من معانى المقاومة والفداء، وفيما يعود إلى الكاتب ذاته من اهتمام عملى باللغة، حيث يعمل أستاذًا للنحو واللغة فى الجامعة.

أما الفقرة الثالثة فهى تستدعى وصية «لقمان الحكيم»: «أبدًا لا تشرك، تظلم نفسك إذ تشرك، كذب المشرك»، إنها دعوة إلى الإيمان بقضية الوطن، والاستمرار فى المقاومة. لأن النصر آت، وكما قال فى الفقرة الثانية «قطعًا هو آت»، وها هو يؤكد أمله بمجىء النصر، واكتمال النص مهما كانت المعوقات: «مازال الراوى يتكلم، سيبقى يتكلم، قد يتأثر، قد يتعثر، قد يتلعثم، قد يتألم، قد ينزف قطرات من دم، قد لا يفهم، لكن يكفى أن يتكلم. حتمًا يكتمل النص».

لقد ظهرت هذه الرواية عقب غزو العراق من جانب الهمجية الوحشية الاستعمارية، وسقوط عاصمة الخلافة تحت سنابك الغزاة، فى ظل هيمنة أمريكية بشعة على العرب والعالم، ودعاوى كذب وخداع ومكر، لا أساس لها على أرض الواقع، وكان على الكاتب أن يبرز هذه البشاعة الاستعمارية، فلم يلجأ إلى التعبير المباشر عن الغزو والاحتلال، ولم يشر إلى العراق بكلمة سوى كلمة «البصرة». اسم المدينة العراقية المعروفة. مقترنة باسم هيروشيما التى تعيد إلى الأذهان صورة الوحشية الاستعمارية فى أبشع تجلياتها التى لا تمحى، ثم ركز على الداخل الشعبى فى بلادنا ليكشف الخلل الخطير الذى أصاب المجتمع فى ظل الهيمنة الاستعمارية وتجلياتها العنصرية الاستعلائية، وإذلالها للعرب والمسلمين بصورة تجاوزت الاحتلال والغزو، وتسربت إلى التفاصيل الدقيقة فى حياتهم وسلوكهم.

يقوم بناء الرواية على أساس مجموعة من الفصول يبلغ عددها ثلاثة وعشرين فصلاً، وهى فصول مرقمة، بدون عناوين، وكل فصل يضم نوعية معينة من الشخصيات تكشف عن جانب أو قطاع من قطاعات المجتمع فى المرحلة الراهنة وطريقة تفكيره وطبيعة القضايا التى تشغله أو تؤرقه، وتبدو الفصول الأولى تكاد تكون منفصلة عن بعضها، ولكن حين تصل الأحداث إلى الذروة تترابط الخيوط، وتتجمع الأحداث فى حدث واحد يكشف أزمة المجتمع وعمق المحنة التى يعيشها من القاع إلى القمة. فى الفصول الأولى يجرى حوار بين راكبين متجاورين على ظهر الطائرة التى تقل الشخصيات الروائية جميعًا، وغالبًا ما يكون المتحاوران متقاربين عائليًا أو فكريًا أو مهنيًا، ونتعرف على ملامح الشخصيات وتاريخها من خلال الحوار أو تيار الوعى الذى يبدو حاضرًا بكثافة شديدة على امتداد الرواية.

فى الرحلة الجوية الطويلة التى تستغرق تسع ساعات بين مدينة أمريكية والقاهرة، نطالع صورة أول شخصية من شخصيات الرواية، حيث نرى مناضلاً (يساريًا) سابقًا يستعرض تاريخه ومواقفه وخلافاته مع رفاقه، وأساه على الماضى القديم، وحين يطلب من المضيفة كأس «ويسكى»؛ فإنها تخبره بأن الطائرة لا تقدم مشروبات روحية، فيسعى إلى الثرثرة مع امرأة تحمل وليدًا عمره أربعة شهور، ولكنها تنشغل عنه بوليدها، وواقعها المأساوى حيث تزوجت شخصًا يعمل فى الغربة (بأمريكا) من أجل المال، ولا يعنيه الشرف أو العرض أو أهله الذين تركهم فى مصر.

ونتعرف على اثنين من علماء الدين لهما علاقة بالتنظيمات الإسلامية، أحدهما كان يساريًا، وانضم إلى جماعة إسلامية، ويمثل الانتهازية فى أجلى

أشجان العاشق (رواية)
على أبو المكارم
القاهرة: دار الهانى للطباعة، ٢٠٠٣،
١٨٧ صفحة



صورها، كما كان شراً على الجماعة حيث أحدث انقساماً فى صفوفها.

وفى ركن من الطائرة (الدرجة الأولى) نلتقى بشخصية كبيرة (معالى الباشا) يتحاور مع «سيادة اللواء» حول طريقة تعامله مع الأمريكان، وكيف تعد السفارة (سيناريو) ليسير وفقه فى تعامله وتحادثه، ولكن معاليه يبدو معتداً بنفسه وذكائه، فينسى السيناريو والتعليمات الدبلوماسية، وينطلق على سجيته، ومعاليه حريص دائماً على إشعار سيادة اللواء بدونيته وتبعيته له.

ويزيد اللواء دونية وتبعية ما يستشعره تجاه المرأة الأمريكية التى تعمل صحفية، وهى فى حقيقة الأمر ضابط اتصال بين الأمريكان والحكومة المصرية من خلال الوفود العسكرية المصرية التى تفد إلى أمريكا للمباحثات أو التدريب، حيث تبدو الأمريكية عالمة بتاريخ مصر القديم وحضارتها وتشرح له كثيراً من حقائق هذه الحضارة وذلك التاريخ، مما يضعه فى صورة «الجاهل» الأحمق!

نرى فى ركن آخر (الدرجة السياحية) رجلاً وامرأة معهما طفل رضيع يتشاجران. الرجل معيد يعود مع المرأة (زوجته) إلى الوطن، بعد حصوله على الدكتوراه فى اللغة العربية، وهى حانقة عليه بسبب عودته إلى مصر، وتركه فرصة ذهبية لجمع المال، ومثاليته التى لا تقدر حقائق الواقع الوطنى المرير!

وفى مشاهد أخرى فى أركان أخرى من الطائرة نجد نماذج بشرية عديدة أبرزها الطفلة التى تتحدث عن أبيها العربى وأمها المصرية التى طُلقت، وزوجة أبيها الأمريكية، ثم الباحثان اللذان يتحدث أحدهما عن البعد الخامس، وينشغل الآخر بالبحث عن جهاز لتلميع الأظفار يشتريه، ثم مؤلف الأغانى والتاجر المنتج أو المخرج اللذان يسعيان إلى الكسب من خلال تأليف الأغانى البذيئة الهابطة، ثم المذيعة (الساقطة) ذات النفوذ والكاتب الصحفى الذى يكتب من الباطن لرؤسائه، ويفكران فى تقديم برنامج تليفزيونى يستضيف البارزين فى التخصصات المختلفة للحديث عن قصص نجاحهم، ومواجهتهم من خلال (المونتاج) بالقصص الحقيقية الموثقة..

هذه النماذج التى نراها على امتداد نصف صفحات الرواية تقريباً، تلتقى أو تتجمع روائياً مع بداية تعقد الأحداث وتوترها، عندما يلتقى «السوبر فايزر» كبير المضيفين. ذو الأصل المتواضع مع المضيفة ذات الأصل الرفيع، ويخبرها أن الوجبات الموجودة على ظهر الطائرة أقل عدداً من الركاب، مما يعنى أزمة خطيرة وهو ما يقتضى معالجة الموقف بطريقة ما، وتُطرح الحلول على أساس التمييز بين الركاب المصريين والأجانب والوفود العسكرية، أو إقناع بعض الركاب بالتنازل عن وجباتهم لصالح الآخرين. وتسعى المضيفة لإقناع الوفد العسكرى الذى يرأسه معالى الباشا للتدخل من أجل حل المشكلة، فيشكل معاليه لجنة للتوزيع، ويتحفظ على الوجبات فى مكان آمن! ويحول الوفد العسكرى المسألة إلى «معركة» تحتاج إلى التخطيط والإنذار وقرار هجوم، ويصير الأمر أقرب إلى سخرية كاريكاتيرية، حين يستدعى الموقف خطباً حماسية من خلال حوار معالى الباشا وسيادة اللواء، ويتطور الموضوع للبحث عن الصحفى الموجود مع المذيعة لصياغة بيان باسم معاليه لكسب الوقت قبل توزيع الوجبات، ووضع الجمهور بين اليأس والرجاء حتى لا يتحرك بالغضب والثورة، مع رفع شعار الديمقراطية الموسعة..

وتتداعى الأحداث، لتشتبك السيدة الأمريكية (ضابط الاتصال) مع سيادة اللواء فى حوار عنيف، تذهب على أثره إلى معالى الباشا، وتتمسك بما تعده حقاً لها، وتصر على المشاركة برجالها فى تأمين الطائرة، ويستسلم معاليه لإرادتها، وتتكشف من خلال الحوار صرامة تقاليد الجيش المصرى فى حرصه على مصلحة الوطن، بينما يبدو جهاز الشرطة أقرب إلى الولاء للسلطة أياً كانت!

ضابط الاتصال الأمريكية تمارس الهيمنة والغطرسة، وتقدم لمعاليه مطالب مذلة ومهينة للكرامة الوطنية، وتهدد باستخدام القوة من خلال (المارينز) القوة الأمريكية على ظهر الطائرة، ويستسلم معاليه، فالمفارقة قائمة بين المصريين والأمريكان. الأولون قواتهم مجردة من السلاح، والآخرون مسلحون دائماً، لأن تسليحهم الدائم شرط متفق عليه بين الحكومتين الأمريكية والمصرية.

حين يبدأ الحوار الديمقراطى «الموسع» من أجل حل مشكلة الوجبات ينكشف الخلل الحكومى والهيمنة الأمريكية من خلال الصفقات، وسذاجة التيار الإسلامى، والفكر التافه والأدب الرخيص.

وتقتبس الرواية نصوصاً من التاريخ تتوازى مع الواقع المتهرئ وما فيه من تأله وعبودية ومظالم وتخبط وكلام إنشائى بلا عائد، وإحباط يشيع لدى الجميع.. كما تستدعى الرواية فوازير لا حل لها تدخل فى إطار الخيال (الفانتازيا) وتعبر عن الخلل والعقد التى تحكم حياتنا.

وتنتهى أحداث الرواية بإسقاط الطائرة أو فقدانها فى الحادثة المشهورة التى وقعت قبل سنوات بمثلث الخطر وعلى متنها ثمانون ضابطاً مصرياً فى تخصصات دقيقة، عدا المدنيين والأمريكان والأجانب وطاقم الطائرة، ولم تصل التحقيقات إلى نتيجة محددة حتى الآن، وإن كان الموضوع قد أغلق رسمياً.

وبالتأكيد فإن حادثة الطائرة، وما جرى على متنها، تشير إلى رمز واضح جلى، لا يخفى على قارئ الرواية، بما فيها من شخصيات وأحداث تمثل أو توحى بالواقع المعيش، وتكشف ما يعتمل بداخله من تصورات وسلوكيات وصراعات.

إذاً الطائرة هى المكان، وهى مكان مصغر، ومن خصائص هذا المكان أن يمثل المكان المكبر، وتجتمع فيه جزئياته وخصائصه، فهى صورة للمجتمع الكبير وما يمور فيه من شخصيات وأحداث. كما سبقت الإشارة. والسؤال هو: لماذا الطائرة مكاناً للأحداث والشخصيات الروائية؟

لا ريب أن اختيار الكاتب للطائرة كان اختياراً موفقاً، لأنه يربط مصير الطائرة بمصير ركابها، وهذا المصير حيوى للغاية، على أساس أن كل حركة على ظهر الطائرة محسوبة، وتؤثر على الجميع، وهو ما تبدى فى معالجة مشكلة نقص الطعام مع طول الرحلة واستغراق المسافة زمناً طويلاً (تسع ساعات)، فإيثار فريق بالطعام دون غيره يخلق مشكلة تهدد الطائرة والركاب جميعاً، وفساد قائد الطائرة، وبلاهة معالى



أشجان العاشق

الباشا أو استسلامه، ونفاق سيادة اللواء، وشراسة الأمريكان وسذاجة الركاب وتفاهة تفكيرهم سواء كانوا من هذا التيار أو ذاك. وعناصر الإفساد (كاتب السلطة والمذيعة التليفزيونية الساقطة) وخداع الركاب.. كل هذا يؤسس للمصير البائس الذى ينتظر الجميع، وكأن الرواية تهيب بأفراد المجتمع كله أن يهبوا لإنقاذ مجتمعهم، وفقاً لأسس التعامل التى ينبغى أن تقوم على العدل والمساواة والشورى والنظافة الخلقية والقوة المادية والإرادة الحقيقية وعدم إعطاء الفرصة للغرباء كى يهيمنوا أو يسيطروا أو يتغطرسوا.. وإلا فالنهاية ستكون انهيار المكان (الطائرة/ المجتمع) كما سقطت الطائرة بفعل مجهول فى المثلث الخطر، أو مثلث الخطر.

قد تستدعى الرواية عن طريق تيار الوعى بعض الأماكن هنا، أو هناك، وهى بلا شك تقدم دلالة على طبيعة الحياة أو البشر، مثلاً نرى إشارة إلى أمريكا. المكان وما يجرى فيه من سلوك وعلاقات، وهى علاقات أو سلوك يكشف تصورات بعض الناس وطريقتهم فى الحياة، فالمصرى أو المصرية الذى يشعر أن الانتماء إلى المكان الأمريكى بالحصول على الجنسية يمثل فائدة مادية كبيرة على أكثر من مستوى، والمرأة المصرية العائدة إلى وطنها، تقول لأخرى:

«لدينا ولد أمريكى ينفعنا حتى بعد حصولنا مستقبلاً على الجنسية (تقصد الجنسية الأمريكية)، يقدمون معونة غذائية، بالإضافة إلى الطبية له ولأمه، ويجب أن تحصلى على هذه المعونة...».

والحصول على المعونة للأم والولد، ليس هو الفائدة الملموسة فقط، إن الجنسية الأمريكية للولد، أو الوالدين فيما بعد، هى صمام أمان، ليس فى أمريكا فقط، ولكن فى الوطن الأصلى ذاته، حيث يصبح حاملها محصناً ضد أى عدوان من الأفراد أو السلطات، إذ أن أمريكا لا تتوانى قط عن الدفاع الأمثل عن كل من ينتسب إليها سواء كان أمريكياً بالميلاد أو أمريكياً بالتجنس..

أيضاً نرى إشارة أخرى إلى المكان تكشف لنا عن طبيعة الشخصية وتكوينها الاجتماعى أو تاريخها القديم، فهذا اليسارى السابق، الانتهازى، الذى صار من أقطاب بعض الجماعات الإسلامية، نعلم أنه ولد فى حى عشوائى جعله تاريخه فيه يتحول تحولاً مثيراً:

«من كان يظن أن صبى عزبة الهجانة الذى اشتغل منذ الثامنة ناضورجياً، واغتصبه زينهم العجلاتى وهو فى العاشرة، بدلاً من أن يصبح وفقاً لكل التوقعات هجاماً، يصل إلى ما لم يصل إليه أحد. يجتمع العلماء والمفكرون والمخططون فى مركز بحثى من أهم مراكز الجامعة المشهورة على بعد آلاف الأميال، ليستمعوا إليه ويروا المستقبل من خلاله..».

المكان إذاً له تأثيره وله مواصفاته، حتى لو كان ذلك بشكل افتراضى، فصبى عزبة الهجانة يفترض أن يصبح «هجاماً»، أما أن يصبح داعية إسلامياً مشهوراً يشار إليه بالبنان، فهو ما يخالف الافتراض..

والمكان قد يكون ذا دلالة عنصرية بمعنى تفوق شعب على شعب أو بشر على بشر، فالشعب الرومانى مثلاً يتميز على الشعوب العربية، لأنه ضحى بأعداد كثيرة من الأفراد لينال حريته، ويحقق استقلاله وكرامته «.. أين تضحياتكم مما حدث فى رومانيا مثلاً حين قتل أكثر من ستين ألفاً فى يوم واحد من أجل إسقاط النظام..» «.. أنتم تريدون السلطة على طبق من ذهب، تريدون أن تدفعوا غيركم ليقاتل معركتكم ولا تقدمون التضحيات اللازمة..».

الزمان لا يختلف عن المكان فى إعطاء دلالات ذات أهمية سواء الزمان التاريخى أو الزمان الروائى، فالزمان التاريخى يعالج واقعاً نعيشه بالفعل لا يبعد عنا ولا نبتعد عنه، إنه السنوات الأخيرة أو الماضية القريبة والممتدة فى أيامنا الراهنة بكل احتقاناتها وخللها ومتاعبها وعسرها، ومعالجة هذه الفترة فى حد ذاتها تمثل جرأة محمودة من الكاتب، لأنه يواجه الواقع بشراسته وقسوته ومضاعفاته وانعكاساته، وهى فى مجملها غير سارة بل غير آمنة سواء للكاتب، أو لغيره من أفراد المجتمع، كما تشير معالجة هذه الفترة إلى الكارثة التى تنتظر المجتمع إن لم يتدارك أخطاءه، ويبادر إلى إصلاحها أو تصحيحها.

وبالنسبة للزمن الروائى، فإنه يمتد إلى نحو بضع ساعات قليلة منذ ركوب الطائرة من أحد مطارات أمريكا، حتى سقوطها فى مثلث الخطر! تكثيف الزمن الذى يسبق سقوط الطائرة يصب فى دائرة الإلحاح على الخطر الذى يتربص بالمجتمع، ويصيب أفراده جميعاً، لا يفرق بين معالى الباشا الذى صار أمراً ناهياً فى الطائرة، ولا عامة الركاب سواء الذين فى الدرجة الأولى أو الدرجة السياحية أو درجة رجال الأعمال، حتى أولئك الأمريكان بغطرستهم وعنجهيتهم التى تبدت على ظهر الطائرة، معرضون للخطر، وهذا ما كشفت عنه تداعيات الأحداث على أرض الواقع، وتكشف عنه يومياً، حيث لا يستطيعون مدافعة هذا الخطر مع كل ما يملكونه من أسباب القوة وتجلياتها وهيمنتها (والعراق نفسه مثال واضح على ذلك!).

ومع أن الزمن الروائى يبدو أقرب إلى زمن القصة القصيرة، فإن استخدام الرواية لتيار الوعى، أتاح للكاتب أن يرتد إلى الوراء ليكشف تاريخ العديد من الشخصيات أو بعض جوانبه المهمة على الأقل، أو يشير إلى الماضى (التاريخ) ليقارن بين واقع مزيف ردىء، وماض أصيل جميل، كما جرى بالنسبة لشاعر العامية النرجسى الأفاق الذى لا يعرف شيئاً عن أحمد شوقى وأحمد رامى وأضرابهما من شعراء الأصالة والجمال.

شخصيات الرواية كثيرة ومتنوعة، فهم ركاب طائرة من طبقات مختلفة ونوعيات متعددة، يمثلون المجتمع فى هيكله العام بدءاً من عامة الناس حتى من بيدهم السلطة، لذا لم تتوقف الرواية كثيراً عند تفصيلات حياتهم وواقعهم، وقدمتهم لنا شخصيات «جاهزة»، تباشر أعمالها أو تبدى آراءها، أو تمارس سلوكها وهى واقفة عند المستوى التربوى والتعليمى والخلقى الذى وصلت إليه، فلا هى تتغير، ولا هى تنمو، فهى ثابتة وراسخة الملامح والقسمات.

وكما رأينا من قبل هناك «اليسارى» السابق، والمرأة البسيطة التى تحمل طفلها عائدة إلى الوطن بعد أن فجعت فى زوجها الذى لا يهمه غير المال ولو ضحى بعرضه وشرفه، وعالما الدين اللذان يبدوان أقرب إلى السذاجة السياسية، ومعالى الباشا وسيادة اللواء اللذان يرأسان وفداً عسكرياً عائداً بعد مهمة فى أمريكا، والمعيد الذى يتشاجر مع زوجته بسبب رغبتها فى البقاء فى أمريكا من أجل المال، وضابطة الاتصال الأمريكية وآخرون من المارينز، واثنان من الباحثين أحدهما مشغول بالعلم ومعرفة البعد الخامس، والآخر مهموم بالبحث عن جهاز لتلميع الأظفار، ومؤلف الأغانى التافه وتاجر أو منتج الكاسيت أو الشرائط الغنائية، والمذيعة الساقطة وكاتب السلطة، والسوبر فايزر ذو الأصل المتواضع والمضيفة ذات الأصل الرفيع، وقائد الطائرة الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه..

هذه الشخصيات الكثيرة، تمثل أغلب قطاعات المجتمع المؤثرة والمهمة، وقد أتى بها الكاتب فى إطار يمكن تسميته «بالمفارقة»، حيث نرى الشخصية فى مقابل الشخصية النقيض، أو الشخصية التى تبرز جوانب الشخصية الأخرى، لذا فمعظم الشخصيات الروائية لا تمثل بطولة مطلقة، أو تقوم بالدور الرئيسى فى الأحداث باستثناء شخصية «معالى الباشا» الذى صنعت منه الأزمة الخاصة بالوجبات، حاكماً عاماً على الطائرة، ومعه تابعه المنافق المتزلف «سيادة اللواء»، وإن كانت ضابطة الاتصال الأمريكية التى تقود المارينز، وتنتمى رسمياً إلى المخابرات، تبدو الحاكم العام الفعلى على الطائرة بما تمتلكه من قوة عسكرية، ونفوذ مهيمن، وعجرفة عنصرية، وسلاطة متوقحة.

حينما يبحث معالى الباشا عن صحفى على ظهر الطائرة، يقدمون له



أشجان العاشق

«كاتب الباطن» ليقوم بدور «كاتب السلطة» على ظهر الطائرة، فيكتب بيان معاليه الذى يذيعه على الركاب حيث تبدأ المناقشة «الديمقراطية الموسعة»، كان يحلم أن يصل يوماً إلى رئيس صفحة، يكتب اسمه على رأسها، وها هو معالى الباشا يفتح له الأبواب مع أنه يسميه «الولد الصحفى»، ويرى أنه أحق أن يكون «كاتب السلطة الأول»، فهو أفضل من الأشرم الجاهل الذى يرأس مؤسسة كبرى ويعزف بأقلام غيره، والمخبر الذى صار صنوا له فى مؤسسة أخرى تصدر العديد من الصحف والمجلات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وال... إنه أحق من هؤلاء جميعاً، ويبدو أن الأمل فتح أبوابه ليكون كبيراً وقريباً من أهل القرار.

كاتب الباطن ينجح فى خدمة معالى الباشا عن طريق عمل مزيج بين اليأس والأمل لدى الركاب، حتى لا يثوروا. اليأس وحده يدفعهم إلى التحرك. والأمل وحده يجعلهم يتحركون. أما التوازن بين اليأس والأمل، فإنه يجهض التفكير فى الثورة!

وقد حظى برضا الباشا الذى أنعم عليه بوجبة ليكتب بعدها البيان!

أما معيد الجامعة الذى تخصص فى اللغة العربية وعاد مع زوجته إلى أرض الوطن بعد حصوله على الدكتوراه، فإن زوجته ساخطة عليه، وكانت ترفض العودة لأن الأحوال فى الوطن سيئة، وترى أنه لا تصح العودة حتى لا يمدوا أيديهم لأحد، وحين يخبرها أنه سيكون مدرساً بالجامعة تسخر منه، «مدرس عربى يا حسرة، لا فاتح مكتب ولا عيادة، ناقص يقول لله يا محسنين.. عيب.. عيب فعلاً.. التطورات الاقتصادية قلبت الأوضاع، وأخلت بالموازين، وحولت قيم المجتمع».

إنها صورة مخيفة حقاً حين يصير أستاذ الجامعة على وشك التسول، وخاصة من لا يملك مكتباً ولا عيادة ولا صيدلية، ليغطى بدخلها احتياجاته ونفقاته، وإن كان الراوى من خلال تيار الوعى يبدو متفائلاً بأن هذا كله لن يستمر، وأن هذا يمثل ظاهرة مرضية زائلة مهما بدت مستقرة، مهما كانت شرسة وأنها كلما زادت حدة دل ذلك على اقتراب الفجر وانبلاج النور..

إن شخصيات الرواية لا تحمل أسماء. يشار إليهم عادة بوظائفهم ومهنهم: الباشا. اللواء. العميد. ضابط الاتصال. المذيعة. الشيخ. الولد الصحفى. المناضل. المرأة التى تحمل طفلاً. السوبر فايزر. المضيفة. قائد الطائرة....

وهذا التعميم أو التجهيل، يشى بأن المسألة ليست محدودة، ولكنها شائعة وموجودة فى خلايا المجتمع، وإن كانت بصور أخرى، وملامح أخرى، كلها أو معظمها يفضح فساداً أو استبداداً وانتهازية وتفاهة وانحطاطاً، وابتذالاً.. ولعل هذا كان من وراء ما يشبه القصائد الشعرية التى تأتى عبر تيار الوعى، ترفض هذا الواقع البائس وتبشر بالأمل، على النحو الذى رأيناه عند تناول حال «أستاذ الجامعة» على سبيل المثال.

لغة «على أبو المكارم» شاعرية. لأنه فى الأساس شاعر وإن كان مقلاً، وفى روايتيه السابقتين مقاطع كثيرة يمكن أن تكون قصائد، فهى تكتمل فنياً من حيث الوزن والصورة والعاطفة والتجربة.. وقد أشرت إلى ذلك تفصيلاً عند تناولهما، ولكن الأمر يختلف مع هذه الرواية، فقد خطا خطوة جديدة تماماً، وهى اعتماد العامية لغة للحوار، واختار من العامية الألفاظ أو اللهجة الجديدة التى طرأت على الألسن فى السنوات الأخيرة، وهى اللهجة التى تنضح بصورة الواقع الراهن وما فيه من ابتذال وسوقية وانهيار خلقى وانحطاط ذوقى.

ومع ذلك فقد ظلت لغة السرد شاعرية تفيض رقة وعذوبة، به الكثير من المقاطع المكثفة التى ترقى إلى مستوى الشعر، وقد ساعد تيار الوعى، على التدفق الأسلوبى والصياغة المجنحة فى العديد من المواضع.

وتجنح اللغة السردية فى «أشجان العاشق» إلى السخرية أحياناً من بعض الظواهر القائمة على ظهر الطائرة، كما نرى فى وصفه للغة الإدارة التى تقوم على الإنشاء الأجوف والعبارات النمطية، وتشكيل اللجان للأمور التافهة. فمن قبيل العبارات النمطية المكرورة التى فقدت دلالتها: «.. العبقرية الوطنية التى تتجلى دائماً فى المواقف الصعبة والتاريخية، والتى تؤكد مقدرة المواطن على مواجهة التحديات بفضل التزامه المطلق بالتوجيهات السامية لقيادته الرشيدة. وقد التزمت اللجنة فى عملها بتوجيهات معاليه، وكان سيادة اللواء يشرف بنفسه على مراحل العمل وخطواته وينقل توجيهات معاليه إلى العاملين فى اللجنة، فقد أشار إلى ضرورة تحريك المقعد الأول ليتوسط القاعة، كما أشار إلى أن المقاعد الأخرى يجب أن تقسم بحيث يوضع قسم منها أمام المقعد الأول فى شكل نصف دائرة، ويوضع القسم الآخر فى شكل... إلخ».

واعتقادى أن الكاتب رأى أن الحوار بالعامية، وخاصة بما يتضمنه من ألفاظ هابطة هو أصدق تعبير عن الواقع الردىء المتهرئ، الذى افتقد فيه الناس الطهارة والأخلاق والعدل والحرية، وإن كنت أعتقد أن للفصحى، والمؤلف قادر عليها، روعتها ورونقها حين تنقل هذا الواقع بأدائها ودلالاتها، وفى كل الأحوال، فإن غاية الكاتب من التعبير بالعامية فى الحوار، من وجهة نظرى، تعد صرخة لانتقاد ما يجرى بصوت عال وحاد، لعل أحداً يسمع صوته فى البرية الموحشة.

على الجانب الآخر، يقتبس الكاتب، أو يوحى بالاقتباس، من كتب تراثية لغتها جزلة وقوية، فيها من الدلالات ما ينبئ عن صورة الواقع المعاصر بصورة ما، فالراكبان المتجاوران يتناقشان، ولكن الراكب القارئ يرفض المشاركة فى الاستطلاع الذى تجريه لجان معالى الباشا حول أزمة توزيع الطعام على ظهر الطائرة، ويتابع قراءته فى كتابه الأثير «عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات» ومنه:

«وكان مما يختبر به الخاقان الأكبر إخلاص رجاله ما كان يسمى باختبار الترقى، وهو ذو درجات سبع، ويتم الانتقال فيه من الأولى إلى ما يليها مما هو أسفل منها، ويلتحق الجدد الذين يختارهم الخاقان لخدمته عند أول عهدهم بالدرجة الأولى، وكلما ازداد الواحد منهم جداً فى خدمة مولاه وتقرباً إليه انتقل إلى الدرجة السفلى منها، فإذا بلغ السابعة من الدرك الأسفل فقد بلغ الغاية، ووصل إلى النهاية، وحاز قصب السبق، وصار من أهل الحظوة.

قال بعض المحققين: الحظوة بالحاء المهملة والظاء المعجمة، وقد التبست على بعض صغار التلاميذ فكان يقرؤها بالخاء المعجمة والطاء المهملة، وذلك شىء آخر مختلف عما نحن فيه، نذكره إن شاء الله فى موضعه من كتابنا المسالك فى دروب المهالك..».

إن التضمين بالأمثال الشعبية والأغانى فى ردود الفعل حول خبر ضياع الطائرة وسماع الانفجارات حيث اقتربت من منطقة مثلث الخطر، وتعدد الروايات حول وجود الانفجارات من خارج الطائرة أو داخلها، تشير إلى وعى الناس المغلف بالمجاز، وإدراكهم للمأساة دون أن يفصحوا، أو يتعاملوا مع الواقع بصورة مباشرة: «اللى خلف ما متش»، «أهو شنبر ودق وخد بعضه وزق»، «طب كل دا كان ليه...».

لقد استفادت الرواية من حدث إسقاط الطائرة فى مثلث الخطر استفادة كبيرة، ووظفته لتطلق دلالات عديدة ومتنوعة تصب جميعاً فى الخوف من المجهول الذى ينتظر الجميع ما لم يتداركوا إصلاح أنفسهم وواقعهم..

إنها تكشف عناصر الخطر الداخلى وعناصر الخطر الخارجى، وما الطائرة إلا صورة مصغرة للمجتمع الكبير الممتد الذى ينخر فيه سوس الفساد، ويوشك أن يقوضه، ويهدم بنيانه، ويطمع فيه الأعداء.

وقد جاء بناء الرواية على هيئة مشاهد أقرب إلى السيناريو ليصور ملامح الواقع فى لقطات دالة ومؤثرة، من خلال لغة شاعرية راقية موحية، حتى فى صورتها العامية التى تشير إلى عصر الانهيار وتجلياته المحزنة. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الحركة القومية العربية بعيون عثمانية (١٩٠٨ ـ ١٩١٨)

حسن قايالى
ترجمة: فاضل جتكر
سوريا: دار قدمس، ٣٧٠ صفحة



يستهدف المؤلف من كتابه المساهمة فى تفاعل البحوث التاريخية العربية والتركية حتى تتقدم معرفتنا أكثر بتاريخ المنطقة، الذى تعرض فى كثير من فصوله إلى تأثيرات متبادلة بين الطرفين: العربى والتركى.

ومع أن كاتبه ليس عربياً، إلا أن كتابه يفتح المجال أمام اعادة النظر فى الكثير من المسلمات والبديهيات التى سكنت العقل السياسى العربى، فالكتاب يطلعنا ـ للمرة الأولى على بعض وثائق الدولة العثمانية وهى فى نزعها الأخير وتوزيع ممتلكاتها العربية على الإمبرياليتين البريطانية والفرنسية، ودخول الإمبريالية الأمريكية والحركة الصهيونية بمطامعهما فى المنطقة العربية.

يستعرض الكتاب شهادات بعض المؤرخين التى تزعم أن العرب الحاصلين على التعليم فى المدارس الأوروبية التبشيرية، امتلكوا نظرة علمانية موالية للغرب، فكانوا طلائع الحركة القومية العربية.. بالإضافة إلى اهتمام الحداثيين الإسلاميين بأمجاد اوائل المسلمين ما لبث أن تمخض عن تمجيد العرب بوصفهم حملة العقيدة الإسلامية، كرد على الاجتياح الإمبريالى، دون أن تتمكن هذه الحداثة من أن تتحول إلى برنامج سياسى مؤهل لنسف مشروعية الدولة العثمانية.. فى حين يرى آخرون أن شريحة واسعة من القادة العرب اندمجت بالنخبة العثمانية الحاكمة خلال الفترة الحميدية، إلا أن الإطاحة بالسلطان عبد الحميد من قبل تركيا الفتاة تمخضت عن استبعاد العرب، وهو ما أفضى إلى تسييس النزعة العروبية، والابتعاد عن تركيا تماماً.

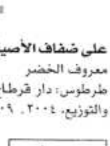
ويقول أحد التفسيرات التركية لبزوغ هذه النزعة العروبية أن ولاء العرب للخلافة الإسلامية المتجسدة بسلاطين آل عثمان، شهدت تصدعاً هائلاً حين اقدم فرسان تركيا الفتاة العلمانيون صراحة على الانفصال عن الممارسة العثمانية تجاه ممتلكاتها فى الدول العربية. ويقول المؤرخ التركى شريف ماردين أنه من المعقول افتراض أن شرائح ذات توجهات غربية من النخبة العثمانية كانت منجذبة إلى مفهوم الدولة القومية الذى كان سائداً أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولكن ليس بأى معنى عرقى، فهذه النخب واجهت فى مساعيها الرامية إلى بناء دولة تركية على طراز الدول القومية ثلاث مشكلات أدت جميعها إلى إثارة مسألة العلاقة بين المركز والأطراف وهى: إذابة الشعوب غير الإسلامية فى البوتقة العثمانية، وإدماج الأطراف الإسلامية المؤلفة بأكثريتها من الأقاليم العربية، وتوحيد هذين العنصرين فى نظام سياسى حديث.

ورغم أن الكاتب يأخذ على ما يسمى بـ «الثورة العربية الكبرى» خلال الحرب العالمية الأولى أنها تحالفت مع القوى الأوروبية المعادية للخلافة فى تركيا، إلا أن الكتاب أيضاً تغاضى عن التحالف الذيلى الذى أقامته تركيا الأتاتوركية مع القوى الأوروبية ذاتها، وهى قضية ربما تحتاج من المؤلف إلى كتاب آخر.

■

على ضفاف الأصيل ـ ديوان شعر

معروف الخضر
طرطوس: دار قرطاج للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ١٠٩ صفحات



١٢ قصيدة تحتويها دفتا هذا الكتاب، تنضح كلها بالشجن الجميل وخاصة فى قصيدة «طقوس سجينة» التى تبدأ بأبواب مغلقة على الشاعر الذى يلملم ذكرياته كأيقونة تزدان فى صدره، وتنتهى بآمال كبار تنتظر مواسم تفتح فيها الأبواب للفرح البهى.

والديوان فى مجمله يقدم تجربة إنسانية غنية بالمشاعر الفياضة، ترصد الأحزان الآنية، وتحاول أن تتجاوزها وكأنها على موعد مع أفراح قادمة فى زمن تمتزج فيها مواويل الصباح مع قوافل المطر.

■

الجسد فى الرواية العربية المعاصرة

د. سعيد الوكيل
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «كتابات نقدية»، ٢٠٠٤، ٢٣٦ صفحة، ٣ جنيهات



ينطلق هذا الكتاب/ الدراسة من افتراض أساسى وهو أن الجسد فى التصور الإنسانى ليس جسداً واحداً، حيث تتفاوت أشكاله وصوره فى الفن والأدب.

فالجسد الذى يقدم فى الروايات ليس جسداً واقعياً، بل هو تمثيل رمزى للجسد عبر اللغة حيث ينفتح باب الاختيارات على مصراعيه.. فقد يكون الجسد وسيلة للتعبير عن العلاقة الملتبسة بالوطن، وقد ينشغل الكاتب بالجسد بوصفه وسيلة للتعبير عن العلاقات الوجودية بالكون والأفراد وقد يحرص الكاتب على الاعتماد على الميتولوجيا فى بناء نصه، ومن ثم يكون تمثيل الجسد معتمداً على لغة خاصة به.

الكتاب يتناول بالدراسة ثلاث روايات من أقطار عربية مختلفة، وهو «وليمة لأعشاب البحر» لحيدر حيدر و«البئر» لإبراهيم الكونى و«مدينة اللذة» لعزت القمحاوى، وهو ما جعل الكتاب يتميز بطابعه التطبيقى، بحثاً عن ملامح التمايز فى طرق الإبداع للتعبير عن تناول قضية الجسد داخل النص الأدبى.

■

الإسلام فى مواجهة الاستئصال

د. حلمى محمد القاعود
القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٤، ١٨٩ صفحة



يرى الكاتب أن الأمة الإسلامية تعيش فترة عصيبة غير مسبوقة فى تاريخها الطويل، انتشر فيها «المتآمرون» الذين يسعون لغاية واحدة وهى استئصال الإسلام، والقضاء عليه مبنى ومعنى، شكلاً ومضموناً، تاريخاً ومستقبلاً. وهم يفعلون ذلك ليس بالجيوش المسلحة الجرارة وحدها ولكن باستخدام ما هو أكثر فتكاً وقتلاً، من خلال الغزو الهادف لتفريغ المسلم من عقيدته وأخلاقه وصموده وجهاده وحريته، وتحويله إلى كيان هش ذليل يتبع «المتآمرين» ويكون ذيلاً لهم.

وعبر فصول الكتاب، يحاول المؤلف البرهنة على صحة وجهة نظره، رغم اعترافه شخصياً بأن هذه الفصول قصيرة، تعالج فى مناسبات معينة معالم استئصال الإسلام فى أوجه حياتنا المختلفة.

■

الماضى الخرافى (التوراة والتاريخ)

توماس طمسن
ترجمة: عدنان حسن
مراجعة: زياد منى
سوريا: دار قدمس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤، ٦٠٧ صفحات



يرفض المؤلف اعتبار الكتاب المقدس وما جرى فيه من قصص وأحداث على أنه تاريخ.. ولكنه كتاب ملىء بالأمثولة وقصص العبرة، فهو لاهوت وليس تاريخاً على الإطلاق.

فالكتاب المقدس من وجهة نظر المؤلف يقدم تراثاً يحمل رسالة، يمكن استخدامه دعماً لآمال معقودة فى المستقبل على الدوام.

ويركز المؤلف على طبيعة اليهودية المبكرة، ويقدم قراءة جديدة للمناخ السياسى الذى كان سائداً إبان صراع اليهود مع أعدائهم فى فلسطين، كما جاء فى العهد القديم، ويعتمد المؤلف فى دراسته هذه على علم الآثار محاولاً تقليل التشوهات التى تحيط بفهمنا للماضى واستعمال تاريخنا لأغراض أدت لاشتعال العنف وزيادة الشرور فى حياتنا المعاصرة.

يتناول الكتاب تاريخ اليهود فى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول عن: كيف تتحدث قصص الكتاب المقدس فى الماضى، والثانى: كيف يختلق المؤرخون ماضياً، والثالث: مكانة الكتاب المقدس فى التاريخ.

ويأتى هذا الكتاب ليكون العاشر فى سلسلة مؤلفات توماس طمسن فى الدراسات التاريخية، وهو حالياً يعمل

رئيساً لتحرير العديد من الصحف المتخصصة بالدراسات الكتابية، وقد حصل على شهادة الدكتوراة عام ١٩٧٤ من جامعة تمبل بأمريكا، وكان قد تقدم برسالة للدكتوراة عام ١٩٧١ عن موضوع الآباء الأولين لكن إدارة جامعة بتجن رفضتها، وهو حالياً يعيش فى الدانمارك حيث يعمل أستاذاً محاضراً فى كلية اللاهوت بجامعة كوبنهاجن.

■

درامية التغيير.. دراسات مختارة فى المسرح الملحمى

برتولت بريشت
اختيار ومراجعة: قيس الزبيدى
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ٢٥٥صفحة



عرفت المكتبة العربية مسرح بريشت عن طريق تراجم لدارسين ليبراليين عديدين، قدموه من منطلقات مختلفة، لم تكن قادرة فى مجملها على تقديم مسرحه وفكره كما أراد له هو أن يكون، لأن دارسيه ومؤوليه فى الغرب قدموا مسرحه الدرامى الجديد بمعزل عن فكره الماركسى، الذى قاد تطور مسرحه الملحمى إلى جمالياته النوعية المميزة والمختلفة، وكانت أغلب تلك الدراسات تقبل الدرامى فى مسرحه، وترفض ما هو ماركسى فيه الذى جاءت أهميته، كما قيل، من إلباس الماركسية ثياباً مسرحية.

يقدم الكتاب عبر العديد من الأبحاث، المفاهيم الأساسية لفكر بريشت المسرحى والتى يقول هو بنفسه عنها: «إن المسألة عنده ليست مجرد تفسير العالم بل تغييره».

■

العمارة الإسلامية والبيئة.. الروافد التى شكلت التعمير الإسلامى

د. م. يحيى وزيرى
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٤



يطرح المؤلف فى هذا الكتاب ما وصلت إليه العديد من الأبحاث والكتابات المؤثرات البيئية فى العمائر والمدن الإسلامية فى محاولة لإظهار ردود فعل العمارة والفكر الإسلاميين تجاه معطيات البيئة، خصوصاً فى المناطق الصحراوية من العالم الإسلامى، ولكن يلاحظ أن أغلب هذه المحاولات تركز على المؤثرات المناخية فقط، التى بلا شك تمثل أحد أهم جوانب البيئة الطبيعية، كما أن هذه الدراسات غالباً ما تركز على عمارة المسكن الإسلامى دون سائر الأنواع الأخرى من المبانى، التى على رأسها المسجد.

والعمارة الإسلامية لا يمكن فهمها إلا بنظرة أكثر شمولية وأكثر عمقاً، فالعمارة الإسلامية شكلتها وأنضجتها عدة روافد دينية وحضارية ومناخية.. وهذه الروافد فى مجملها تمثل الرؤية الأكثر شمولاً لمفهوم البيئة، التى يجب ألا تقتصر على العوامل المناخية فقط، ولكن تتعدى لتشمل أيضاً البيئة الدينية والاجتماعية والثقافية.

■

النظام السياسى فى الإسلام

د. برهان غليون - د. محمد سليم العوا
دمشق: دار الفكر، سلسلة «حوارات لقرن جديد»، ٢٠٠٤، ٣١٢ صفحة



كل كتاب من هذه السلسلة يتضمن رأيين لكاتبين ينتميان إلى تيارين متباينين، يكتب كل منهما بحثه مستقلاً عن الآخر، ثم يُعطى كل بحث للآخر ليعقب عليه، ثم تنشر إسهاماتهما فى كتاب واحد.

وفى هذا الكتاب، كانت منطلقات الكاتبين مختلفة، إلا أن مساحات الالتقاء بين أفكارهما كانت تتقارب فى الكثير من الأحيان.. الدكتور غليون يشير إلى أن الإسلام لم يولد السياسة والدولة من حيث أنهما ضروريتان للإيمان، والدولة لم تكن مطلباً دينياً، ولكنها كانت مطلباً دنيوياً نزع إلى تحقيقه المسلمون بموازاة تحولهم إلى جماعة سياسية دنيوية فاعلة على مسرح التاريخ.

فى حين يرى د. العوا أن الإسلام لم يأت بنظام حكم معين المعالم محدد التفاصيل، وأن القرآن والسنة لا يتضمنان نصاً عن كيفية اختيار الحكام، وكيفية محاسبتهم، وعزلهم. وهو يرى أيضاً أن عبارة دين ودولة عندما يوصف بها الإسلام لا تصح إلا على محمل واحد، هو وجوب اجتهاد العلماء المؤهلين لذلك فى المسائل السياسية، مما يتصل بسلطات الدولة الثلاث أو مما يتصل بعلاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول والمراد من «الدين والدولة» فى الإسلام هو قبول المرجعية الإسلامية العامة التى تسمح بتعدد الآراء وتنوعها فى الشأن السياسى، كما تسمح بتعددها وتنوعها فى كل شأن إسلامى آخر، وبهذا الفهم يتجنب المسلم المعاصر الوقوع فى القول بالفصل التام بين الدين والسياسة، وهو فصل غير صحيح نظرياً وغير واقع عملياً مع فهم «الدين» على أنه الشريعة الحاكمة لمعاملات الناس الدنيوية، ويتجنب الوقوع فى وهم أن النظام السياسى المقبول إسلامياً هو نظام بعينه لا يصح الاختلاف حوله ولا اجتهاد فى تفاصيله.

أما د. غليون فهو يراهن على الآفاق المفتوحة اليوم فى الفكر السياسى الإسلامى أمام تطور القيم الديمقراطية، وتنامى تيار يعبر عن ديمقراطية إسلامية حقيقية تساهم فى إخراج الفكر العربى من محنة التعارض المرعب بين علمانية رخيصة استهلاكية واستعمالية، وأصولية عقيمة وارتدادية تنحو إلى المحافظة وتجميد الهوية الدينية بل تحجيرها.

ومع وجود جوانب اتفاق فى الرؤى بين الكاتبين، كانت أيضاً محاور مفصلية للخلافات بينهما تمثلت فى دور التفسير والتأويل فى فهم النص القرآنى، وفى تحديد السلوك السياسى عند المسلمين.

■

حمار المسيح.. الأصولية اليهودية - الحاضر والجذور

سفى رخلافسكى
ترجمة: إسماعيل دبج
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٣، ٣٥٨ صفحة



جاء اغتيال اسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق، ليدشن صعود الأصولية اليهودية وسيطرتها على الحكم والتوجهات السياسية فى إسرائيل، والتى خاض خلالها «كاملو الإيمان» فى إسرائيل حرباً لإبادة «عملاق»، وهو اليسار الإسرائيلى، عن طريق هزيمته فى الانتخابات، لأن آثام هذا اليسار الذى يدفع الروح إلى الخطأ، أكبر من آثام النازيين الذين لم يفعلوا أكثر من إبادة الجسد!

ويؤكد الكتاب أن هذا الصعود الأصولى فى إسرائيل ارتبط بانتشار مقولات دينية متطرفة مثل «إن التوترات الدائمة على الحدود يجب النظر إليها كنعمة من السماء» لأن الرب قال «لا يوجد سلام للأشرار»، ومن هذا الكلام فهم المتطرفون اليهود أنه لا يوجد خطر يوازى خطر اليسار الذى سيجلب السلام، لذلك على اليمين البقاء فى السلطة حتى لا يحل السلام، وحتى يبقى العلمانيون الأشرار يقتلون كجنود على الحدود، بحيث لا يتسنى لهم الوقت لضرب الحريديم.

كما ظهرت أيضاً العديد من الفتاوى الخطيرة كان أخطرها على الإطلاق فتوى تعتبر أن «حكم اليسار هو عملياً حكم إهدار دم»، بمعنى أن حكم الشريعة يجيز قتل يهودى دون محاكمة من قبل من يستطيع وقف الاضطهاد والظلم، والاضطهاد هو حكم اليسار.

يستعرض الكتاب أيضاً موقف الحريديين من الصهيونية التى ينظرون إليها باعتبارها حنثاً بالعهد مع الرب بالاتيان بأفعال من أجل إعادة المسيح، بدلاً من انتظاره كما هو مفروض دينياً، فالرب يبعث المسيح من خلال أعمال الإحسان وبوسائل روحية لا بقوة عمل عسكرى عالمى استيطانى، كما أن ما يزيد من آثام الصهيونية هو أن من يقودها علمانيون خطاة.

وفى ظل هذا المناخ، يؤكد المؤلف أن هناك ثلاث مقولات يمكن اعتبارها المسئولة عن انهيار الديمقراطية الإسرائيلية الحديثة أمام عنف الأقلية، وهى: غياب طبقة وسطى لها ثقافتها المتماسكة، وغياب الاقتناع بالمسلمات القانونية والواقعية فى المجتمع، والاختلاف حول تعريف مفهوم النجاح السياسى فى الانتخابات، خاصة من بعض التيارات الدينية المتطرفة تعطى طابعاً إلهياً لانتصاراتها السياسية فى البرلمان.

■

العراق والمنطقة بعد الحرب، قضايا الإعمار الاقتصادى والاجتماعى

مجموعة أبحاث
لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٣٣٣ صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



يضم هذا الكتاب أعمال ورشة العمل التى عقدت عن «العراق والمنطقة بعد الحرب: قضايا حول إعادة الإعمار الاقتصادى والاجتماعى» فى بيت الأمم المتحدة فى الفترة من ٩ إلى ١١ تموز/يوليو ٢٠٠٣، وحضرها مشاركون من كندا ومصر والعراق وألمانيا ولبنان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة.

وينشر مركز دراسات الوحدة العربية هذا الكتاب لصالح لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا.

والهدف الرئيسى لورشة العمل هذه هو بحث سبل العمل البديلة التى يمكن أن تعتمدها الحكومات والشعوب فى المنطقة،

ومنها العراق، وسبل العمل المتاحة للمفكرين والمنظمات غير الحكومية في مواجهة تحديات إعادة الإعمار الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والإنساني، وكذلك الجهود الإنمائية الأبعد مدى، في بلد مزقته الحرب، وفي منطقة تعاني الحروب وعدم الاستقرار. ويعد هذا المؤتمر الموسع الذي عقدته اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا) واحداً من أوائل النشاطات الفكرية التي عقدت لمواكبة أحداث احتلال العراق، كما يعتبر ما انتجه من استنتاجات وتوصيات وأفكار وتقارير دليلاً لا يمكن تجاوزه لزمن طويل لدى كل معني بالشأن العراقي، وإطاراً متعدد الأبعاد والمزايا لمتابعة الأحداث والقضايا والإشكاليات التي يمر بها العراق والوطن العربي ككل.

■

الفضاء العربي.. الفضائيات والإنترنت والإعلام والنشر

مجموعة من المؤلفين
إشراف: فرانك مرمييه
ترجمة: فردريك معتوق
سوريا: دار قدمس، ٢٠٠٤، ٥٩١ صفحة، ١٥ يورو



يضم هذا الكتاب معظم الأبحاث التي قدمت أثناء الحلقة الدراسية التي ناقشت موضوع «العولمة ووسائل الإعلام والاتصال الجديدة» في مدينة ليون الفرنسية عام ٢٠٠١.

ترصد هذه الأبحاث من مختلف الزوايا والمجالات الإعلامية، تطورات المشهد الإعلامي العربي خاصة عقب حرب الخليج الثانية، وما شهدته المجتمعات العربية من تطور تقنيات الاتصال الجديدة، انطلاقاً من «ديناميات» نابعة من داخل هذه المجتمعات استجابة لمؤثرات عالمية.

ويستعرض الكتاب المشهد الإعلامي في العديد من الدول العربية، ويرصد فشل الحكومات في الحد من استخدام «أطباق الدش»، كما يرصد أيضاً دور القنوات الفضائية في استعراض أفكار المعارضين لحكوماتهم في العالم العربي، وكذلك دور الإنترنت الذي يزداد انتشاره في العالم العربي.

يتناول الكتاب أيضاً تأثيرات العولمة على دور النشر العربي فيما يتعلق بحقوق المؤلف وحق الملكية الفردية وما يعنيه ذلك على مأسسة مهنة الناشر.

كما يتناول بالإشارة أيضاً ضعف القدرة الشرائية في البلدان العربية الأكثر كثافة سكانية (مصر والعراق وسوريا والمغرب والجزائر والسودان) مع وقع الرقابة الثقيل، مع تضافر ارتفاع أسعار الرسوم الجمركية وضعف شبكات التوزيع والعدد المحدود للمكتبات وانتشار القرصنة، في تغذية الأزمات المتكررة التي يعيشها قطاع النشر، ويؤكد أيضاً أن سوق الكتاب في العالم العربي يتأثر دائماً بالتوترات الإقليمية والظروف الدولية أيضاً.

كما تلعب الرقابة دوراً في زيادة الإقبال على الكتاب، فمنذ أن منعت مصر عام ٢٠٠٠ رواية «وليمة لأعشاب البحر» للسوري حيدر حيدر تضاعفت مبيعاتها في الدول العربية الأخرى.

وقد كان لانتشار التقنيات الجديدة وقع كبير على النشر العربي، فإلى جانب الكتاب المطبوع، انتشرت المنتجات الإلكترونية التي بدأت بإنتاجها وتسويقها بعض دور النشر العربية.

■

عشاق الدير (رواية)

د. محمد الدروبي
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٣، ٢٥٩ صفحة



بأحداثها التي تكتسي بصبغة ملحمية، يعود الدكتور الدروبي في هذه الرواية إلى التاريخ.. تاريخ قريب مدون في مخزونه المعرفي، منطلقاً من قرية وادعة في بادية الشام، تستكين بأحضان دير يبعث الرهبنة والتقديس في أرواح أهلها على اختلاف مذاهبهم، ليعري عبر سرد روائي شفاف هشاشة اليقين والثوابت.

ومن هناك يمضي عبر توظيف درامي محكم إلى تاريخ آخر بعيد.

ورغم تأكيد الدروبي على حقيقة الأحداث ودقتها كما وردت لدى المؤرخين، إلا أن انتقاءها لتلك الأحداث بقريبها وبعيدها، يشي بموقف نقدي مكنون يفضح الوعي المزيف.

ويؤكد أن بإمكان نص إبداعي مخاطبة العقل وتحريضه، رغم انعتاقه من أغلال الوعظ والمباشرة.

وهو في كل ذلك ربما يعطي إجابة ما، لوظيفة الأدب والإبداع التي عليها أن تستبطن موقفاً وتحقق متعة في نفس الوقت.

والدروبي في معماره الروائي حقق ذلك بامتياز إذ ترك لخياله وخيال القارئ دوراً أساسياً في فهم ما يجري حولنا.

■

عائشة تيمور: تحديات الثابت والمتغير في القرن التاسع عشر

تحرير: هدى الصدة
القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة، ٢٠٠٤، ١٩٧ صفحة



عائشة تيمور (١٨٤٠ - ١٩٠٢) هي ابنة الطبقة الأرستقراطية التي قرضت الشعر بثلاث لغات كانت تجيدها إجادة تامة وهي العربية والفارسية والتركية، كما كتبت أعمالاً نثرية يعدها النقاد من بشائر الأدب القصصي في العصر الحديث.

كانت أمها معتوقة شركسية وكان أبوها من أصل كردي تركي وهو الذي لعب في حياتها دوراً مؤثراً للغاية، فقد ساعدها على التمرد على الأعمال النسوية المنزلية مثل تعلم فنون الرسم والتطريز، ووفر لها الفرص التي تمكنها من تحقيق طموحاتها في حضور مجالس العلماء، حيث أحضر لها أستاذين، الأول علمها الفقه والخط وحفظها القرآن الكريم، والثاني كان يعلمها النحو والصرف واللغة الفارسية. وبعد وفاة أبيها وزوجها واصلت التعلم على يد سيدتين هما: فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية حتى أتقنت دراسة النحو والعروض وتفرغت بعد ذلك للكتابة الشعرية والنقدية وعملت مترجمة في البلاط الخديوي.

تركت عائشة ديوان شعر باللغة العربية بعنوان «حلية الطراز» عام ١٨٨٤ تضمن قصائد في الغزل والرثاء والمديح، وديواناً آخر بالفارسية، وأعمالاً نثرية وهي «نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال» و«مرآة التأمل في الأمور» و«اللقاء بعد الشتات» ورواية أخرى بخطها غير كاملة.

وهذا الكتاب يقدم مجموعة من الأبحاث التي قدمت في مؤتمر «عائشة تيمور» الذي انعقد عام ٢٠٠٢، والتي تلقي الضوء على التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي شهدت انتشار المطابع الخاصة ونشاط حركة الترجمة والتوسع في إنشاء المدارس الحديثة بجانب الكتاتيب، وارتفاع عدد الصحف والمجلات، ولاسيما المجلات النسائية التي أفسحت المجال لأعداد كبيرة من النساء للتعبير عن همومهن.

كما شهدت هذه الفترة أيضاً معارك فكرية وسياسية حول شكل المجتمع الحديث وحول الصورة الأمثل للرجال والنساء في الوطن، وحول قضايا اللغة والأدب والفنون، خاصة بعد الاحتلال البريطاني لمصر وزيادة الامتيازات الأجنبية واتساع النفوذ الأوروبي.

ومع المبالغة في تمجيد المفاهيم الحداثية آنذاك، أدى ذلك إلى إغفال مساهمات نساء قدمن خطابا مغايراً، وكانت كتابات عائشة خير مثال على ذلك، فمن خصائص الكتابة الشعرية والنثرية لها أنها امتداد للأسلوب العربي القديم الذي استخدمته وطورته للتعبير عن قضايا معاصرة، ومن ثم تم التقليل من أهمية أعمالها الأدبية والتركيز على الشكل الحديث الممثل في رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل.

وباستثناء موقفها المعادي للحركة العرابية، كان لعائشة تيمور دور كبير في عمليات التنمية الاجتماعية خاصة في مجال تعليم المرأة، والعلاقة بين الرجل والمرأة ومناقشة حقوق وواجبات كل طرف إزاء الآخر، كما استخدمت الأدب أيضاً كأداة للتغيير الاجتماعي، بالإضافة إلى التعبير به عن أحاسيسها كامرأة وهو ما عرضها لهجوم حاد من الكثيرين سواء في حياتها أو بعد مماتها.

والكتاب في مجمله يقدم محاولة جادة لإعادة النظر في بعض المفاهيم الثقافية التي استقرت في وعينا الثقافي من خلال رصد وتحليل التراث النقدي والأدبي الذي تركته عائشة تيمور.

■

السينما والرقابة في مصر (١٨٩٦-١٩٥٢)

محمود علي
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «آفاق السينما»، ٢٠٠٤، ٢٤٧ صفحة



يكشف هذا الكتاب التاريخ السري والمجهول لعلاقة السينما بالرقابة في مصر خلال الفترة من عام ١٨٩٦ حتى ١٩٥٢، والرقابة كما ينظر إليها المؤلف على أنها عبارة عن جهاز يمثل منظومة أشمل من أجهزة الدولة، ويعبر عنها في تعامله مع السينما كوسيلة تعبير أكثر انتشاراً وتأثيراً، كما أن جهاز الرقابة يخضع كغيره من الأجهزة لمنظومة سياسية أشمل هي التي تحدد له ما يجب وما لا يجب إجازته..

يستعرض الكتاب تطور التشريعات المنظمة لعمل النقابة والصراع بين وزارتي الداخلية والشئون قبل ثورة ١٩٥٢ على الرقابة على الأفلام السينمائية وأيهما أحق بهذا الدور، كما استعرض عدداً من تقارير الرقابة على بعض الأفلام.

■

هيكل بين الجريدة والكتاب

د. وحيد عبد المجيد

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٤، ٢١٥ صفحة



أثار قرار محمد حسنين هيكل بالانصراف عن الكتابة فى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ لدى بلوغه الثمانين، ردود أفعال واسعة ليس فقط فى مصر ولكن فى العالم العربى كله.

وفى هذا الكتاب قام د. وحيد برصد ردود الأفعال العربية على قرار الأستاذ بالانصراف، وهو يضعها تحت منظور النقد والتحليل. فحول ما يقوله بعض خصوم الأستاذ السياسيين عن أنه فقد مصادره الإخبارية التى كان يستمدها من قربه إلى السلطة، وأنه وجد نفسه فى محنة حقيقية بعد رحيل عبد الناصر... كانت وجهة نظر د. وحيد أن هيكل كان يكتب من أجل مصر والأمة العربية وللقارئ فى كل مكان من بلاد العرب، وصحيح أنه آمن بأن عبد الناصر هو الذى جسد حلم العرب والعروبة، وكانت كتابات هيكل من أجل ما طمح إليه عبد الناصر وشاركه هو طموحه فيه، بل يعرف كثيرون أن مشاركة هيكل تجاوزت ذلك إلى القيام بدور يعتد به فى صنع هذا الطموح، منذ أن وضع الأفكار الأساسية التى قام عليها كتاب «فلسفة الثورة». وهناك فرق شاسع بين أن يكتب الكاتب من أجل هدف يؤمن به ويشارك فى صنعه ويعتقد أن زعيماً بعينه هو المؤهل للعمل من أجل تحقيقه، وبين أن يكتب من أجل هذا الزعيم. فالعلاقة بين الرجلين لم تكن مجرد صلة بين رئيس دولة ورئيس أكبر صحيفة فى مصر، ولكنها كانت علاقة سياسة وفكر وحوار، ولعب هيكل دوراً كبيراً فى إنارة الطريق أمام عبد الناصر، ولم يكن أبداً صوتاً لعبد الناصر، بل للرؤية التى شاركه فيها، كما كانت له مبادرات فى تطوير هذه الرؤية اعتمد فيها على مكانته ككاتب وليس على علاقته مع الرئيس.

وتغيرت هذه الأوضاع عندما لم تعد ثمة رؤية يشارك فيها هيكل الرئيس أنور السادات بعد حرب ١٩٧٣، فآثر الأستاذ فيها الانصراف عن المشاركة فى صنع سياسة، وترك الأهرام عام ١٩٧٤ مع أن الأمر لم يكن يقتضى أكثر من أن يبدى بعض المرونة كى يبقى صاحب حظوة لدى السادات، إلا أن هيكل أكبر من ذلك، وقد رأى كل ذى عينين أن مكانة هيكل ازدادت بعد أن ترك المنصب وتخفف من أعباء الإدارة، وأقبل ناشرون غربيون كبار عليه فكتب بالإنجليزية العديد من الكتب حققت انتشاراً.

يتناول الكتاب أيضاً تجربة الأستاذ هيكل الفريدة فى الكتابة بلغتين، ويسرد الكثير من المواقف التى تناولتها كتب هيكل بطبعتيها العربية والإنجليزية والتى احتوت على الكثير من القضايا الساخنة التى عاشتها المنطقة عقب حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣.

■

مراجعات فى الفكر القومى

د. محمد جابر الأنصارى

الكويت: وزارة الإعلام، كتاب العربى العدد ٥٧، ١٥ يوليو ٢٠٠٤، ١٩١ صفحة



الدكتور الأنصارى من المثقفين الذين عاشوا التجربة العربية حلماً وكابوساً، إلا أنه بخلاف العديد من المثقفين العرب لم يترك نفسه لليأس والغضب، ولم يمارس جلد الذات، فهو يرى أنه من الممكن اجتياز هذه الهوة التى يعيشها العرب حالياً، بجسر من إعمال العقل وتدعيم الذات العربية المكلومة.

وهذا الكتاب يجمع بعضاً من حصيلة ٣٦ عاماً من المقالات التى كتبها د. الأنصارى فى مجلة العربى، وهى تبين أهم المنعطفات التى تواصلت خلال تطوره الفكرى، كما أن العديد منها كان يحمل الكثير من الأفكار التى تحولت إلى كتب مستقلة من ضمن الـ ١١ كتاباً التى أصدرهما قبل هذا الكتاب.

وكما يقول د. الأنصارى فإنه قد تبين له بعد هزائمنا العربية المتوالية أن أخطر ما نفتقده هو التأسيس المعرفى لقضايانا، قبل الترويج الأيديولوجى لها.

ويأتى هذا الكتاب ليلقى الأضواء على فكرة د. الأنصارى المركزية فى دراسته لأزمة الفكر العربى، والتى يراهن من خلالها على تجاوز الفكر التوفيقى فى العقل العربى الحديث منذ ما عرف بفجر النهضة وحتى الآن، والتى تمثلت فى «حالة اللاحسم» والتعارض بين الاضداد ما بين «الوطن وما دون الوطن» وبين «الوطنى والقومى» وبين «القومى والدينى» وبين الدينى والعصرى، إلى آخر هذه السلسلة من الثنائيات غير المحسوم بينها فى الحياة العربية الحديثة.

وخلال فصول أو مقالات هذا الكتاب يوضح د. الأنصارى جوهر مشروعه البحثى الذى يدعو لتجاوز التوفيقية، بعد تشخيصها ونقدها، منطلقاً من فرضية أساسية وهى أنه على الرغم من التألق الروحى والعقلى والعمرانى للحضارة العربية الإسلامية، فإن تاريخها السياسى وفكرها السياسى ظلا أضعف عناصرها على الإطلاق وأشدها ارتباكاً. وأن الخروج من هذه الوضعية السياسية المرتبكة يتطلب فى المقام الأول فتح المجال أمام القوى المدنية الوطنية للعمل السياسى المعقلن الحديث فى وجه العصبيات السياسية التقليدية، ومالم يتم تمدين هذه القوى ودمجها فى مجتمع مدنى الطابع، فإن الحديث عن الديمقراطية فى البلاد العربية سيبقى حديث خرافة.

■

العالم الإسلامى فى عصر العولمة

د. عبد العزيز بن عثمان التويجرى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٢٨صفحة



عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، تصاعدت فى الغرب موجات الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه القوى الصهيونية الاستعمارية واليمين المسيحى الواقع تحت تأثيرها انحيازها الكامل والمطلق لدولة إسرائيل العنصرية والمارقة عن القانون الدولى والتى تمارس ضد الشعب الفلسطينى أبشع الجرائم.

ويؤكد هذا الكتاب، أن هذه الحرب المعلنة ضد الإسلام والمسلمين فى هذه المرحلة من التاريخ، ارتبطت بمحاولات فرض نظام العولمة على المجتمعات الإنسانية، تحت زعم أنه نظام عالمى بينما هو فى حقيقته وطبيعة سياساته وأهدافه نظام أحادى، تستهدف قوى دولية من وراء فرضه على أنه أمر واقع للسيطرة على العالم كله.

وقد أصبح واضحاً أن نظام العولمة المفروض بقوة النفوذ السياسى والاقتصادى للقوى الدولية المهيمنة على السياسة الدولية فى المرحلة الراهنة، يشكل تحدياً بالغ الضراوة والشراسة، لا تستطيع الدول التى لا تمتلك شروط المناعة الصناعية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية التصدى له ولتأثيراته الخطيرة عليها. ومع اشتداد الحصار الذى تضربه العولمة على الدول النامية لكى تحد من قدراتها على تحقيق مصالحها وضبط موازين سياساتها الوطنية فى الاتجاه الذى يخدم هذه المصالح.. فإن التعامل مع العولمة ينبغى أن يتم بفهم آليات هذا النظام وفلسفته وإدراك السياسة المحكمة فيه، ومحاولة تحقيق التوازن بين ضغوط العولمة وبين المصالح الوطنية لهذه الدول النامية.

والمؤلف يؤكد أنه لا سبيل لتجاوز الواقع الذى يفرض نفسه فى السياسة الدولية فى هذه المرحلة العصيبة التى يمر بها العالم، إلا بالتكيف مع هذا الواقع والاندماج فى معتركه والتعامل مع حقائقه بموضوعية شديدة، لكى ندخل فى طور مواكبة متغيرات العولمة دون أن نضطر إلى مواجهتها.. وهى المواجهة المستحيلة بحكم الحسابات الواقعية، خاصة أن الصراع فى الفكر الغربى المعاصر له جذور عميقة تعود إلى الحضارتين اليونانية والرومانية.

ويشير الكتاب إلى أن الأمة الإسلامية تمتلك شروط النهوض الحضارى لاستئناف دورها فى بناء الحضارة المعاصرة والإسهام فى إنقاذ البشرية مما يتهددها اليوم من خطر التفكك والانهيار، وهى مؤهلة أكثر من غيرها من الأمم تؤدى دوراً بالغ التميز، بشرط أن تقوم بتصحيح أوضاعها الداخلية، ونبذ خلافاتها الهامشية وتفعيل قدراتها الكبيرة فى إطار التضامن الإنسانى وبروح القوة الإسلامية.

■

أيام فى العراق

أنور الياسين - جمال بخيت

الكويت: عالم المستقبل للخدمات الإعلامية، العدد ٣٠٥، ٢٠٠٤



يظل العراق الرقم الصعب فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر فمنذ مطلع السبعينيات وأحداث العراق تفرض نفسها على الساحة السياسية والاقتصادية والإعلامية والثقافية.. من حرب إلى أخرى ومن أزمة إلى أخرى.

والكتاب يرصد رحلة لزميلين من الصحافيين اللذين تابعوا عملية تحرير العراق منذ البداية بحثاً عن الحقيقة وكشف بعض وليس كل المنظمة السرية التى كان يقودها صدام.

يرصد الكتاب فى الباب الأول مجموعة من الفصول عن حزب البعث، وصدام حسين وكيفية وصوله للحكم، والعلاقات مع الأمم المتحدة. ويستعرض الفصل الثانى المعارضة العراقية وحوارات معها ويشرح الفصل الثالث التحضير للحرب، ثم مشاهدات حية خلال رحلات المؤلفين إلى العراق، أما الفصل الرابع فيتناول عملية حرية العراق وليلة سقوط بغداد وسيطرة بريطانيا والولايات المتحدة على كامل العراق فى أيام.

والكتاب ملحق به مجموعة كبيرة من الصور توثق مجموعة الرحلات التى قام بها المؤلفان وهما يرصدان هذه الأحداث التى مرت بالعراق والتى باتت أكيدة

سيكون معها تأثيراتها الكبرى على مستقبل المنطقة بكاملها.

■

العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية.. لبنات أساسية فى صرح الحضارة الإنسانية

دونالد ر. هيل
ترجمة: أحمد فؤاد باشا
الكويت: عالم المعرفة، العدد ٣٠٥، ٢٠٠٤، ٢٣٠ صفحة



يعرض الكتاب لأهم إنجازات الحضارة الإسلامية فى علوم مختلفة كالرياضيات والفلك والفيزياء وغيرها، مركزًا على الجانب التقنى من خلال عرض واف للآلات والأجهزة والإنشاءات الهندسية التى تميزت بها الحضارة الإسلامية.

يقدم المؤلف موجزًا لتأثير الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية، وتحديدًا الحضارات الهلينستية والرومانية والبيزنطية، ويعرض للدور الذى لعبته حركة الترجمة فى انتقال المعارف والعلوم إلى المسلمين. كما يتناول انتقال الرياضيات الهندية إلى الحضارة الإسلامية ودورها فى تطور الرياضيات عمومًا. ودور العلماء المسلمين، كالخوارزمى، فى هذا التطور، ويعرض لحساب المثلثات باعتباره من أهم إسهامات المسلمين فى مجال الهندسة. ويستعرض الكتاب علم الفلك والفيزياء والكيمياء وأهم الآلات التى صنعها المسلمون مثل طواحين الهواء والماء والمجانيق، بالإضافة إلى أنواع الجسور التى أقاموها على أراضيهم وغير ذلك من العلوم.

■

البلدة الأخرى

إبراهيم عبد المجيد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٣٨٣صفحة



فى مناخ يمتزج فيه الحلم بالألم، تحكى هذه الرواية قصة شاب قام بالسفر إلى إحدى دول النفط، عله يجد فيها ما يعوضه عما يعانيه فى بلده.

وهناك انفتحت أمامه دنيا جديدة، شاهد فيها صراعات ساخنة تدور من حوله، وبداخله أيضًا.. تنفجر شلالات من الأسئلة الحائرة كان أهمها: هل يستمر فى غربته أم يسرع بالعودة؟.. ولم تكن الإجابة سهلة على الكثيرين الذين يقعون فى حيرة الموازنة بين المعاناة فى الغربة والمعاناة فى الوطن.

كان بطل الرواية مؤمنًا بأن الحياة جميلة جديرة بأن تعاش، إلا أن عمله بالتدريس لن يتحرك به خطوة للأمام وانتظاره للإعارة وفقًا لجدول وزارة التربية والتعليم، يعنى الانتظار حتى يجف النفط، وتفقد فكرة السفر معناها وجدواها. فقد كان عليه أن يسافر، لأنه لا يوجد أحد يرفض فرصة سهلة كهذه، وهو ما يحسده عليه الناس، كما قالت له أمه، ومع السفر والعودة، كانت هناك لحظات حلوة وأخرى مرة.. وكانت هذه الرواية التى كتبها الأديب إبراهيم عبد المجيد بين عامى ١٩٨٦ و١٩٨٧.

دوريات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يوليو، ٢٠٠٤، ٣ جنيهات



يتضمن هذا العدد من مجلة المستقبل العربى التى يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية ملفًا شاملاً بعنوان: «العراق إلى أين؟» أما الافتتاحية فقد كانت بعنوان: «فى تأبين يوسف صايغ: عقل اقتصادى عربى رائد» كتبها خير الدين حسيب.

وفى العدد أيضًا دراسة تفصيلية لـ «أطروحات الأكاديمية الصهيونية جدلية الزيف التاريخى وتعاكسية الاستخلاصات والنتائج» أعدها محمد صلاح العطار، و«المنطقة الرمادية: كيف انتقل برنامج سرى للبنتاجون إلى أبو غريب» وهى مقالة كتبها سيمور هيرش تكشف النقاب عن جذور فضيحة سجن أبو غريب.

وفى باب «من التراث» تنشر المستقبل العربى «حكومة الانتداب» وهى قصيدة قديمة شهيرة لمعروف الرصافى.

■

الآداب

بيروت: ٢٠٠٤، ٩٦ صفحة، ٧ جنيهات



يحتوى هذا العدد ملفًا شاملاً عن الشعر الحديث فى إيران. كما يتضمن حوارًا مع المثقف الأمريكى جول بينن حول مشروع الشرق الأوسط الكبير، بالإضافة إلى عدد من الأبحاث حول المقاومة الشاملة، والكلاسيكية فى الخطاب التاريخى العربى المعاصر، وهيمنة الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية.

■

جريدة الفنون

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والآداب والفنون، يوليو٢٠٠٤



حرصت جريدة الفنون، فى عددها الأخير أن تنعى الفنانة القديرة الراحلة مريم الغضبان، من خلال ملف يحوى مسيرتها الفنية.

على جانب آخر احتفت الفنون بالفنان العراقى العالمى حسن شاكر آل سعيد، صاحب الفن الجدارى المعروف، ويقدم باب المسرح قراءة نقدية فى إحدى مسرحيات المبدع سليمان الحزامى، أما باب السينما فقد اشتمل على متابعة لفعاليات الأسبوع السينمائى الفلسطينى كذلك احتوى الباب على قراءة لاثنين من الإبداعات السينمائية الكويتية وهما المهرجون «لناصر كرمانى»، و«المغول رعاة السهول» لعبد الله المخيال.

■

الثقافة العالمية

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، يوليو - أغسطس٢٠٠٤



يحفل عدد الثقافة العالمية ١٢٥ (يوليو - أغسطس٢٠٠٤) بالعديد من المقالات المهمة، يأتى على رأسها ملف العدد «الحرب على الإرهاب» الذى يضم خمسة مقالات، يعالج كل منها قضية الإرهاب من زاوية مختلفة. أما بقية مقالات العدد التسع فهى تتنوع فى مقالاتها بين المجال العلمى إلى التكنولوجى والطبى، ومن الوثائقى إلى الروحانى. ومن هذه المقالات «تأملات فى الشأن الدينى» و«أنت مراقب» و«أسطورة الحوسبة الآمنة».

■

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، يوليو ٢٠٠٤



اشتمل هذا العدد على عدد من الموضوعات المتميزة، منها دراسة عن المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون الذى توفى هذا العام عن ٨٩ عامًا، بالإضافة إلى موضوعين عن ثورة ماو الثقافية، ودراسة عن الشخصية العربية بين التقليدية والحداثة.

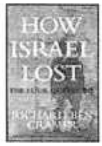
وفى هذا العدد ملف عن الكاتب الأردنى مؤنس الرزاز، ودراسة عن السينما الإيرانية.

■

How Israel Lost the Four Questions

(كيف خسرت إسرائيل القضايا الأربع)

Richard Ben Cramer
Simon and Schuster, 2004,
307PP., $ 24.00



يقول مؤلف هذا الكتاب وهو صحفي أمريكي قام لسنوات طويلة بتغطية شئون الشرق الأوسط لصحيفة أمريكية، إن أي يهودي غير إسرائيلي يمكنه أن يحل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني خلال ١٠ دقائق من التفكير المركز.

ويعتقد المؤلف، الفائز عام ١٩٧٩ بجائزة بوليتزر الأمريكية إن انسحاب إسرائيل من جانب واحد من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ وعودتها إلى خطوط الهدنة عام ١٩٤٨ والاعتذار للفلسطينيين من شأنه أن يؤدي إلى إحلال السلام في المنطقة وأن تعود إسرائيل لتحتل مكانتها اللائقة في العالم.

ويحمل المؤلف إسرائيل مسئولية فشل اتفاقيات أوسلو ويصف حركة حماس بأنها أكثر جماعات المقاومة الإسلامية نجاحًا، قائلاً: إنه رغم أن هدفها هو إزالة إسرائيل إلا أنها في الواقع تقاوم الاحتلال. ويشير إلى أن العنف الذي يمارسه الفلسطينيون ضد اليهود بدأ بعد أن احتلت إسرائيل الأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧ وكثفت من برامج إنشاء المستوطنات والاعتقالات ضد الفلسطينيين.

ولأن المؤلف شديد الوضوح في إبراز الأسباب التي يعتقد أنها تؤجج الصراع في المنطقة ولا تحل ولأنه يحمل إسرائيل مسئولية ذلك، فإنه تعرض لانتقادات شديدة في الولايات المتحدة واتهمه صحفيون عديدون بأنه يبسط الأمور بشكل مخل ويحمل إسرائيل كل شيء دون أن ينظر إلى مسئولية الطرف الآخر، وهم الفلسطينيون عن المشكلة. إلا أن المؤلف من خلال خبرته الطويلة في تغطية شئون الشرق الأوسط وفي اللقاءات العديدة التي أجراها مع إسرائيليين وفلسطينيين والتفاتاته الكثيرة إلى التاريخ يعتقد أن إسرائيل هي التي تتحمل المسئولية وبشكل واضح.

■

Churchill's Folly.. Imperialism and the Creation of Modern Iraq

(حماقة تشرشل.. الإمبريالية ونشوء العراق الحديث)

Cristopher Cather Wood
Constable 267PP. £12.99



ظهر العراق الحديث على أنقاض الإمبراطورية العثمانية وكان من الصعب، كما يرى الكاتب، تحديد مما يتكون العراق بالضبط كما هو الأمر الآن تحت حكم الأتراك كان يتألف من ٣ ولايات متمركزة حول مدن الموصل وبغداد والبصرة، وكل منها يمثل أعراقًا مختلفة الأكراد والعرب السنة والعرب الشيعة. وقرر البريطانيون المحتلون أن تكون هذه الولايات تحت حكم واحد وهو الملك فيصل. ويتناول الكتاب كيفية اختيار فيصل. ومؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ الذي أسفر عن تثبيت فيصل على حكم العراق وشقيقه عبد الله على إمارة شرق الأردن دون حل للمسألة الفلسطينية وبذلك أعاد البريطانيون رسم خريطة الشرق الأوسط.

ويقول المؤلف إن تشرشل مال إلى اختيار فيصل لأسباب اقتصادية فهو كان يريد أن يقلل عدد القوات البريطانية في العراق، إلا أنه من المعروف أن المقاومة العراقية للاحتلال البريطانية كانت شرسة لدرجة كبيرة أزعجت البريطانيين أنفسهم ويدافع المؤلف كثيرًا في الكتاب عن دور تشرشل وسياسته آنذاك عندما كان وزيرًا للمستعمرات البريطانية.

■

How Soccer Explains the World: An Unlikely Theory of Globalization

(كيف تفسر العالم من خلال كرة القدم؟.. نظرية في العولمة)

Franklin Foer
Harper Collins Pub., 2004,
261PP. $ 24.95



تفرغ الصحفي الأمريكي فرانكلين فوير لمدة ستة أشهر كي يجوب عواصم كرة القدم في العالم كله، ليثبت نظريته في أننا نستطيع من خلال دراسة لعبة كرة القدم أن نفسر معظم الظواهر السياسية والاقتصادية والثقافية في العالم. بالتحديد دراسة آثار العولمة على الهويات القومية والانتماءات المحلية.

يبين الكتاب العلاقة بين متعصبي كرة القدم في صربيا وبين المذابح التي تمت في كرواتيا والبوسنة بأوائل التسعينيات. فقد قام أحد هؤلاء المتعصبين ويدعى «أركان» بتجنيد مجموعة من مشجعي فريق «النجم الأحمر» لكي يكونوا أحد فيالق «ميلوسوفتش» وقاموا بذبح آلفي بوسني وكرواتي على الأقل.

ويذهب المؤلف إلى سكوتلاندة حيث يلعب الصراع المذهبي بين البروتستانت والكاثوليك دورًا مهمًا في مدرجات مدينة جلاسكو. وفي إيران، يرى فرانكلين فوير أن العالم لم ينتبه للثورة المضادة التي قامت بها النساء عام ١٩٩٧ عندما أصررن على المشاركة في الاحتفال بانتصار الفريق القومي في إحدى المباريات الدولية المهمة، فقمن بمظاهرة عندما تم منعهن من دخول أرض الإستاد المخصصة للرجال فقط. الأمر الذي يراه المؤلف دليلاً على علاقة كرة القدم بالسياسة والدين وكل شيء.

■

Alexandria, Real and Imagined

(الإسكندرية: الواقع والمتخيل)

Anthony Hirst and Michael Silk
Ashgate/ Kings College, 2004,
432PP. £ 55.00



يقدم هذا الكتاب الضخم صورة مركبة لمدينة غير عادية، منذ أن تأسست في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى يومنا هذا: مدينة تعرف بتاريخها وتنوعها الاثني والثقافي، كما تعرف بآثار عظمتها القديمة من عهود الإمبراطوريات العثمانية والعربية والبيزنطية والرومانية واليونانية. ويحتفي الكتاب أيضًا بصورة الإسكندرية في ذاكرة ومخيلة الكتاب والفنانين والشعراء السكندريين وغيرهم من زوار المدينة.

يتضمن الكتاب مجموعة كبيرة من المقالات والدراسات لمؤلفين تنوعت رؤاهم وتخصصاتهم من تاريخ الفن والتحليل الاجتماعي والثقافي إلى قراءات جديدة لكفافي وكاليماخوس، ومن انطباعات الرحالة الأجانب إلى سجلات أقسام الشرطة، ومن صورة الإسكندرية لدى ديوريل وفورستر إلى صورتها في الرواية العربية في القرن العشرين.

■

America Alone: The Neoconservatives and the Global order

(أمريكا وحيدة: المحافظون الجدد والنظام الكوكبي)

Stefan Halper and Jonathan Clarke
CUP, 2004, 369PP., $ 20.00



يجادل المؤلفان في هذا الكتاب بأن السياسة الخارجية الأمريكية تعرضت للاختطاف من جانب عصابة من المحافظين الجدد الذين سيطروا على جدول أعمال الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ويقول المؤلفان إن المحافظين الجدد كانوا مستعدين بخطة عمل تفصيلية لكيفية استجابة الولايات المتحدة للأحداث. والمشكلة أن هذه الخطة كانت معدة قبل ١١ سبتمبر بسنوات ولأسباب مختلفة وفي سياق مختلف وضد دولة مختلفة. لكن المحافظين الجدد لم تكن لديهم مشكلة رغم هذه الاختلافات فطبقوا الخطة على الأحداث بعد سبتمبر وهو ما جلب المشاكل على الولايات المتحدة.

لقد بدأ المحافظون الجدد كقوة يحسب لها حساب في بداية السبعينيات عندما انقلب تيار الوسط والمحافظون الديمقراطيون في الحزب الديمقراطي على قيادة الحزب الليبرالية بزعامة جورج ماكجنورن. والتف هؤلاء المنشقون حول السيناتور هنري جاكسون المعارض لسياسة الانفراج مع الاتحاد السوفيتي.

وزادت الهوة بين هؤلاء المحافظين الجدد والمحافظين في الحزب الجمهوري مع نهاية الحرب الباردة وانتقد المحافظون الجدد عدم دخول القوات الأمريكية بغداد عام ١٩٩١ وإزاحة صدام عقب حرب تحرير الكويت ووجد المحافظون الجدد فرصتهم مع وصول الرئيس بوش الابن للسلطة وبدأوا في تطبيق أجندتهم. ويشير المؤلفان إلى أن سياسات هؤلاء الجدد كانت مثار جدل شديد داخل وخارج الولايات المتحدة، بل إنهم خرقوا الثوابت الأمريكية وعلى سبيل المثال فإنه لا توجد إجابة شافية على سؤال لماذا اتحد المحافظون الجدد

مع الليكود في إسرائيل بدلاً من حزب العمل الذي كان الحليف الطبيعي للولايات المتحدة.

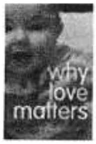
■

Why Love Matters: How Affection Shapes a Baby's Brain

(أهمية الحب، كيف تشكل العاطفة مخ الرضيع)

Sue Gerhardt

Routledge, 2004, 264PP. $ 9.99



في دراسة أجريت على مجموعة من الأيتام في رومانيا تركوا وهم رضع يبكون طويلاً دون أن يلتقطهم أو يحملهم شخص بالغ، اكتشف الباحثون أن هؤلاء الأطفال يحدث لهم خلل في نمو الفص الأمامي بالمخ، وهو الجزء المسئول عن التحكم في المشاعر والعواطف، والإحساس بالآخرين، والشعور بالمتعة وتقدير الجمال.

هذا الكتاب يؤكد النتيجة نفسها: أن الخبرة الشعورية والعاطفية للأطفال الرضع في الشهور الأولى بعد الولادة لها تأثير خطير وبعيد المدى على نمو المخ وبالتالي على الشخصية التي يصير عليها الطفل بعد البلوغ والنضوج.

وقد احتاجت المعالجة النفسية ومؤلفة هذا الكتاب سوجيرهارت إلى شجاعة كبيرة لكي تنشر هذا الكتاب واستنتاجاته، لما لهذا الموضوع من حساسيات سياسية تمس وضع المرأة والسياسات الحكومية المشجعة لعمل المرأة وإنشاء حضانات رعاية الأطفال الرضع في بريطانيا، ولهذا كانت مثل هذه الدراسات تهاجم بشدة في الستينيات من قبل الحركات النسوية.

تبين سو جيرهارت أن العامل الأساسي في هذه الدراما السيكولوجية هو هورمون الكورتيسول، والذي يفرز من غدة معينة بالمخ عندما يشعر الطفل بالأسى والتوتر. فإذا زادت نسبة الكورتيسول كثيراً بسبب طول فترات الحزن والتوتر يحدث خلل بالمخ، يجعل من الطفل إما يفرز كمية قليلة للغاية من الهرمون أو كمية زائدة، الأمر الذي يجعل منه في الحالة الأولى عنيفاً وبارد عاطفياً، وفي الحالة الثانية مكتئباً وخائفاً.

■

The Right Nation.. Conservative Power in America

(أمة اليمين.. قوة المحافظين في أمريكا)

John Micklethwait and Adrian Wooldrige

Penguin, 2004, 450PP.,$25.00



يكرس المؤلفان هذا الكتاب للحديث حول الحركة المحافظة التي أعادت تشكيل السياسات الأمريكية خلال العقد الأخير. والكتاب مقسم إلى ٤ أجزاء حول تاريخ الحركة وواقعها ومستقبلها والمشاكل التي تواجهها. ولأن المؤلفين بريطانيان فإنهما يحاولان إرجاع الحركة المحافظة في الولايات المتحدة إلى أصول بريطانية تعود إلى القرنين الثامن والتاسع عشر.

ويشير الكتاب إلى أن هناك أنواعاً متعددة للمحافظة داخل الحزب الجمهوري تؤثر في سياسات هذا الحزب بأشكال عديدة ولا يكتفي المؤلفان بالحديث عن التاريخ بل إنهما يحاولان أن يقدما رؤية واقعية للمحافظين على الأرض من خلال زيارة التجمعات المحافظة والالتقاء بمواطنين عاديين يؤمنون بهذه الأفكار. ويتحدث المؤلفان بشكل خاص عن أسرة أو سلالة بوش ومدى تجذر الفكر المحافظ فيها.

■

Willing Slaves: How the Overwork Culture is Ruling our Lives

(عبيد بإرادتنا، كيف تتحكم ثقافة العمل في حياتنا)

Madeleine Bunting

Profile Books, 2004, 370PP. £ 12.99



تحذر المؤلفة من أثر طغيان العمل على حياة الفرد وحريته الشخصية في المجتمع الحديث.

فالشركات الكبيرة تؤسس للعاملين بها ثقافة فرعية وهمية وانتماءات وظيفية لكي يعملوا أكثر وينتجوا أفضل، فهي توهمهم بأنهم «أسرة»، وتركز على قيم الوفاء والولاء وكأنها ديانة أو مذهب أو طائفة دينية. وتشير المؤلفة أن هذه ليست ظاهرة جديدة، ففي القرنين الثامن والتاسع عشر كان المشروع الصناعي وقتذاك في أوروبا يعتمد على المذهب البروتستانتي الذي كان يلقن الناس أن «العمل المجد عبادة للرب».

ومع هذا فإن هناك عنصراً آخر يفسر إقبال الناس على العمل لساعات طويلة شاقة، وهو الرغبة الاستهلاكية التي نمت بشراهة في السنين الأخيرة. الأمر الذي يجعل الفرد ينهك نفسه طواعية ويقلل من حريته الشخصية التي تنحصر بعد ذلك في قدرته على الاختيار من بين سلعة استهلاكية وأخرى. بينما هو فاقد السيطرة على نوعية الحياة التي يعيشها وفاقد لأي سيطرة على الوقت والزمن.

■

State Building: Governance and World Order in the 21st Century

(بناء الدولة، الحوكمة والنظام العالمي في القرن الواحد والعشرين)

Francis Fukuyama

Profile Books, 2004, 194PP. £ 15.99



معروف عن المفكر الأمريكي، الياباني الأصل، فرانسيس فوكوياما اتجاهاته المحافظة، ويعتبره البعض مفكر وزارة الخارجية الأمريكية حيث عمل مستشاراً للسياسات في وزارة الخارجية الأمريكية بواشنطن لسنوات عديدة، وهو الآن أستاذ الاقتصاد السياسي الدولي بجامعة جونز هوبكنز.

في كتابه الأخير، يتناول صاحب مقولة «نهاية التاريخ» المتغيرات الدولية مركزاً على دور «المؤسسات» ودور «الدولة» خاصة في بلاد العالم العاجزة عن إدارة الدولة مثل الصومال وكامبوديا والبوسنة ورواندا وبالطبع السودان والعراق.

ويحذر فوكوياما من أن تلك الدول الضعيفة هي أخطر تهديد للنظام الدولي لأنها مصدر انتهاكات حقوق الإنسان، ومصدر أفواج المهاجرين، ومأوى الإرهابيين، وموطن الكوارث الإنسانية.

لهذا السبب، تحول الاهتمام الغربي من التركيز على الأسواق والتقليل من دور الدولة الذي كان سائداً في الثمانينيات إلى اهتمام بمؤسسات الدولة وحسن الإدارة (أو الحوكمة كما قرر مجمع اللغة العربية في ترجمته كلمة Governance).

بالطبع فإن الاهتمام الغربي - والأمريكي خاصة - ببناء الدولة والمؤسسات في بلاد العالم يستدعي درجات متفاوتة من التدخل وانتهاك السيادة الوطنية لهذه البلاد.

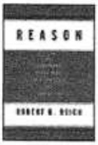
■

Reason.. Why Liberals Will win the Battle of America

(لماذا سينتصر الليبراليون في المعركة من أجل أمريكا)

Robert B. Reich

Alfred A. Knopf, $24.00, 257PP



مؤلف هذا الكتاب عمل وزيراً للعمل في عهد إدارة الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون، وهو أيضاً مؤلف لعديد من الكتب عن موضوعات مختلفة أهمها من إدارة كلينتون إلى الاقتصاد الجديد.

وهذا الكتاب دفاع عن الليبرالية الأمريكية في ظل ما يخشى منه المؤلف من الهجوم الذي تتعرض له الولايات المتحدة من جانب المحافظين الجدد ويفند المؤلف كثيراً من الأفكار المغلوطة حول مسائل التصنيع وتوفير الوظائف والضرائب. ويتحدث المؤلف أيضاً عما يسميه المعايير المزدوجة لدى المحافظين الجدد فهم مثلاً يبالغون في التعبير عن الغضب الشديد بشأن قضايا انتقائية مثل الزواج المثلي إلا أنهم لا يتحدثون مثلاً عن فساد الشركات ومرتبات رؤساء مجالس الإدارات الخيالية وعن سياسات التدمير الشخصي.

ويقول المؤلف إن المجتمع الكريم هو الذي ينجح في دمج أبنائه من خلال تقاسم الخبرة المشتركة وتوفير الوظائف الجيدة ويوفر المساعدة لهؤلاء المحتاجين إليها.

ويقدم المؤلف اقتراحات عديدة لتحسين صورة الليبراليين في الولايات المتحدة من خلال الانحياز إلى المواطنين العاديين بدلاً من التركيز على الشركات الكبرى ورأس المال كما يفعل المحافظون الجدد.

■

فى البـــدء كان ديـوفاتـيس الســـكـنـدرى

Fermats Last Theorem
(نظرية فيرمات الأخيرة)
Simon Singh
Fourth Estate, 1977, 384p.

يستحيل أن يتحدث أحد عن تاريخ «نظرية فرمات الأخيرة» دون العودة إلى الرياضى السكندرى ديوفاتيس.

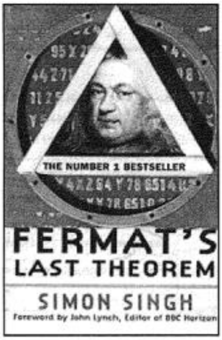
وليس هناك الكثير المعروف عن حياة ديوفاتيس. فلا أحد يعرف هل ولد بالإسكندرية أم أنه جاء إليها من اليونان. لكن هناك شبه يقين بأنه عاش بالإسكندرية عام ٢٥٠ بعد الميلاد، وهذا يثبت أن مدرسة الإسكندرية التى كانت المركز الثقافى العالمى كانت مازالت حية ونشيطة حتى ذلك الوقت.

ولقد عرف ديوفاتيس بكتابه العظيم «الحساب» Arithmatica وهو الكتاب الذى وصل إلى بغداد فى العصر العباسى الأول، واستفاد منه العلماء العرب. ومع ذلك فقد دمرت أجزاء من هذا الكتاب فى الحرائق التى جرت بالإسكندرية ولم يبق منه غير ستة أجزاء فحسب من أجزائه الثلاثة عشر.

لقد كان إقليدس أعظم رياضيى مدرسة الإسكندرية، وقد عرف بكتابه الشهير «الأصول» The Elements الذى ظل يدرس فى أوروبا تقريبًا كما هو حتى القرن التاسع عشر، ومع اهتمام إقليدس بنظرية الإعداد واهتمامه على وجه الخصوص بالأعداد الأولية والأعداد غير النسبية مثل جَزر ٢، إلا أن ثمانية أجزاء من كتاب إقليدس بأجزائه الثلاثة عشر كانت تتعلق بالهندسة المستوية والفراغية.

أما كتاب ديوفاتيس فيتعلق كله بالحساب وبالحلول الصحيحة للمعادلات. وحتى اليوم يطلق اسم «معادلات ديوفاتيس» على معادلات كثيرات الحدود التى معاملاتها أعداد صحيحة.

ولقد احتفظت كاتدرائية القسطنطينية بكتاب ديوفاتيس ضمن كتب أخرى حتى استولى العثمانيون على المدينة وعندئذ هربت كتب كثيرة إلى الغرب وهكذا





وصل كتاب ديوفاتيس (مكتوبًا باليونانية) إلى فرنسا ورياضيى حتى عصر النهضة وفى مقدمتهم فرمات.

كان فرمات قاضيًا بالمهنة لكنه كان محبًا للرياضيات يصرف كل أوقات فراغه فى البحث فيها، وعندما وصله كتاب ديوفاتيس مترجمًا من اليونانية إلى اللاتينية التى كان يجيدها انكب على دراسته واهتم على وجه الخصوص بثلاثية الأعداد الصحيحة التى ترتبط ببعضها.

لقد كان معروفًا منذ فيثاغورس أن هناك عددًا ضخمًا من هذه الثلاثيات مثل

$١٠^{٢} = ٨^{٢} + ٦^{٢}$

أى ١٠٠ = ٦٤ + ٣٦

أو $١٣^{٢} = ١٢^{٢} + ٥^{٢}$

أى ١٦٩ = ١٤٤ + ٢٥

ثم استطاع إقليدس من أن يثبت أن هذه الثلاثيات المربعة لا نهائية. ولذا كان من الطبيعى أن يثير ديوفاتيس إن كان من الممكن العثور على أعداد صحيحة مكعبة تحقق نفس الخواص. وبمعنى آخر يبقى السؤال هو: هل للمعادلة $ع^{٣} = س^{٣} + ص^{٣}$ حلول أعداد صحيحة؟

هل يمكن تقسيم ١٢٥ ($٥^{٣}$) إلى مجموع مكعبين صحيحين؟

لقد فشل ديوفاتيس فى الحصول على مثل هذه النتيجة، واقتنع فرمات من بعده أن المعادلة $ع^{٣} = س^{٣} + ص^{٣}$ ليس لها حلول صحيحة.

ولكن ما هو برهان ذلك؟ تلك هى المسألة التى استمرت دون حل ٣٥٠ سنة.

ولقد توهم فرمات أنه حصل على برهان وذكر ذلك فى الكتاب لكنه قال إنه لضيق الهامش لا يستطيع أن يكتب البرهان. وبعد ذلك بأيام مات فرمات وسميت هذه النظرية بنظرية فرمات الأخيرة.

ولمدة ٣٥٠ عامًا حاول أعظم رياضيى العالم، ومنهم أويلر، برهان نظرية فرمات دون جدوى. ولقد وصل الأمر فى التدليل على صعوبة المسألة إلى الأدب الحديث. ففى عام ١٩٥٨ دخلت نظرية فرمات فى أقاصيص فاوستيه عنوانها «صفقات مع الشيطان»، وكانت إحداها أقصوصة صغيرة عنوانها «الشيطان وسيمون فلاج» وموضوعها. إن الشيطان طلب من سيمون أن يطرح عليه سؤالاً، ويمهله ٢٤ ساعة. فإذا استطاع أن يجيب على السؤال الإجابة الصحيحة قبض روح سيمون وإن فشل دفع لسيمون مائة ألف دولار.

ووافق سيمون وكان سؤاله للشيطان «هل نظرية فرمات صحيحة؟».

وعاد الشيطان بعد يوم كامل واعترف لسيمون بهزيمته. وقال إنه سأل أعظم رياضيى الكواكب الأخرى فلم يستطيعوا أن يردوا على هذا السؤال، بل إنه قابل فى زحل مخلوقًا جسمه مكون من فطر على قوائم خشبية ويستطيع أن يحل معادلات تفاضلية جزئية دون أوراق، ومع ذلك اعترف أنه غير قادر على الإجابة على سؤال سيمون.

وفى الختام كان أندرو وايلز الإنجليزى عندئذ، وفى الزمن الحديث جدًا يظهر أندرو وايلز Andrew Wiles الصبى الإنجليزى الذى كان يهوى حل الألغاز والتى عثر على نظرية فرمات فى مكتبة الحى. وأصبح حلمه فى الصبا والشباب أن يبرهن نظرية فرمات وعندما كبر التحق بجامعة كمبردج وتخصص فى الرياضيات ثم ذهب إلى جامعة بريستون أستاذًا. وعندئذ قرر تخصيص سبع سنوات من حياته لحل هذه المسألة. واشترط على زوجته عدم إدخال تليفزيون بالمنزل حتى يركز فى عمله، بل حتى زملائه فى الجامعة أخفى عنهم بحوثه.

وفى عام ١٩٩٣ استطاع أندرو وايلز أن يحصل على هذا البرهان واختار أن يذهب إلى جامعة كمبردج التى تخرج منها ليلقى المحاضرة التى يقدم فيها البرهان.

وغنى عن البيان أنه استقبل بعاصفة من التصفيق من الحاضرين. ثم تبين بعد ذلك أن ثمة خطأ فى البرهان.

وتوفر أندرو وايلز سنة كاملة لعلاج هذا الخطأ واستخدم فى سبيل «دعوى شيمورا وتانى ياما»، وهما يابانيان اكتشفا هذه الدعوى لكنهما عجزا عن برهانها. ولقد استطاع وايلز أن يبرهن هذه الدعوى وأن يستخدمها فى تصحيح الخطأ الذى كان فى البرهان.

وهكذا سلم علماء الرياضيات فى نهاية الأمر أن أندرو وايلز نجح فى برهان نظرية فرمات الأخيرة بعد ٣٥٠ سنة من المحاولات.

عبد العظيم أنيس

نادر فرجاني يناقش دور الإبراهيمي والأمم المتحدة

قليل من المثالية.. يرحمكم الله

■■ نشرت مجلة «وجهات نظر» في عدد «يوليو» مقالا مترجما عن كاتبة أمريكية نشر في مجلة «الأتلانتيك مانثلي» يمكن أن يعد دفاعا عن «الأخضر الإبراهيمي»، ويغيب عن المقال تفنيد لأي ادعاءات تستوجب الدفاع. وهكذا يبطن المقال أن «الأخضر الإبراهيمي» يتعرض لاتهام ما دون افصاح عنه. وبهذا يصبح المقال دفاعا معلقا في فضاء، أو إعلانا ترويجيا. ويثير الالتباس كذلك شخص المدافع، وساحة الدفاع. غير أن إحقاق الحق يقتضي الإقرار بأن المقال المردود عليه قد كتب قبل تبلور الأحداث التي ينصب عليها المقال الحالي، فهل كان بمثابة «دفاع استباقي»؟

وليس غرض هذا المقال تقديم لائحة اتهام «الأخضر الإبراهيمي»، أو اغتيال شخصه. وإنما المساهمة في مناقشة، تطمح لأن تكون موضوعية، لبعض القضايا العامة التي يذكر بها هذا الدفاع- الاتهام، من منظور عربي، وقد تفضي المناقشة، عرضا، إلى حكم مسبب على الشخص.

على أي حال، الذي يعنينا أساسا في الموضوع هو أن «الأخضر الإبراهيمي» هو المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى العراق، وقبلها لأفغانستان. وقد علق البعض آمالا على قيام الرجل، وهو عربي من بلد عربي مناضل مجيد، بهذا الدور المحوري في واحدة من أكثر الأزمات العربية المعاصرة أهمية وتأثيرا على مقدرات الأمة بكاملها. وقد أذكى هذا الأمل تصريحات للمبعوث نفسه قبل أن تسفر التطورات الفعلية عن تواري دوره وغلبة النفوذ الأمريكي المدعوم بجيش أجنبي ضخم ما زال يدنس أرض العراق.

وتكمن أهمية العراق وأفغانستان في كونهما محطتين مهمتين في المشروع الإمبراطوري الأمريكي الذي يجعل من إعادة تشكيل منطقة «الشرق الأوسط الكبير» أو «الأوسع» منطلقا أول في مخطط المحافظين الجدد المعروف باسم «القرن الأمريكي الجديد»، والذي هيمن على سياسات وأفعال الإدارة الأمريكية الحالية مسكونا بفهم مغلوط للإسلام والعروبة ومتبنيا منطقا معوجا يخلط بين «الإرهاب» والمقاومة المشروعة للاحتلال، ولا يتورع عن اقتراف فعل الاحتلال وإهدار الإرادة الشعبية والحرية بذرائع لا تخفى الأطماع الاستعمارية إلا عند من فقدوا البصيرة وإن أبصروا.

على صعيد نسق الحكم العالمي، سعت الإدارة الأمريكية الحالية لاستغلال منظمة الأمم المتحدة، وبوجه خاص مجلس الأمن الدولي، الذي تحتفظ فيه بالعضوية الدائمة، وحق النقض، لتحقيق أغراض مشروع «القرن الأمريكي الجديد»، وإن بالتجاوز للشرعية الدولية كما استقرت في ميثاق الأمم المتحدة، احتماء بغطرسة القوة الأعظم في العالم. وتبلور هذا في مبدأ «بوش» الأمني الذي أدخل منطق الضربات العسكرية الاستباقية الذي يتبلور شبه إجماع من فقهاء القانون الدولي على مخالفته لميثاق الأمم المتحدة نظرا لغياب دافع التهديد المباشر للأمن القومي كمبرر للعمل العسكري، الذي يفترض، في عرف الميثاق، أن يكون دفاعيا في الأساس.

وقد عانت البلدان العربية من هذا التحول في دور المنظمة الدولية أكثر من أي منطقة من العالم، نتيجة لمزيج من الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، وضعف المنظومة العربية وفرقتها. فتعرضت بلدان عربية للعدوان العسكري من قبل الولايات المتحدة في السودان وليبيا، وفي العراق حتى قبل غزوه، بالتعاون مع حليفها الأول، المملكة المتحدة، على صورة مناطق حظر الطيران والضربات الاستباقية من دون غطاء من الشرعية الدولية.

وعندما لم تفلح الإدارة الأمريكية الحالية في توظيف الأمم المتحدة خدمة لأغراضها، كما حدث في واقعة غزو العراق واحتلاله، تجاوزت المنظمة الدولية تماما، فغزت العراق من دون غطاء من الشرعية الدولية، بل في تقديري في إهدار جسيم لمبدأ الشرعية الدولية ذاته، ولمصداقية الأمم المتحدة وفعالية دورها في الحفاظ على الأمن والسلم في العالم كافة.

بل وصل الأمر بالإدارة الأمريكية الحالية إلى العمل على تقويض أسس الشرعية الدولية، والمثال الأهم على هذا في تقديري هو عمل الإدارة الأمريكية الحالية الدءوب على المحكمة الجنائية الدولية في تناقض صريح مع إجماع عالمي تبلور في «قانون روما»، وما فتئت الإدارة الأمريكية الحالية تسعى بشتى السبل لإعاقة المحكمة من خدمة أغراضها النبيلة بوجه عام وفي ضمان حصانة لمواطنيها من المحاكمة الجنائية لا تجد له تفسيرا إلا في عزم الإدارة الأمريكية الحالية على اللجوء لجميع وسائل إنفاذ مشروع «القرن الأمريكي الجديد»، ولو بانتهاك حقوق الإنسان وارتكاب جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية، تتكاثر الدلائل على اقترافها فعلا في أفغانستان والعراق، ناهيك عن «معسكر دلتا» في قاعدتها في خليج «جوانتانامو» والذي لم تجد المحكمة العليا الأمريكية مناصا من الاعتراض على أسلوب إدارته مؤخرا.


يبحث عن النتائج الممكنة .. لا عن المعجزات
لورا سيكور
«البراجماتي»

في هذا السياق المعقد والخطير، الذي تواجه فيه الأمة العربية مخاطر حالة وكوارث داهمة، والذي يثير قضايا محورية، يتعين تقييم دور «الأخضر الإبراهيمي»، ونرى أن المنظور الأولى بالاعتبار هنا هو حرية الأوطان وعزة الوطن العربي، والقضايا المثارة بشأنها.

الفرد والمؤسسة

من أسف أن استشرى في البلدان العربية التركيز على الأشخاص عوضا عن القضايا والأوطان. وكم رأينا بلدانا عربية تنسب إلى شخص قائد قد لا يكون فوق مستوى الشبهات، حتى لا نقول الإدانة، خاصة في منظور الحكم الصالح.

لا ريب أن للأشخاص دورا محوريا في التاريخ. ولكن دور الأشخاص يزداد في النظم غير المؤسسية حتى يصبح تحجيم دور الفرد، وتقييده بالبنى المؤسسية الفاعلة والقواعد القانونية، مطلبا لازما في العمل على إصلاح نظم الحكم، سواء كان ذلك على المستوى القطري أو الإقليمي أو العالمي. ومن هنا كان اهتمامنا في مطلع المقال بالبنية المؤسسية على الصعيد العالمي، وكيف يؤدي اختلالها إلى إهدار الحقوق المشروعة للعرب في الاستقلال والتحرر الوطني في ظل قوة أعظم غشوم لا تتورع حتى عن إهدار المبادئ السامية التي تتشدق بها بل تتذرع بها أثناء إهدارها خدمة لأطماعها، في ممارسة خبيثة للنفاق والمخاتلة.

إلا أنه ما بقيت المؤسسية ضعيفة وهشة، سيظل الأفراد في صدارة الاهتمام. ومن هنا سيبقى من الضروري تقييم أدوار الأفراد، خاصة فيما يتصل بأثرهم على مصائر الأوطان. ولكن يتعين في نظري أن يدور النقاش حول القضايا وأن يجري الاحتكام إلى معايير موضوعية قدر الإمكان.

ليس ملاكا

إن كان يمكن أن يكون في السياسة ملائكة على الإطلاق، فإن «الأخضر الإبراهيمي» تأكيدا ليس من بينهم.

فالرجل مثلا، ووفقا لمقال الدفاع، رغم تاريخ مجيد، كان ضمن ستة أعضاء في اللجنة الأمنية التي شكلت لإدارة الجزائر بعد إلغاء الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٢، ودافع عن شرعية اللجنة بقوله «إن جبهة الإنقاذ ما كان ينبغي منحها الشرعية»، وهل هناك من يمنح الشرعية غير الشعب؟

وقد يقول البعض إن الملائكية ليست من صفات الساسة. ونضيف أن البراجماتية ليست بالضرورة من الصفات الصانعة للمناضلين السياسيين.

غير أننا لا يجب، على أي حال، أن نستبعد وجود «أشباه ملائكة» في ساحة

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

السياسة، انظر فى حالة «نلسون مانديلا»، مثلاً، وإلى أين أوصلت جنوب أفريقية التى تنازلت مصر لها مؤخرا، وبحق فى تقديرى، عن مقر البرلمان الأفريقى!

هل «البراجماتية» ميزة؟

فى ظل علاقات قوة قهرية وفاسدة، يمكن أن تكون البراجماتية ميزة. ولكن فقط لصاحبها. إذ أنها تأتى على الأغلب وبالا على المبادئ ومصالح المستضعفين حيث تسود فى النهاية قيم ومصالح القوى المهيمنة على هذه البنى القهرية والفاسدة.

لكن يتعلل البراجماتيون دوما، بحكمة عدم إضاعة الممكن من أجل المستحيل (المعجزات بلغة المقال).

هكذا كانت دعوة «نيكولو ميكيافيللى» فى إهداء كتابه «الأمير» إلى أمير ذلك العصر حين قال «إن الرجال التواقين لنيل رضا أمير يتقدمون له، فى كل الأحوال تقرباً بالأغلى مما فى حوزتهم، أو بالأشياء التى يعلمون أنها تسعده بوجه خاص ... والآن، أنا تواق لأن أتقدم لعظمتكم بشاهد على إخلاصى لكم ... أمور درستها بدأب شديد، ومحصتها لزمن طويل، والآن بعد أن لخصتها فى كتاب صغير، أرسلها لفخامتكم».

وعلى غرار ذلك القربان سيئ السمعة، جرت على الصعيد العربى دعوة «تجسير الفجوة بين المثقف والأمير» فى الثمانينيات.

ولا مراء أن البراجماتية قد جرت على الأمة العربية كوارث لا تعد وتحصى.

باسمها تدافعت أنظمة عربية للتصالح مع إسرائيل، مع بقائها عنصرية توسعية وعدوانية، حتى أصبحت تعمل جهارا على الحلم القديم من «النيل للفرات»، بتغلغلها فى العراق، خاصة فى شماله فى تحالف وثيق مع الأكراد، واستمرار سيطرتها على الأراضى الفلسطينية المحتلة، بما فى ذلك غزة ولو انسحبت منها صوريا. كل ذلك والعرب غارقون فى البراجماتية، يلهثون وراء الممكن الذى لا يشفى للشعب العربى غليلا.

وباسم البراجماتية أيضا تتدافع الأنظمة العربية على التخضع للقوى المهيمنة على الصعيد العالمى، خاصة القوة الأعظم، حتى امتشقت قيادات عربية أسلوب «الاستسلام الاستباقى»، ويعمل بعضها على تقويض جامعة الدول العربية، على علاتها، وأضحت مجموعة الثمانى بقيادة الولايات المتحدة تقدم بدائل مؤسسية للتنظيم الإقليمى العربى، تُدمج إسرائيل، من موقع متميز، فى نسيج المنطقة، تمييعا للهوية العربية فى محيط إقليمى أوسع ينطلق من هوس «الإرهاب الإسلامى».

ماذا جرى فى العراق؟

لاشك عندى فى أن غزو العراق واحتلاله يمثل بداية المخطط الأمريكى لإعادة تشكيل المنطقة العربية، والعالم عبرها، خدمة لمشروع «القرن الأمريكى الجديد».

فقد تهاوت كل ذرائع احتلال العراق المعلنة، ولم يبق منها إلا الاستيلاء على ما يمكن أن يتحول إلى أكبر مخزون نفطى فى العالم، وضمان أمن إسرائيل، ومقاومة الإرهاب فى منابعه، كما يتصورها سادة الإدارة الأمريكية الحالية. وعلى وجه الخصوص أضحت تعلة التحرير والازدهار لشعب العراق، مزحة سخيفة لا تضحك.

ومن هنا فإن الحالة العراقية تتعدى حدود العراق إلى التأثير على مقدرات الوطن العربى بكامله. فماذا جرى؟

على حين بدا (فى منتصف أبريل) أن الولايات المتحدة على استعداد لقبول خطة مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة لنقل السلطة للعراقيين، والتى تتحلل من استمرار نفوذ مجلس الحكم الانتقالى لصالح تكوين حكومة عراقية من شخصيات مشهود لها تمهد لانتخابات فى مطلع ٢٠٠٥، تحت رعاية المنظمة الدولية. تعالت أصوات (٢٠ أبريل) من الإدارة الأمريكية الحالية تقلل من قدرة العراقيين على حفظ الأمن، من دون مساعدة خارجية (الحاكم الأمريكى «بريمر»)، وأن رعاية الأمم المتحدة لا تشكل حلا سحريا لمعضلات الأمن فى العراق (مستشارة الأمن القومى «رايس»).

وفى نهايات مايو ٢٠٠٤، تقدمت الولايات المتحدة وحليفتها المملكة المتحدة، بمشروع قرار لمجلس الأمن بشأن العراق، وتضمن المشروع- الذى قُدم قبل تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة- فقرة تنص على أن هذه الحكومة ستتقدم بطلب لمجلس الأمن لبقاء قوة متعددة الجنسيات فى العراق.

وكان مشروع القرار ينص على أن تبقى قوة متعددة الجنسيات، تحت قيادة أمريكية، فى العراق على الأقل لمدة عام، قابل للتجديد.

فى البداية كان المشروع ينص على أن للحكومة العراقية أن تطلب إنهاء تواجد القوة فى العراق وينظر مجلس الأمن فى الطلب (ومفهوم أن هذا يعنى أن بقاء القوة سيتوقف على ما تريده الإدارة الأمريكية بسبب امتلاكها لحق النقض- الفيتو فى المجلس). ويتيح للقوة أن «تتخذ جميع الإجراءات اللازمة للحفاظ على الأمن والاستقرار فى العراق، بما فى ذلك منع الإرهاب»، ولكن اختلفت الأقوال والاتجاهات بعد ذلك حول مدى صلاحية الحكومة العراقية الآتية فى تحديد مدة بقاء القوة أو التحكم فى عملياتها. وقبل انتهاء مداولات المجلس، أعلن وزير الخارجية الأمريكى، منفردا، أن الحكومة العراقية المؤقتة لن يكون لها حق الاعتراض على العمليات العسكرية للقوة متعددة الجنسيات. وينص المشروع كذلك على ترتيبات مماثلة فيما يتعلق باستمرار الإشراف الدولى على عائدات النفط.

وقد أسفرت تعيينات الحكومة العراقية المؤقتة (نهاية مايو ٢٠٠٤) عن غلبة المرشحين وثيقى الصلة بالإدارة الأمريكية الحالية، خاصة أجهزة استخباراتها، ومجلس الحكم الانتقالى المعين من قبل سلطة التحالف، على حين توارى دور المبعوث الخاص للأمين العام للأمم المتحدة. ما يثير الخشية أن تُستغل المنظمة الدولية فى تدويم نفوذ تحالف الاحتلال الأمريكى- البريطانى تحت مظلة مُدولة وبوسيط عربى، الأمر الذى يقلل من مصداقيتها فى لعب الدور المأمول منها فى بناء مجتمع الحرية والحكم الصالح فى البلدان العربية وفى ضمان حقوق العرب المشروعة فى التحرر الوطنى على وجه الخصوص. كما قام تشكيل الحكومة على نسق التقسيم الطائفى والمللى الذى اعتمد فى تشكيل مجلس الحكم من قبل سلطة تحالف الاحتلال، ما ينبئ عن تكريس الطابع الفسيفسائى للعراق، بدلا من وحدة المواطنة العراقية، بعد انتقال السلطة لأيدى عراقية.

وصدر قرار مجلس الأمن (١٥٤٦) بالإجماع (٩ يونيو) مفوضا القوات متعددة الجنسيات باتخاذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة للحفاظ على أمن واستقرار البلاد، وحارما الحكومة العراقية من الاعتراض على عملياتها العسكرية. وحدد موعد إجراء الانتخابات بنهاية يناير ٢٠٠٥.

هكذا، جاءت النتائج، خاصة فيما يتصل بطبيعة الحكومة العراقية المؤقتة، وشخوصها، مخالفة لكل ما دعا إليه «الأخضر الإبراهيمى»، واستبشر به كثير من العرب. فرضت الإدارة الأمريكية كل خياراتها، وأذعن لها «الأخضر الإبراهيمى» دون احتجاج أو اعتراض. حتى أصبح العراق بعد تسليم «السلطة» نسخة مكررة من افغانستان. نقلت السلطة إلى العراق فى مسرحية جرت فى غرفة ضيقة شارك فيها عدد محدود من الأفراد، وتسلم فيها عميل للاستخبارات الأمريكية قصاصة ورق ممضاة من موظف أمريكى دون المستوى الرفيع كان حاكما للعراق الجليل لأكثر من عام، وأى مهانة!

وقام نظام حكم مغلول اليد يأتمر بأمر الأمريكان فى واشنطون وفى عموم العراق، وسعيد بهذه الحال، يتسيد فيه عملاء ليس فقط للإدارة الأمريكية ولكن لأجهزة استخباراتها. على وجه التحديد، وصارت يد جيش الولايات المتحدة، وحلفائه مطلقة فى البلد. ويطالب «وزير» خارجيته بهذه المكانة الدونية للحكومة «ذات السيادة» فى المحافل الدولية، بل ويهدد، فى مشهد مضحك مبك، بإطلاق الجيوش الأجنبية على دول الجوار. وهل رأيتم من قبل كلبا يهدد بإطلاق صاحبه الممسك بلجامه على الجيران!.

فماذا كسب العراق أو الوطن العربى من براجماتية «الأخضر الإبراهيمى» أو غيره.

يقال أن هذا كان هو الدور المرسوم للبراجماتى، وقد لعبه بحذافيره سابقا فى أفغانستان، وأن هذا هو بالضبط ما أهله للمهمة ذاتها فى العراق. وسواء كان مرسوما أم لم يكن، فهذا هو ما جرى.

ويقول المدافعون انه خُدع أو أخطأ التقدير. وليكن، فليس لنا فى كل هذا من عزاء.

خاتمة

إن الوطن العربى يجتاز لحظة تاريخية لا تقبل التوفيق. هى لحظة انتقال من واقع قمىء إلى مستقبل نرجو أن يكون أفضل، وإلا فالبديل هو استمرار التردى. هناك قوى اجتماعية تسعى إلى تدويم الحالى وأخرى تتوق إلى، وتعمل من أجل بديل أرقى إنسانياً. إلى الأولى ينتمى الحكم الراهن، والغرب المسيطر، والبراجماتيون العرب، وإلى الثانية ينتمى الشعب ومثقفو الجماهير.

ويتطلب منظور تجاوز الواقع العربى المر، أن يكون المثقفون حراباً تهتك أستار العفن الكثيفة التى تغلف الوجود العربى فى الحقبة الراهنة، توقاً إلى بديل إنسانى أرقى للشعب العربى. وهذا دور طليعة المثقفين: مثقفى الجماهير. فالحراب دوما اختراق وتجاوز.

وليست هذه، تأكيدا، دعوة إلى المثالية المطلقة، أو للتخلى عن الواقعية.

وإنما بدون قليل من المثالية لا يمكن حتى بدء النضال المطلوب من أجل إصلاح بنى القهر والفساد، بدءا من الواقع المعاش- وهذا هو المفهوم الوحيد الذى نقبله للواقعية فى منظور النضال من أجل الحرية فى الوطن العربى.

فى النهاية، وبعد أن تجرعنا علقم البراجماتية طويلا، فلنجرب قليلا من المثالية وكثيرا من النضال، لعلنا نصلح به حال الأمة.

نادر فرجانى

حوار مع رئيس التحرير

قرات فى عدد المجلة الصادر فى يوليو ٢٠٠٤ المقال الافتتاحى للعدد بقلم الأستاذ سلامة أحمد سلامة الذى أتابع قراءته دائماً بكل الجدية والاحترام، نظراً لما تتميز به مقالاته من الشمول والعمق، والإدراك العميق لمسئولية الكلمة خصوصاً عندما تنطلق من انتماء وطنى وحس موضوعى واستقلال عن منابر السلطة ومراكز القوى، وحرص على أن تكون دائماً شعاعاً مضيئاً وهادياً للقارئ فى زمن تداخلت فيه الرؤى وتضاربت وتناقضت حتى استحالت أمامه إلى سديم من الظلام والأوهام والضلالات. لكل ذلك أردت أن أتحاور معه فى بعض ما ورد فى مقاله وذلك على الوجه التالى:

إن ثورة الاتصالات وما يطلق عليه العولمة حقيقة لا معنى لإنكار او تجاهل وجودها، ولا مفر من التعايش معها والاستفادة من منجزاتها التكنولوجية، والتفاعل مع ما تطرحه من أفكار وهو ما اتفق عليه مع الكاتب، ولكن هل يعنى ذلك أن تتخلى الشعوب عن هويتها الثقافية والحضارية وتتنازل عن انتماءاتها الوطنية والقومية، وتضع على قائمة أولوياتها السياسية والاقتصادية والثقافية ما تطرحه العولمة عليها من مقترحات؟ ذلك مالا أتفق معه فيه.

إن تصوير الأمر على ذلك النحو يجعل من العولمة قدراً حتمياً لا مفر من الرضوخ لكل أحكامه، إذ ماذا تجدى المقاومة وطوفان العولمة قادر على زعزعة أركان السلطة مهما بلغت قوتها وجبروتها، بل وقادر على اختراق الحواجز والدول. وما أفهمه أن العولمة هى التجلى العصرى لآخر مراحل الرأسمالية حيث الشركات متعددة الجنسيات تتجاوز الحدود القطرية للدول، وتهيمن على السوق العالمى استنزافاً لموارده وطاقاته، وسعياً إلى التغلغل الثقافى والإعلامى فى عقول البشر فى كل القارات، بحيث يتحولون إلى جمهور من المستهلكين الباحثين عن متعة الطعام الجاهز والمعلب، والموضات المتجددة للملابس، وأوهام الرفاهية، وطموحات التطلع الفردى للامتلاك جرياً وراء ادعاء العصرية، المنعزلين دائماً داخل انتماءات ضيقة أسرية أو عائلية او طائفية، والذين تختلط عندهم وفق برامج دعائية مقصودة الثوابت والمتغيرات وما هو جوهرى وما هو عرضى.

ويشير الكاتب إلى أن ثقافة مجتمع المعرفة ثقافة مختلفة عن الثقافة التقليدية بمعطياتها وأدواتها وتقنياتها المتقدمة، ويكتب إن صناعة اللهو والتسلية هى جزء من الثقافة الحديثة.

وتعليقى على ذلك أن الثقافة بالمعنى الضيق تشمل العقائد والأفكار والرؤى والمفاهيم، والثقافة بالمعنى الواسع تشمل كل ما أبدعته الشعوب من رؤى سحرية وأسطورية وفلكلورية، أما ما يطلق عليه الكاتب اسم الثقافة الحديثة فيتضمن ما توفره التقنيات التكنولوجية من عوامل الإبهار والإثارة والمتعة البصرية والسمعية وشطحات الخيال الذى توفره أجهزة الكمبيوتر وهو مالا يصنع ثقافة حقيقية تثرى عواطف الإنسان وعقله ووجدانه، وترقى بذوقه وحسه الأخلاقى والحضارى، وتعمق انتماءاته الوطنية والإنسانية، وتمنحه القدرة على الارتفاع فوق التعصب والجمود العقائدى وعبادة الذات واحتقار الآخر.

اما بالنسبة لما طرحه الأستاذ سلامة بشأن مبادرات الفكر الفردية أن ذلك يتجاهل البعد السياسى للموضوع الذى أدى إلى تحجيم ومحاصرة تأثير المثقفين المبدعين الوطنيين التقدميين الذين يترفعون عن نفاق الأنظمة أو التهافت على فضلات موائدها، فأود أن أقول إن هناك عديدا من المثقفين الجادين المحبين لمصر شعباً ووطناً وتاريخاً والذين يعرفون قدرها موضعاً وموقعاً وقدرة على التأثير فى محيطها، والذين يملكون من الرؤى والأفكار ما هو كفيل بانتشالها من أزماتها واختناقاتها لكنهم محرومون من فرص التواجد والتأثير على الجمهور العريض من خلال منابر ثقافية وإعلامية مستقلة.

مات الدكتور شكرى عياد الأستاذ الجامعى والمبدع والناقد والباحث والحاصل على جائزة الدولة التقديرية دون أن يتمكن - بسبب عراقيل أمنية - من الحصول على ترخيص بإنشاء شركة للطبع والنشر كان يخطط من خلالها لإصدار مجلة ثقافية جادة.

محمود عبد الوهاب
قاص وناقد أدبى

طاعة الله وطاعة الحاكم

قرأت مقال الأستاذ سلامة أحمد سلامة فى عدد (يونيو الماضى) عن الوجه الآخر للإرهاب والاختلافات بين الدول الغنية والدول النامية فى أسلوب مقاومته. واتفق مع الكاتب فى أن القوة الوحيدة على الأرض التى يمكن أن تصحح الموقف الخاطئ هى الشعب. لكنى لم تعجبنى نهاية المقال عندما قال الكاتب إن الناس لازالوا يعتقدون أن طاعة الحاكم من طاعة الله. وأنا لا أجد خطأ فى ذلك طالما كان الحاكم عادلاً. وفى الإسلام لا طاعة لمن يسلك غير ذلك.

محمود هلال
سائق تاكسى

طاعة الحاكم من طاعة الله إذا كان هذا الحاكم يحكم بشرع الله لا يوالى الصهاينة ولا يسالمهم ويمكنهم من العبث بأمن بلاده تحت دعوى السلام.. إذا كانت زوجته حقاً تمثل النساء المسلمات ولا تستنكف من لبس الحجاب الذى فرضه الله على النساء كافة دون تمييز لا أن تأمر بمنع ارتداء الحجاب فى المؤتمرات التى تحضرها هى لرفع الحرج الذى أصابها عند سؤال إحدى الغربيات لها عن السبب فى عدم ارتداء الزى الإسلامى.

عـــزة
طبيبة أسنان

الهند والولايات المتحدة

بالإشارة إلى مقال رئيس التحرير فى عدد مارس الماضى عن الهند أود أن أبدى إعجابى الشديد بالمقال وكتابات الأستاذ سلامة بشكل عام.

إن المقال الذى كتبه الأستاذ سلامة عظيم حقاً. إن هناك ما يسمى الآن تصدير الوظائف الأمريكية إلى الهند الأمر الذى يدر مليارات الدولارات على الهند.

وقد استفادت الشركات الأمريكية فى الطفرة السريعة فى الاتصالات والإنترنت فاستأجرت الهنود وهم فى وطنهم لكى يعملوا لديها.

وبذلك توفر هذه الشركات فى المرتبات وفى الضرائب. مع أجمل تحياتى للكاتب.

حسان عوض حسان
رجل أعمال مصرى
مقيم فى أمريكا

أعجبنى تحليل الأستاذ سلامة أحمد سلامة الموضوعى جداً فى مقاله فى عدد يوليو الماضى، لكن بصراحة أصبت بخيبة أمل حيث لم أجد الدواء الشافى للمأساة الجماعية من الخليج إلى المحيط، كان بودى أن يقدم الحل الأمثل والطريق إلى تطبيقه عملياً عملياً عملياً على مستوى الأفراد والجماعات بعد أن انقطع الرجاء من الساسة القادة.

هـــل الحـــل هو الهروب من المجتمع وانتظار الدجال الأكبر بعد أن شبعنا من صغار أتباعه أو المهدى المنتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر أم الحل إنشاء خلايا للقاعدة بعد أن عسر التنسيق معها بسبب الحصار أم هناك حل آخر.

عـــلى داوود
الإسكندرية

رسائل

وجهات نظر الكتب

aljazeera.net

للتعليق على ما تنشره المجلة يمكنكم زيارة موقعنا على «الجزيرة نت»:
http://www.aljazeera.net/wejhat/comments.asp

الصفر والقمة

قرأت مقال الأستاذ أيمن الصياد فى عدد يونيو الماضى بعنوان: الصفر والقمة.. أمة فى خطر، ولم يزدنى المقال إلا إحباطًا عما هو موجود لدى بالفعل لما آل إليه حالنا كعرب ومسلمين، لكنى أريد أن أسأل الكاتب، أما آن الأوان لكى يعرف الجميع عبر أعلام حر مواقف الدول العربية كل على حدة وبصراحة مما يدور حولنا وما نحن فيه؟ لقد سئمنا أخبار اللا أخبار التى يصدرها المسئولون فى كل مكان من بلادنا العربية، وأنتم تدعون إنكم عالمون ببواطن الأمور نريد أن نعرف لأنه من حقنا أن نعرف ليكون بكل فرد قناعته ورأيه الشخصى فيما يحدث من حوله، لدى الكثير من الأسئلة، ولدى الكثيرين أكثر وأكثر، أرجو ألا أكون قد أطلت وشكرًا.

عماد فاروق
مقدم برامج التليفزيون

■

كيف نبدأ

رغم أننا نعرف تمامًا أين هى المشكلة ونعرف أيضًا ما هو الحل.. إلا أننا لا نعرف كيف نبدأ ومن أين يكون إصلاح الحال؟ نتفق على أن البقاء يجب أن يكون دائمًا للأصلح ولكن كيف فى ظل ما هو سائد من نظم وموروثات من فساد وواسطة وقيم تغليب الخاص على العام.. سيدى الفاضل إن الأمر يحتاج لثورة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. يكفى هذا ربما لن تقرأ هذا.

عماد فاروق
مقدم برامج التليفزيون

■

اكتشفتكم اليوم

لقد اكتشفت اليوم المجلة وكم سعدت بها بدرجة لا تتخيلوها وأطلب منكم أن لا تتوقفوا ولا تذهبوا بعيدًا فبفضلكم تظل صلتى بالعالم العربى مازالت قريبة، وبصراحة احترم كل ما تقومون به من عمل.. أنا لا أعدل عليكم أو أضيف عليكم أى شىء ولكن أنتم من المجلات التى لها صدى فى الوطن العربى كله لذا سأقترح على سيادتكم اقتراحًا هو أن تقترحوا على المكتبات المصرية أن تشجع الشعب المصرى على القيام بأعمال تطوعية فى المكتبة ولو يوم واحد فى الأسبوع تشجيعًا على اتساع الثقافة وشغل الشباب الصغير فى شىء مفيد هذه من الأفكار التى رأيتها هنا وكم أحب أن أرى مصر العزيزة تقوم بها.

نسرين رضا
سكرتيرة

■

السلام عليكم أشكركم على اهتمامكم بالشئون العربية والإسلامية. بعد ذلك أرجو منكم التكرم بقبول طلب بسيط مفاده: توفير نسخة من مجلة الكتب.. وجهات نظر، على العنوان التالى: مختار محمد محمود، ص. ب: ٣٤٨٣ جيبوتى.

مختار محمد محمود
طالب

■

جزاكم الله خيرًا على هذه النظرة الثاقبة وأكثر الله من أمثالكم فى هذه الأمة المنكوبة فأنتم أملنا.

وديع
مواطن موريتانى

■

كتاب الزاوية

سندباد إلى الغرب

مدينة للنساء

ألم تلاحظ أبدًا امرأة مغرمة؟ أرأيت كيف تزداد تعلقًا بجمالها وكيف يكاد الحب يضىء كل ركن من أركان كيانها؟ ثم هل رأيت المرأة فى بهو وقد أحاط بها المعجبون؟ إن لم تكن رأيت هذه أو تلك فإنك لم تر امرأة جميلة فى حياتك. فالجمال ليس صورة أو دمية. الجمال حركة وتيارات وإشعاعات أكثر مما هو تناسق.ومن الإشعاعات ما ينبعث من المرأة نفسها، ومنها ما ينبعث من مشاعر الرجال حولها.

والمرأة فى بوخارست هى أجمل نساء العالم، لا لأنها تحوز جائزة الجمال العرفى، بل لأن حركاتها وتياراتها وإشعاعاتها ناشئة عن إيمانها بفضيلة واحدة.. هى الفضيلة الوحيدة فى ناموس المرأة.. تلك هى فضيلة الحب، لا حب الشعراء مصفرى الوجوه، ولكن حب الرجل الذى يفهم الجمال ويقيس فضيلة المرأة بمقياسين: مقياس اهتمامها باجتذاب جنس الرجل أولاً، ثم مقياس جمالها المطلق ثانيًا.

هل لاحظت أن النساء اللاتى اشتهرن بتدويخ الرجال لسن من الجمال بالدرجة التى تتناسب مع الأدوار الخطيرة التى لعبنها؟ ذلك لأننا لا نراهن غالبًا إلا فى الصور، ولأن الجمال كما قلت لك لا يقاس بمقياس واحد، وهو ما أسميه الجمال المطلق، وإنما بمقياس أكبر خطرًا، هو ملكة اجتذابهن للرجل.

قـــــــراءة ..

القـــانون.. والقـــوة.. والعـــدل

طيبون هم أولئك الفقهاء ذوو الشعر الأبيض، الذين يمضون الساعات الطوال - والأشهر بطولها أحيانًا - فى جدلٍ حول دقة مصطلح هنا أو لفظة هناك لتخرج النصوص التى تشكل بتراكمها ما اصطلح على تسميته «قانونًا دوليًا»، فى عبارات «جامعة مانعة» كما يقول المناطقة العرب. طيبون هم - ربما - أو مفرطون فى مثاليتهم حينما يحتجون فى القرن الحادى والعشرين بنصوصٍ من قبيل «عدم شرعية احتلال اراضى الغير بالقوة.. أو التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين..». لاحظ ما جرى ويجرى وسيجرى فى فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والبوسنة والسودان.. إلى آخر قائمة مرنة لا تبدو لها نهاية.

يعرفُ الدارسون لفلسفة القانون أنه يصدرُ لتقنين وضع قائم، أو لتقرير ما اتفقت عليه الجماعة الخاضعة له أو المستفيدة من وجوده، تنظيماً لأمورهم وتحديداً للموازين والخطوط الفاصلة بين حقوقهم وواجباتهم. ويعرفون أن لا فائدة من قانون لا توجد آلية لتطبيقه. ويعرف التاريخ أدوات مختلفة للاضطلاع بتلك الألية؛ من جنود فرعون، إلى رجال حمورابى، إلى المحتسب فى عهد الخلافة، إلى الشرطة فى العصر الحديث، أو حتى «الشريف» فى الغرب الأمريكى.

والأصل أن يطبق «رجال تنفيذ القانون» قانونهم المحلى. والذى يتضمن بالضرورة ما أضيف إلى مواده من اتفاقات ومعاهدات صدقت عليها الجهات التشريعية للدولة المعنية.

وكانت المشكلة دائماً فى القانون الدولى، بعد أن ظهر مفهومه واستقرت أوضاعه تتمثل فى آليات تطبيقه. ومن ثم فى الجهة (الشرطة) التى من المفترض أن تضطلع بالتنفيذ.

ولزمنٍ - طال أو قصر - بدا أن توازن القوى بوسعه أن يتكفل بالمهمة، وإن «ردعًا لا عقابًا». وبدا أن «الأممَ المتحدة» قد تنظم الأمرَ بدرجة أو بأخرى. وكانت «المحكمة الجنائية الدولية» التى احتاج إنشاؤها لجهد وسنوات خطوةً بدت لازمةً لتثبيت دعائم هذا النظام.

ثم كان أن جاء قرنٌ جديد. والنظامُ الدولى «المتوازن» تنهار دعائمُه واحدةً بعد اخرى. ورويداً رويداً لاح فى الأفق - عبر الأطلنطى - ما بدا أنه حكومة «مركزية» أو فلنقل «عولمية». وسرعان ما أعلن القائمون عليها، بالقول وبالفعل، وبصراحة يُحسدون - أو نُحسَد نحن - عليها، أنهم ماضون لأخذ كل الأمر بأيديهم. وكان أن ارتدوا - علنًا - شارة «شرطى العالم»: «لدينا مهامٌ فى أربع وستين دولة..» كما قال جورج دبليو بوش، الذى اعتقل كويتيين فى باكستان وأرسل طائرته لتعدم - دون محاكمة - مشتبهاً فيهم يستقلون سيارة على طريق فى صحراء اليمن. ثم هاهو يدق الطبولَ على الطريق إلى دارفور.

نظرياً.. بدا وكأن القانون «الدولى» قد صارت له «شرطة دولية». إلا أن الواقع لا يأتى عادة مطابقًا للأوراق. كما أنه - بطبيعة الحال - ليس «ناتجًا لحساب» الأمنيات. فها هو «الشرطى الدولى» تحكمه ثقافته.. وبراجماتيته. وجوهرها منذ أن نشأت دولتهم قبل مائتى عام فقط يتمثل فى «إعلاء القوة» شعارًا.. وقانونًا غير مكتوب. ولكنه معروف للكافة. تعرفه شوارع نيويورك وفيافى تكساس زمن البدايات، وثقافة: «أنت تملك من الأرض بقدر قدرة حصانك على الركض.. وقوة سلاحك فى الحفاظ عليها». ويحذِّره مفكرون «أمريكيون» كثيرون ينبهون إلى «ثمن» الإفراط فى القوة.

اهتز ميزانُ القوة والقانون أكثر من مرة هذا الشهر:

١ - فى لاهاى أصدرت محكمة العدل «الدولية» قرارها بإجماع الآراء (عدا العضو الأمريكى) بعدم شرعية جدار الفصل الإسرائيلى «العنصرى» فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وبتعويض الفلسطينيين المتضررين. تعليقاً على القرار خرج ايريل شارون معلنًا «أننا مستمرون فى البناء..». وبلع الأمريكيون ألسنتهم. واستهزأ مندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة بالجمعية العامة التى تمثل «قانونا» الشرعية الدولية.

٢ - فى نيويورك تقدمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى مجلس الأمن بطلب تجديد القرار رقم ١٤٢٢ والذى يعطى الحصانة عمليا لمواطنى الولايات المتحدة (دون بقية سكان هذا العالم الواحد) من الملاحقة القضائية أمام المحكمة الجنائية الدولية فى حال اتهامهم فى قضايا الابادة الجماعية أو بجرائم الحرب أو بتلك التى توصف بأنها ضد الانسانية. وكانت الجهود الأمريكية لإعطاء جنودها تلك الحصانة لم تتوقف على مدى الأعوام الماضية. بتواطؤ معيب من دول خائفة أو طامعة. وهى الجهودُ التى وصفتها منظمة العفو الدولية فى تقرير أخير بأنها «يمكن أن تُقوضَ النظامَ الجديد للعدالة الدولية».

٣ - فى واشنطن قررت المحكمةُ العليا الأمريكية (أخيراً) أن سلطة القضاء الأمريكى تصل إلى المعتقلين فى خليج جوانتنامو. وأنه يجب إعطاء المعتقلين فرصة تحدى أسباب اعتقالهم أمام قاض فيدرالى أو «صانع قرار محايد». لتكشف كيف أن «روح القانون توارت لثلاث أعوام كاملة أمام طغيان القوة المدفوعة بمشاعر الثأر والانتقام». والتعليق لكاتب أمريكى فى الواشنطن بوست.

٤ - فى بغداد وفى أولى الجلسات الإجرائية لما وصفه البعض - استباقًا - بأنه سيصبح محاكمة القرن، وفى تلك القاعة «السرية» فى مكان ما من العاصمة العراقية، طفت تساؤلات سقراط الأزلية عن «نسبية العدل» وخرج صدام إلى شاشات التليفزيون ببدلته البالية وبدون رباط عنق ليتساءل: «هل أنا مجرم لأننى غزوت الكويت. وبوش بطل لأنه غزا العراق؟».

وبغض النظر عن السؤال الذى بدا شكسبيرياً، فقد كان مثيراً أن تجد أصداءه فى كتابات أمريكية تساءلت عن الفارق بعد أن قررت لجنة الاستخبارات فى مجلس الشيوخ الأمريكى أن التقارير التى تحدثت عن وجود أسلحة دمار شامل فى العراق، والتى بحجتها ذهب الجنود الأمريكيون إلى الحرب «كانت خاطئة وكاذبة». وبعد أن اعترف دونالد رامسفيلد - بكل جرأة - أمام مشاهدى «فوكس نيوز» أن الإعلان عن وجود تلك الأسلحة وبالصورة التى تم تقديمه بها إلى الأمم المتحدة «افتقد الدقة.. وكان وهمياً».

«ما الفارق؟.. من الأخيار ومن الأشرار؟» يتساءل كريستوفر ديكى فى النيوزويك، مقرراً أن «سيادة القانون» أصابها الوهن عند كل خطوة على الطريق إلى بغداد».

شريعة الغاب هى إذن. لا فرق - تقريباً - بين عدى «المتوحش» ورامسفيلد «الحداثى» أو قائده الميدانى فى العراق. فذات يوم وجد الأول فى محاكمة عمه حسين كامل المجيد بتهمة الخيانة العظمى، ترفًا لا لزوم له، فغدر به وقضى عليه فى مذبحة عائلية دموية شهيرة. وفى الموصل - حيث اختبأ - وجد الـ Terminator أن لا معنى لمحاكمة «أوراق الكوتشينة» فاستسهل إطلاق ٢٠ صاروخاً وعشرات القذائف على «الشقيقين» وطفل فى الرابعة عشرة من عمره، فى مذبحة عائلية «أكثر عدلا وأكثر حداثة»!

كأن لافرق - دمويًا - بين الغابة والحداثة. بين ماكان وماهو حاضر الا فى التفاصيل. فالسلاح هو لغة التعامل الوحيدة تقريبا. ومادمت الأقوى، فلك أن تستعمل قوتك «الآن وفوراً». فسواء كنت صدام أو رامسفيلد أو شارون أو الزرقاوى، لن تصبح بحاجة الى ترف القانون والمحاكمات المملة السخيفة. فمادامت يدك على الزناد، يصبح القانون قانونك. أو بالأحرى تصبح القوة قانونك. ويتجسد القاضى فى إصبعك على الزناد.. وعذرا لأصحاب الأرواب السوداء.

هل يمتثل شارون «القوى» لما قررته محكمة العدل الدولية؟ وهل يدفع بوش «الأقوى» ثمن إشعاله حرباً غير شرعية، وبمبررات ثبت كذبها؟ وهل يقبل الأمريكيون أن يتساووا ببقية البشر أمام المحكمة الجنائية الدولية فى حال ارتكابهم لجرائم ضد الإنسانية؟ وهل يعرف حاملو السواطير الذين جاءت بهم السياسات الأمريكية الخرقاء إلى العراق أن للدم الإنسانى حرمته؟

الإجاباتُ معروفة. ومعها يصبحُ القلقُ من أن تحتلَ القوةُ الطاغيةُ مكانَ العدل مشروعاً. بل ويصبحُ الأكثرَ مدعاة للقلق (لاحظوا الالتفاف الأمريكى على قانون المحكمة الجنائية الدولية بتشريعات بديلة) أن يأتى اليوم الذى يصبحُ فيه القانونُ نفسه قانونَ المنتصر .. أو بالأحرى قانونَ القوة. وهذا للأسف درسُ التاريخ.

أيمـــن الصيـــاد



شكرا
rejoignez
2
millions
nous
d'abonnés
تتقدم شركة أوراسكوم تيلكوم بخالص الشكر والاعتزاز لكل الفنانين العرب الذين شاركونا
الاحتفال فى الجزائر بوصول عدد مشتركى شبكة جازى جى إس إم إلى ٢ مليون مشترك
نشكركم لدعمكم الثقافى والفنى الذى كان له أثره العظيم فى قلوب شعب الجزائر الشقيق
Sponsorisé par
Djezzy
جازي
GSM
Membre du groupe Orascom Télécom
Feel The World
ORASCOM
TELECOM
The Communication Community of the Middle East

فقط مع البنك العربى .. **قروض ميسرة** تصل إلى

٢٥,٠٠٠ جنيه مصرى



** أحقية الحصول على القروض ترجع إلى سياسات وقرارات البنك العربى

RESALA

- قرض السيارة الجديدة
- قرض السيارة المستعملة
- القرض النقدى
- قرض موظفى البنوك
- قرض الأطباء
- برنامج چيت كاش

وتمتع بإمكانية



الحصول على خدمات
إلكترونية فريدة



إصدار بطاقة صراف آلى

البنك العربي

أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة

ARAB BANK PLC

إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءاً

www.arabbank.com